

تأليف

آية الله العلامة الجليل الشيخ عبد الله الجوادي الآملي

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام
الى المسجد الاقصا الذى باركنا حوله لنريه
من اياتنا انه هو السميع البصير





الإسلام والبيئة

سرشناسه: جوادی آملی،عبدالله، ۱۳۱۲-
عنوان وپدیدآور: الاسلام والبیئه / تالیف جوادی آملی ؛ مترجم:سیدمقدادحیدری .
مشخصات نشر:قم:اسراء:۱۳۸۷.
مشخصات ظاهری :۳۴۶صفحه. عربی .
شابک۲-۲۸-۸۷۳۹-۹۶۴-۹۷۸
وضعیت فهرست نویسی : فیپا
یادداشت: کتاب حاضرترجمه متن سخنرانی های آیت الله جوادی آملی درباره اسلام و محیط زیست به زبان عربی است.
موضوع: محیط زیست – حفاظت – جنبه های مذهبی – اسلام .
موضوع: اسلام و اجتماع.
موضوع: طبیعت – جنبه های مذهبی – اسلام .
موضوع: روابط اجتماعی– جنبه های مذهبی – اسلام .
رده بندی کنگره:۱۳۸۷ ۵۰۴۳ الف۸۶ج/ ۱۵۵ /BP۲۳۰
رده بندی دیویی:۶۵ / ۲۹۷
شماره کتابشناسی ملی: ۱۶۵۹۱۴۹

• اسم الكتاب: .... **الاسلام والبيئة**
• المؤلف: .... آية‌الله‌الشيخ عبدالله الجوادي الآملي(دام ظله العالي)
• المترجم: .... السيدمقدادالحيدري
• الناشر: .... دارالإسراءللنشر
• المطبعة: .... دارالإسراءللنشر
• الطبعة: .... الثاني
• تاريخ النشر: .... ١٣٨٨هـ.ش ـ ١٤٣٠هـ.ق
• الشابك: ٢-٢٨-٨٧٣٩-٩٦٤-٩٧٨
• الكمية: .... ١٥٠٠ نسخة
• السعر: .... ٥٢٠٠٠ ريال

قم المقدسة، بلوارامين،زقاق رقم ٨،رقم الموسسة ١٣٧
الهاتف: ٦٦٤١٦٢١ – ٦٦٤١٦٢٢ – ٢٩٣١١٧٨ الفاكس: ٦٦٤١٦٢١
البريد الكتروني: Publish_center@esraco.net
www.esra.ir

المحتويات

كلمة الناشر

بسمه تعالى شأنه العزيز

الحمد و الثناء لله الحق الذي أظهر عالم الأمر و الخلق بكسوة النظام الأحسن بأبهى صورة، جاعلاً الارتباط بينهما يناسب الظاهر و الباطن.

فما كان يتمتع في الطبيعة و عالم الخلقة بجمال و إتقان تجد له في عالم الأمر مزيداً من الجمال و الكمال، إذ أن عالم الشهود الذي يمثّل طبيعة الله الجميلة و السليمة إنما هو مرآة عالم الغيب، فالأصنام المادية و الطلسمات الطبيعية ملهمة من الأنوار الإسفهبدية و القواهر الربوبية. و من نال الوصول إلى الملأ الأعلى و سلك الطريقة العظمى يعشق مظاهر الطبيعة لأنه يشهد بهجة العالم العلوي و حيويته في العالم السفلي:

أحب العالم و أعشقه لأنه من مظاهر الله سبحانه[1]

١. كليات سعدي، الغزل رقم ١٠.

ثم إن الإنسان المنقاد إلى الله في قبال الإنسان العاصي المتمرّد يحبّ عالم الطبيعة كما تحبّ الروح البدن و يعتبره بمثابة الجسم الذي تؤول سلامته و نشاطه و بهجته إلى نشاط الروح و سرورها و يجد نفسه مسؤولاً أمام البيئة و سلامتها؛ و تراه كما يجتهد في صحة جسمه و سلامته و يقلق إذا أصابه ضرر و يسعى لرفعه يتأسف و يحاول رفع الآفات التي تصيب البيئة و الأضرار التي تهدد حياتها.

و مما لا شك فيه أن الإنسان الكريم الذي يتحلى بمقام الخلافة الإلهية يحفظ مظاهر الجمال و الجلال الإلهي في الطبيعة و يتصدى لاستثمارها و استعمارها برؤية إلهية، و يُلزم نفسه في إعمار البيئة المحيطة به و إحيائها و الحفاظ عليها؛ و من هذا المنطلق كان أئمة الحق المقيمين للأوامر الإلهية و السنن الربوبية من روّاد نهضة الحفاظ على البيئة و إعمارها.

و من هنا فإن حفظ البيئة يعتبر علماً تجريدياً إنسانياً قبل أن يكون علماً تجريبياً طبيعياً، و ينبثق من المبدأ الإنساني للإنسان، و إنّ حصر النظر إليه بمنظار طبيعي و مادي يؤول إلى تحديد هذا الفنّ و إهمال هذا الشأن الإنساني الشريف، و بما أن الدين يتكفل بمختلف الشؤون و الأبعاد الوجودية للإنسان، فإن الأديان الإلهية بأسرها قد أوصت بهذا الأمر و قدّمت تعاليم عالية في هذا الشأن؛ و من هنا فإن علم البيئة و الحفاظ عليها هو علم إنساني ديني.

و من خلال هذه الرؤية، فإن هذا العلم يحتوي على كل ما تضمنته العلوم الإلهية و الإسلامية من معالم و معايير أصيلة منها المبدأ الفاعلي و المبدأ الغائي.

و لابد من الالتفات إلى أن عمل الإنسان و فعلـه و ردّ فعلـه إزاء الطبيعـة لابد و أن يطابق هذه الرؤية، و أن كل عمل يصدر من الإنسان لـه أثـر مباشـر على الطبيعة و على سلامة البيئة المحيطة بـه أو تلوثهـا. مـن هنـا فـإن أعمـال الإنسان الحسنة و الصالحة فـي الطبيعة تؤدي إلى نموّهـا و تكاملـها، و أعمالـه السيئة و الطالحة تسبب انحطاطها و سقوطها.

و إن العالم المعاصر الذي يبحث عن الصلح و المحبة و يبرمج للحياة السلمية لا يمكنه من دون الاستعانة بفهم مثل هذه الرؤية أن يصنع من العالم حياة ملؤهـا السعادة و الاستقرار.

و إن المنظمات الدولية التـي تضمنت لجان عديدة كالبيئة و حقوق الإنسان و ... قد أصيبت بنوع من الحيرة و التناقض، لأن النزعة الاستكبارية و التمهيـد للنموّ الاستعماري للقوى العالمية الشيطانية التـي تجـد حياتهـا فـي الحـرب و النزاع و العمل لإفشال المجتمعات لا يمكنها بتاتاً أن تفكّر فـي سلامة البيئة بل لم تأل جهداً بالإضرار بها؛ و من هنا فإن الـدين الحقيقـي و أهلـه الـصادقين هـم المنظمات و الأشخاص الذين يبذلون جهودهم لسلامة البيئة و الحفاظ عليها.

و الكتاب الماثل أمام المريدين لسلامة البيئة و المؤمنين بها قد استنار بـأسمى المعارف الإلهية و أعلى العلوم البشرية حيث تعرض لموضوع البيئة المهم و القـيم من مختلف الزوايا الإنسانية و الدينية، و تصدى للبحث و التدقيق فـي مـسائله برؤية وجودية من جانب و تعامل البشر معه من جانب آخر.

و قد قمنا في هذا الكتاب بجمع و تنظيم كل ما صدر من سماحة آية الله جوادي الآملي(دام ظله) بياناً و بناناً من نداءات متعدّدة و خطابات و مقالات مختلفة في مجال البيئة و حفظها و كذا سائر الموضوعات المرتبطة بالمقام لتكميل و تدوين هذا الفنّ كي نضع هذه المجموعة العلمية و الثقافية في متناول أهل الفكر و الثقافة، و العلم و الدين.

و رتبنا هذا الكتاب على مقدمة و خمسة فصول. فكان الحديث في المقدمة عن الجمال و كونه علماً، و أن العالم و الخلقة الجميلة مظهر جماله تعالى، و في الفصل الأول عن إعمار الأرض و أنه من مهام خليفة الله، و في الفصل الثاني عن أن هذا العلم بالإضافة إلى كونه علماً طبيعياً تجريبياً إلا أن أصله و أساسه يعود إلى قيمة الإنسان، و أنه يعد من العلوم الإنسانية و الدينية، و في الفصل الثالث عن علاقة أعمال الإنسان الحسنة و السيئة بالحوادث الطبيعية، و كذا عن الشرور التكوينية و النظام الأحسن و العلاقة المتبادلة بين الإنسان و الطبيعة، و في الفصل الرابع عن جهد الإنسان و عمله الصحيح الذي يعدّ من العوامل المؤثرة في سلامة البيئة و الذي يتصف بصفات عدة كالتخصص و الإتقان و الثبات و الأخلاق و الإبداع و الهدفية، و في النهاية أو في الفصل الخامس من الكتاب عن كون حسن العشرة و التعامل للإنسان يعدان من العوامل المهمة في حفظ البيئة و سلامتها.

آملين أن يكون لهذا الأثر القيم الذي يحمل في مكنونه نظرة جديدة و رؤية حديثة لهذا الفن تأثيراً في تحوّل المجتمع ثقافياً تجاه المسائل البيئية و

الاهتمام بالجانب الإلهي و الميتافيزقي فيها حيث يشكّل الأسّ و الأساس في هذا الكتاب، و أن يسوق المجتمع العالمي و المنظمات الدولية إلى معرفة هذه الرؤية و الإيمان الصحيح بها.

و أخيراً تتقدم مؤسسة إسراء الثقافية بالشكر و التقدير إلى فضيلة المحقق سماحة حجة الإسلام الشيخ عباس رحيميان محقق الذي قام بجمع و تنظيم هذا الأثر بذوق رفيع و اختيار مناسب.

بسم الله الرحمن الرحيم و إياه نستعين

المقدمه

إن البيئة و ضرورة الاهتمام بتأمين سلامتها و بيان أصول مبادئ الحياة البيئية و طرق الوصول إلى بيئة سالمة و أهدافها الأصيلة ترتكز على العلوم الإنسانية، و تستند إلى القوى البشرية لأنها من جانب تعتبر واحدة من حقوق البشر الأساسية، و من جانب آخر تدخل في عداد المهام البشرية؛ كما أن تخريبها أيضاً يعود إلى الجهل بحقوق البشر أو عدم أداء الوظائف البشرية، و من هنا لابد من معرفة التركيبة المنتظمة للإنسان و العالم، و علاقة الإنسان بنفسه، و علاقة الإنسان بالإنسان، و أخيراً علاقة الإنسان بالعالم و لو على نحو الاختصار، ليتضح في ضوء ذلك ضرورة الوصول إلى بيئة سالمة و لزوم الحفاظ عليها.

جمال خلقة الإنسان و العالم

إن القرآن الكريم الذي هو أسمى المتون الدينية قداسة، يعتبر عالم الخلق ستاراً إبريسيماً لجمال الله و عظمته، و ترتيب عالم الوجود مدعاة لسكون البشر و استقراره، و يفتح لعالم الكون بأسره لسان المدح و الثناء، و يقول في هذا الشأن:

كل ما كان مصداقاً للشيء و صدق عليه عنوان الشيء فهو مخلوق لله سبحانه؛ ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شيء وَهُوَ عَلَى كُلِّ شيء وَكِيلٌ﴾[1].

كل ما خلق الله جميلاً و حسناً و لا يمكن أن يُتصور فوقه جمال و حُسن، إذ لو كان كذلك لدخل في دائرة علم الله، و لما خرج عن قدرته الشاملة، و لما انفصل عن مائدة جوده و كرمه؛ ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شيء خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾[2].

إن الإنسان الذي باستطاعته أن يمثل العالم و كأنه جالس إلى جانب، خُلق في أبهى صورة؛ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[3]؛ ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[4]؛ ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[5].

الإنسان أجمل مخلوق

إن جميع المخلوقات خُلقت جميلة و الإنسان كذلك يتحلى كسائر المخلوقات بحسن ذاتي، و لكن بما أنه يستطيع الوصول إلى مقام الخلافة الإلهية الذي يكون العالم و ما فيه تحت تدبيره و إدارته، لذلك فهو يتمتع نسبة إلى باقي المخلوقات بمزيد من الحسن القياسي و هذا ما يفقده سائر المخلوقات، و من هنا فقد قال الله

---

١. سورة الزمر، الآية ٦٢.

٢. سورة السجدة، الآية ٧.

٣. سورة التين، الآية ٤.

٤. سورة غافر، الآية ٦٤.

٥. سورة التغابن، الآية ٣.

سبحانه بعد بيان نظام خلقة الإنسان: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾[١]. و لو كان من هو أجمل من الإنسان خلقاً لقال الله عن نفسه عند خلق ذلك المخلوق الأجمل بأنه أحسن الخالقين، و بما أن غاية الجمال و نهايته في الجمع بين كمال العقل و جمال الحس فالطاووس الذي قال في حقه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «و من أعجبها خلقاً الطاووس الذي أقامه في أحكم تعديل و نضّد ألوانه في أحسن تنضيد»[٢] لا يعد شيئاً إذا ما قيس بالإنسان.

إن جميع الأسطر و الكلمات و الأحرف التي خطت على ديوان الوجود بقلم الروح الجميل على لوحة العالم الذهبية، إنما هي مرايا و مرائي لله سبحانه كما قال إمام الموحدين علي عليه السلام: «و تشهد له المرائي لا بمحاضرة»[٣].

فإن الله سبحانه و تعالى و إن كان:

قد تجلى و ظهر بمظاهر كثيرة حتى أصبحنا ننظر إليه من خلال الكثير من المعالم[٤]

إلا أن معرفته لا تتحدد بسعة المعروف، بل هي مرهونة بهندسة العارف:

فكيف يتأتى للعين أن تنظر إليه بحقيقته و إنما يعرفه كلّ بمقدار معرفته و إدراكه[٥]

غير أنه لابد من التقطي لاستجلاب هكذا معرفة و اقتناصها:

فإن لم يصل شميم عطره إلينا سنغرق في هالة من الحزن و الهمّ[٦]

---

١. سورة المؤمنون، الآية ١٤.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٦٥.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٨٥.

٤. ديوان فروغي بسطامي.

٥. ديوان حافظ، الغزل ٣٠٠.

٦. ديوان حافظ، الغزل ٣٠٠.

جمال عالم الخلق

إن جمال عالم الخلق يكمن في نظمه و انتظامه، بحيث أن كل مخلوق قد خُلق منسجماً مع أجزائه الباطنية و لهدف معين و طريق و دليل محدّد، و لذا تجد نظامه الفاعلي منسجماً و علمياً، و نظامه الغائي مترابطاً و حكيماً و نظامه الداخلي متناسقاً و معقولاً.

و قد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿رَبُّنَا الذي أَعْطَى كُلَّ شيء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[1]؛ أي أن الله خلق كل مخلوق وفق استعداده و استحقاقه و سعته و هدفه، ثم وضعه في طريق مستقيم و هداه إلى المقصد المتضمن للمقصود.

إن هذا المثلث الميمون، يرى جمال كل شيء في مراعاة الأسس العلمية و التجريبية للأنظمة الثلاثة المذكورة، و إن تضرر نظام شيء فسيحول بينه و بين الوصول إلى هدفه المنشود، و سيحرم الآخرين أيضاً من فيضه.

و إن ذلك الهجران البغيض و هذا الحرمان القبيح، يشوّهان وجه الخلقة الناصع، و أيّ تشويه للخلقة يضرّ بسلامة المجتمع و أمن الأمة فهو من وساوس إبليس؛ لأن الشيطان يقوم بتدليس مَكرِهِ و تلبيسه في مطاوي الأمور و منها تغيير الخلق الهادف للإنسان أو أيّ مخلوق آخر؛ ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ﴾[2].

---

١. سورة طه، الآية ٥.

٢. سورة النساء، الآية ١١٩.

ضرورة الحفاظ على لوحة الخلقة البديعة

إن فئة من الناس و بسبب إغواء الشيطان الذي يسوق المغرّر بهم إلى العصيان عبر إراءة الطرق المنحرفة و الإغراء و التمويه و التسفيه، تعمد بذريعة الحفاظ على الصناعة إلى تحويل سنة الخلقة الرائعة إلى بدعة و تبديل نظام الخلق البديع إلى فوضوية التدنيس و التلوّث.

و قد جاء نداء القرآن الكريم حول الذين لا يعرفون قدر البيئة و لا يملكون ثقافة صيانتها: **﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الذي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**[1]، و إن ما يظهر من هذا الأمر السماوي هو أن لوحة الخلقة البديعة إنما هي أمانة الله بيد البشر. فعلى الصناعات التجريبية أن تتجه باتجاه سعادة و سلامة البشرية بأجمعها؛ كما أن عليها مراعاة الحقوق الطبيعية لأي مخلوق آخر كالبحار و ما فيها و الهواء و طيور الهواء و كل ما يستنشقه و كذا كل ظاهرة طبيعية أخرى، و أن لا يرضوا بهلاك الحرث و النسل أبداً، فإن القرآن لا يعتبر الذي يجلب الأضرار الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية و غيرها بأنه إنسان مثالي بل يقول في تعييره و توبيخه: **﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾**[2]، لأن قيمة العامل بالعمل، فإن لم يكن الفساد محبوباً سيكون المُفسد أيضاً غير محبوب.

---

١. سورة الروم، الآية ٤١.

٢. سورة البقرة، الآية ٢٠٥.

جمال الإنسان في ضوء الكرامة و الخلافة

إن جمال الإنسان علاوة على تركيبة وجوده المنتظمة ـ التي توجد في كل مخلوق آخر و إن كان ضعيفاً ـ مرهون بكرامته. فإن المتون السماوية المقدسة و لاسيما القرآن الكريم قد كرّم وجود البشر و اعتبره مخلوقاً كريماً و قال في كرامته: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[١]. ثم إن كرامة الإنسان مرهونة بخلافته؛ لأن خليفة الموجود الكريم يتحلى بالكرامة و إن مثل هذه الكرامة المنبثقة من الخلافة الإلهية لا سبيل لغير الإنسان إليها، و لذا لم يُعبّر عن غير الإنسان بما تم تعبيره عن الإنسان و هو هذا الحديث الشريف القائل: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه»[٢]؛ لأن معرفة النفس الإنسانية من حيث كونها خليفة لله و هي خلافة تكوينية لا اعتبارية تنتهي إلى معرفة الله لا محالة، و إن لم تسبّب ذلك فالنقص يعود إلى معرفة النفس. و أما سائر المخلوقات فمعرفتها من حيث الإمكان الماهوي أو الإمكان الفقري و كذا معرفتها من حيث الحدوث و الحركة و النظم و أمثال ذلك يسبّب المعرفة بوجود الله أو المعرفة بصفة من صفاته الكمالية.

و من هنا فإن كرامة الإنسان مرهونة بخلافته و «الخليفة» هو التابع لـ «المستخلف عنه» في جميع شؤونه العلمية و العملية، يفكّر بما يوافق علمه و

---

١. سورة الإسراء، الآية ٧٠.

٢. شرح غرر الحكم، ج ٥، ص ١٩٤.

يعمل بما يطابق إرادته. و من ادّعى الخلافة و علمه و عمله لا يوافقان «المستخلف عنه» فادّعاؤه هذا غير مشفوع بالبينة و هو كاذب في دعواه، بل يكون قد تربّع على كرسيّ الخلافة غصباً؛ ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾[١]. و إن مثل هذا الإنسان الذي يدور مدار الهوى لا يمكنه الوصول إلى مقام خلافة الله المنيع و بالتالي لا يكون له نصيب من كرامة الخلافة.

---

١. سورة الجاثية، الآية ٢٣.

الفصل الأول

إعمار الأرض و تأسيس المدينة الفاضلة
بواسطة خليفة الله

وظيفة خليفة الله في إعمار الأرض

إن الله سبحانه و تعالى الذي أسدل خلعة الخلافة عبر الآية الكريمة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1] على القامة المعتدلة للإنسان الحرّ، جعل نسيج إستبرق الخلافة معرفة أسماء الله الحسنى و ترميم دائرة الخلافة و إعمارها و تحريرها من النفوذ المخرّب للشياطين و قال من الناحية العلمية: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[2]، و من الجهة العملية: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾[3].

ثم إنه تعالى شأنه هو الذي أوجد الإنسان و أنشأه من الأرض. فكانت خلقته هادفة و لم يخرج من الأرض كالعشب. فخلق الإنسان و جعله خليفته و على الخليفة أن يعمل عمل المستخلف عنه. و من أجل أن يوفّر المجال المناسب لحياة البشر أعدّ الموادّ الأولية كغذاء في سفرة الطبيعة و أعطى الإنسان لاستضافته الفطنة و الاستعداد و التقنية و الإبداع. فإن الله قد خلق كل النعم

---

١. سورة البقرة، الآية ٣٠.

٢. سورة البقرة، الآية ٣١.

٣. سورة هود، الآية ٦١.

الضرورية قبل خلقة الإنسان و هيّأ الأرض و الأرضية لحياة البشر ثم خلق الإنسان على وجه الأرض.

و لم يكن كذلك بأن خُلق الإنسان أولاً ثم خُلقت سائر المخلوقات لسدّ حاجته؛ بل حاله حال الجنين الذي قد توافر له في بادئ الأمر حليب الأم لكونه لا يستطيع هضم الطعام و بعد أن تمكّن من الأكل و القيام بالعمل و تحدّد طعامه و عمله، وهب له العقل و الفكر و أعدّ له الوسيلة و أمره بالسعي في الأرض و إعمارها و قال: عليك بالحركة ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾[1]؛ و نحن سنيسّر لك السبيل.

ضرورة الاستغلال الأمثل للثروات الطبيعية

إن الله سبحانه سخّر الموجودات للإنسان، و هذا لا يعني أن الإنسان هو الذي يُسخّرها لنفسه بل الله هو الذي يُسخّرها للبشر كما قال في سورة «إبراهيم»: ﴿اللَّهُ الذي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَار * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[2].

لقد تكررت كلمة ﴿سَخَّرَ﴾ في هذه الآيات أربعة مرّات و تكرر ضمير المخاطب في ﴿لَكُمُ﴾ أيضاً عدة مرات. فإن كلمة «التسخير» و إن كانت تحمل

---

١. سورة عبس، الآية ٢٠.

٢. سورة إبراهيم، الآية ٣٢ – ٣٣.

مفهوماً شاملاً في الذهن إلا أن تسخير الشمس و القمر يختلف عن تسخير الليل و النهار، كما أن تسخير البحر يختلف عن تسخير النهر. و على هذا فإن لكلّ من المخلوقات الإلهية وجود يختلف عن الآخر و تسخير كذلك، و من هنا فإن الاستفادة منها يختلف بعضه عن الآخر.

و لكن المهم أن جميع الموجودات مسخرة للإنسان، و من هنا ينبغي الاستفادة من هذه النعم الإلهية بما هو أحسن و إلا فسيؤول إلى كفران النعمة.

و من تلك النعم الإلهية البحر، فلو استفاد الإنسان منها بصورة ابتدائية سيكون متساوياً مع سائر الموجودات المائية و الطيور البحرية و لا يصدق على ذلك تسخيرها. بيد أنه إذا اجتاز استخدام البحر و الملاحة إلى الغور في بحر النعم الإلهية و البحث العلمي في جوف البحر و فضائه الداخلي و الخارجي و اكتشاف المعادن البحرية و الثروات الموجودة في البحر و عرضها على البشر، فحينئذ يمكن القول بأنه استفاد من البحر المسخرّ بشكل صحيح؛ كما أنه إذا اقتصر انتفاعه من الشمس على نورها و حرارتها فلا فرق عندئذ بينه و بين سائر المخلوقات من الحيوانات و النباتات في الانتفاع من الشمس، و لا يمكن لأحد أن يدعي الاستفادة الجيدة من نعمة الشمس و العمل بآية ﴿سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْس﴾[1]، إلا من استطاع أن يكتشف أنواع منافعها المفيدة و البيئية و أن يضعها بين يدى البشرية.

كما و قد سخّر الله الأرض أيضاً للإنسان ليتأتى له بسهولة الحياة فيها و حرثها للزراعة و التنقيب فيها لاستخراج المناجم و الدراسات العلمية في شتى

١. سورة إبراهيم، الآية ٣٣.

مجالات البيدولوجيا و علم المعادن و اكتشاف صدع الأرض و المناطق المعرّضة للزلازل ليعيش الناس في رفاهية و أمن و لكن إذا تحددت الاستفادة من الأرض ببناء المساكن و الحياة الطبيعية فإن هذا ما تتمتع به سائر الحيوانات أيضاً.

و كما يقوم الإنسان بالخوض في أعماق الأرض و استخراج النفط و الغاز و الثروات الجوفية، عليه أيضاً أن يستغل الفضاء و ما فيه استغلالاً أمثل.

و لو اكتفى بالاستفادة البدائية من النعم الإلهية و أغفل تسخير المخلوقات للإنسان كما يقول القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ﴾[1]، ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾[2]، و لم ينتفع من المخلوقات الإلهية بالنحو المطلوب فقد كفر بالنعمة و يكون مشمولاً بهذه الآيات: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[3]، ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[4].

العلاقة بين إعمار الأرض و إطاعة أنبياء الله

على البشر أن يبذلوا كل ما بوسعهم امتثالاً لأمر الله في إعمار الله ليتحقق هذا الأمر الإلهي ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها﴾[5].

و على هذا فمن كان بوسعه الإعمار عبر الزراعة و تربية الحيوانات و

---

١. سورة النحل، الآية ٧٩.

٢. سورة النحل، الآية ٨.

٣. سورة إبراهيم، الآية ٢٨.

٤. سورة إبراهيم، الآية ٣٤.

٥. سورة هود، الآية ٦١.

الصناعة و المهنة و غيرها من المشاغل المفيدة و لكنه يتقاعس عن العمل و لا يتصدى لاستخراج المواد الأولية من الطبيعة و وضعها بين يدى الناس سواء لكونه ثرياً و يرى نفسه غنياً عن العمل أو طلباً للراحة، فهو تارك لأمر القرآن بل معرض عن كلام أنبياء الله بأجمعهم.

لأن الأنبياء قد اصطفاهم الله و خُلقوا من مصدر غيبي واحد و كلامهم متحد و متناسق. فكل نبيّ يدعو الناس إلى الإيمان بالمبدأ و إلى المعاد و الوحي و الملائكة و الطريق الصحيح في الحياة و .... علماً بأن درجاتهم متفاوتة و من هنا تكون معطياتهم في فروع الفقه و الحقوق مختلفة أيضاً، إلا أن الخطوط العامة للأنبياء و الرسل واحدة.

ثم إن لكل نبيّ شخصية حقيقية و شخصية حقوقية؛ فالشخصية الحقيقية و هي شخص النبي غير مشتركة، بيد أن شخصيتهم الحقوقية و هي رسالتهم و فحوى دعوتهم مشتركة بينهم بأجمعهم. كما قال الله سبحانه و تعالى للنبي الأكرمﷺ: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[1]. فإن النبيﷺ و إن كان مهيمناً على سائر الأنبياء، إلا أن أساس المسألة و هي الهدف من الوحي و الغرض من الرسالة فقد جاء بها كل من مضى من الأنبياء. و لذا قال النبي: ﴿مَا كُنتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ﴾[2]؛ فلا أن دعوة النبي الأكرمﷺ و هدايته غير مسبوقة بمثيل، و لا ما لاقاه من إساءة و استهانة بديع و حديث الظهور. و إن

١. سورة فصلت، الآية ٤٣.

٢. سورة الأحقاف، الآية ٩.

الأنبياء بأجمعهم قد بُعثوا للدعوة إلى التوحيد في الذات و في العبادة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[1].

فإن أفضل ما جاء به رسل الله هي كلمة «لا إله إلا الله» التي هي كلمة التوحيد الأصيل؛ و من هنا قال رسول الله ﷺ: «ما قلت و لا قال القائلون قبلي مثل لا إله إلا الله»[2].

و على هذا الأساس فمن أنكر نبوة نبيّ و كذّب بها فكأنما رفض نبوة جميع الأنبياء. و على المؤمنين أن يقولوا: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾[3]؛ أي لا نفرق بينهم في أصل الرسالة و لزوم قبولها و معنى ذلك أن قبول رسالة نبيّ تستلزم قبول رسالة جميع الأنبياء و ترك دعوة نبيّ و هدايته تستلزم ترك هداية جميع الأنبياء.

فقد قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المُرْسَلِينَ﴾[4]، و الحال أن أصحاب الحجر كان فيهم نبيّ واحد فقط و لم يقفوا إلا أمام هذا النبي. فهذه الآية تدلّ من جانب على أن كلام نبيّ أصحاب الحجر هو كلام جميع الأنبياء السابقين و اللاحقين، و من جانب آخر على أن دعوة كل نبيّ تستبطن في الأغلب حركة الأنبياء السلف أو الخلف و تكذيب أي نبيّ يؤول إلى تكذيب كل الأنبياء الذين ورد ذكرهم في كلام هذا النبي.

---

١. سورة الأنبياء، الآية ٢٥.

٢. توحيد الصدوق، ص ١٨.

٣. سورة البقرة، الآية ١٣٦.

٤. سورة الحجر، الآية ٨٠.

كما و قد عبّر القرآن الكريم بهذا التعبير عن قوم ثمود و قوم لوط أيضاً حيث قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾[1]، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾[2]، على الرغم من أن قوم لوط أو قوم ثمود لم يكن بين ظهرانيهم إلا نبيّ واحد. و من هنا حينما يقول النبي صالح: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[3] أي طلب منكم إعمارها، يجب على كل من يؤمن بالله و أنبيائه إطاعته، و لذا فإن إعمار الأرض واجب على الجميع سواء الإعمار الظاهري و عمارة الأرض أو الإعمار الباطني و عمارة الأرضية لإصلاح المجتمع.

الأثر السيء لمخالفة أمر إعمار الأرض

إن جميع الأوامر الإلهية تبعث على الحياة و من أهملها و أعرض عنها فسوف يقع في ضيق من العيش و ضنك من الحياة.

فقد روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «من وجد ماء و تراباً ثم افتقر فأبعده الله»[4]؛ أي أن الشعب الذي يملك ماء و تراباً للزراعة بمقدار كافٍ و لا يتصدى لإدارة المياه و إصلاح الأرض و لا يستغلها و يفتقر لتقاعسه عن العمل أو إساءة التصرف فهو بعيد عن رحمة الله. و لا يُزعم أن الابتعاد عن رحمة الله مختص بالأمم السالفة لمخالفتها أوامر الله و أنبيائه كما يحدّثنا القرآن الكريم عن

---

١. سورة الشعراء، الآية ١٤١.

٢. سورة الشعراء، الآية ١٦٠.

٣. سورة هود، الآية ٦١.

٤. وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٤٠.

قوم عاد: ﴿أَلاَ بُعْداً لِعَادٍ﴾[1]، بل يشمل هذا الخطر سائر الأمم أيضاً. و على هذا فلو أمر القرآن الكريم أو الأئمة المعصومين عليهم السلام الذين وصلوا إلى كمال الإنسانية و الذين هم عدل القرآن بإصلاح حياة البشر و سلامة البيئة و أعرض المجتمع عن ذلك فسوف يؤول مصيرهم إلى الابتعاد عن الرحمة الإلهية.

الفرق بين استعمار القرآن و استعمار القوى الاستكبارية

إن كلمة الاستعمار التي تحمل الآن في مكنونها أسوء المفاهيم و أقبحها من أفضل المفردات القرآنية. بيد أن أرباب الظلم و الاستعباد لعبوا بهذه الكلمة حتى وُضعت جنباً إلى جنب كلمات الاستحمار و الاستبداد و الاستثمار المشؤومة؛ و الحال أن الله في الثقافة القرآنية بوصفه مستعمراً جعل الموادّ الأولية من المخلوقات السماوية و الأرضية في الطبيعة و خلق الإنسان من التراب و أفاض عليه الروح الملكوتية: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[2]، فأصبح الإنسان مكوّناً من الملك و الملكوت ليصل إلى خلافة الله و يقوم في الأرض مقام المستخلف عنه.

و متى ما يؤمن الإنسان بأنه خليفة الله و أن العالم بأسره مواد أولية معدة له و تحت تسخيره جعلها الله في إطار الطبيعة و وهبه العقل لاستغلالها و أرسل الأنبياء لإرشاده إلى كيفية استخدامها من أجل تهيئة غذاء الجسم و كمال غذاء الروح عند ذاك ستنتظم حياته و تسلم البيئة التي يعيش فيها.

---

١. سورة هود، الآية ٦٠.

٢. سورة الحجر، الآية ٢٩.

أما الدول الاستعمارية فقد عمدوا لاستجلاب منافعهم و استرقاق الشعوب الفقيرة عبر هذه الكلمة و بذريعة الإعمار إلى نهب ذخائر الشعوب و الثروات الطبيعية ثم قاموا بإعمار ما يؤمّن مصالحهم لاستخدامه كوسيلة لصالحهم و حالوا دون إعمار ما لا يلبي مآربهم.

إعمار القوى الاستكبارية استثمار

إن سلاطين الجور في القوى المستكبرة يبغون مزيداً من استغلال الثروات الطبيعية و البيئة لتصل منتوجاتهم الزراعية و الحيوانية و غيرها إلى ما يفوق احتياجهم؛ و لذا يرفضون إسعاف الشعوب الفقيرة و الجائعة و مساعدتها. و يعيشون في حالة من الإسراف و الترف في وقت تجد البعض في البلدان المستضعفة يؤمّنون طعامهم من صناديق قُمام الأثرياء و المترفين[1]. و الحال أن لبعض هذه البلدان مناجم غنية و مياه و تربة صالحة للزراعة و تربية الحيوانات.

و إن النظام الاستكبارى فيما لو اقتضت سياسته، يعمد إلى مقاطعة دولة و شعب اقتصادياً و يستخدم القمح على مستوى السلاح النووي. فإن من أهم وسائل المستعمرين هو الحظر الاقتصادي ليحطّمون بذلك العمود الفقري للمجتمعات و يسيطرون عليهم. و لذا فإن قاموا بإعمار بقعة من البقاع فذلك من أجل تأمين المزيد من مصالحهم و حرمان باقي الشعوب؛ و في الواقع فإنهم

---

١. هذا ما ينقله الذين رأوا هذه المشاهد عن كثب. فإن أطعمة الطبقة المترفة في الأغلب تعدّ لهم في موائد و أواني أحادية «الاستعمال و يهيأ لهم أضعاف» تا «و الشاحنات المخصوصة لحمل النفايات».

يعمّرون الأرض لمصادرتها لأنهم أولاً يعمّرون جزءاً من الأرض لتأمين منافعهم و ثانياً يتركون باقي الأراضي من دون إعمار بل و يحولون دون إعمارها إن استطاعوا و ثالثاً يسترقّون سكّان تلك المنطقة و ينهبون ثرواتهم.

دور المستعمرين في تلوّث البيئة

إن لسلامة البيئة صلة وثيقة بحياة المجتمع السليمة، و كما أن الصحة و الوقاية مقدمان على المداواة و العلاج فإن تأمين جوّ سالم و بيئة مناسبة أيضاً مقدّمان على تدارك الخسائر الناجمة عن البيئة الملوثة. و إن الحفاظ على سلامة البيئة هو مراعاة حق الأرض و الهواء و الماء و التراب و البحر و الصحراء و الجبل و البادية و النباتات و الحيوانات و سائر المخلوقات و الميادين البيئية التي لها ارتباط بحياة المجتمع.

فإن تأمين سلامة البيئة و صحتها من الأصول الأولى و على الشعب و المسؤولين أن يبذلوا قصارى جهدهم لتحقيق هذا الأمر؛ إلا أن الظاهر عملياً في حياة مختلف المجتمعات البشرية هو أن البعض يعرضون عن الأصول البيئية بأسرها و لا يقفون عند أي حدّ لتأمين مآربهم.

و قد أشرنا إلى أن المراكز الدينية كما أنها لا تُعمّر إلا على يد المؤمنين: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ﴾[1]، فإن الشعب و المجتمع المتديّن هو الوحيد الذي يسعى لحفظ البيئة و صيانتها لأن فقدان الإيمان لا يُبقى أي التزام و

---

١. سورة التوبة، الآية ١٨.

مسؤولية لحفظ الطبيعة. و اليوم نحن نشاهد في البلدان المتطورة التجارب و الانفجارات النووية و غير النووية في البحار و الصحاري مما تؤدي إلى تلوث البيئة بشتى الأنحاء. فإن الدول المستعمرة ينهبون بحرص و طمع متزايد المنابع الغازية و النفطية للآخرين بل و حتى أنهم يُحمّلون ناقلات البترول أكثر من طاقتها و بين الحين و الآخر تغرق إحدى هذه الناقلات و يتدفق مقدار كبير من النفط في البحر فيؤدي إلى أن تتعرض البيئة لمشاكل حادة بالإضافة إلى تلوث البحر و تهديد الكثير من الموجودات البحرية في حياتهم.

دور المستعمرين في الإخلال بأمن البيئة

إن النظم الدولية المستعمرة و لتأمين المزيد من منافعهم يستثمرون سائر المجتمعات و يمنعونهم من الرقيّ و التكامل، فتارة يجيّشون الجيوش و أخرى يحوكون المؤامرات الاستعمارية ليثيروا التناحر بين البلدان و مختلف الأقوام و إن ارتأوا المصلحة يخوضون الصراع عبر الهجوم العسكري بأنفسهم و إن حصيلة ذلك في كل الأحوال هو الإخلال بأمن البيئة.

و اليوم نشاهد ما يجري في جوار إيران الإسلامية سواء في شرقها أم غربها حيث لم يخلف المستعمرون سوى القتل و الدمار و فقدان الأمن و التعدي على حقوق الآخرين بل و منعوا الناس من الرقيّ و عمدوا علاوة على إفساد الذخائر الطبيعية و نهب الثروات العامة للمجتمع إلى الإخلال بأمن البيئة و إهلاك

الحرث و النسل: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾[1]، ﴿إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾[2].

المدّعين لخلافة الله كذباً

إن أهم عنصر لخلافة الله بعد اكتساب العلوم و المعارف الدينية هو إعمار الأرض و إنقاذها من أي فساد و ضياع. و المراد بالأرض هو دائرة حياة البشر، و إن مثل هذا النطاق الواسع يمتدّ من أعماق البحار إلى ذروة السماء. و من هنا فإن ثقافة الحياة البيئية قد عجنت بالمقام السامي للخلافة الإلهية.

و إن من يلوّث الجوّ بدلاً من تصفيته و يدمّر الأرض بدلاً من إصلاحها و يقطع الشجر بدلاً من غرس النبتة و لم يرتدع عن تلويث البحار و الصحاري بدلاً من تطهيرها فإن مثل هذا الفارغ المظلم يفتح لسانه بالكذب من دون أسف و كما يلوثّ البيئة يقوم بتلويث عنوان الخلافة العظيم و يغتصبه و يعتبر نفسه خليفة لله.

أما المراد من عمارة الأرض فهو تأمين الأصول البيئية لحياة الإنسان لا خصوص الحياة النباتية التي يمتلكها البعض أو الحياة الحيوانية التي اكتفى بها آخرون، بل الحياة الإنسانية الجامعة لجميع مراحل الحياة النباتية و الحيوانية أيضاً؛ و ذلك يعني ابتعاد الأرض عن خطر الفساد و صيانة الأرضية عن ضرر

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٠٥.

٢. سورة النمل، الآية ٣٤.

الأخلاق ليتمتع البدن بمزايا الطبّ الطبيعي و تصل الروح كذلك إلى الرَوح و الريحان عبر المواهب الخاصة بالنفس الرحمانية.

رسالة الحكّام الخطيرة في تأمين بيئة سالمة

إن الجمال الحقيقي لا الاعتباري هو من سنخ الوجود و الوجود حقيقة تشكيكية و لذا فإن للجمال مراتب طولية. لأن جمال الإنسان يكمن في خلافته لله و تتجلى هذه الخلافة في الحكّام أكثر من الآخرين. و من هنا فإن رسالة رجال الدولة في تأمين بيئة سالمة أشدّ من عامة الناس؛ لأن البرمجة الواسعة في الفضاء و البحار و صناعة الأسلحة الكيمياوية و المدمّرة و التجارب النووية المخرّبة و ما شاكلها بيد الحاكم المقتدر. و إن ما يحدّد سلامة البيئة في الوقت الحاضر و يهدّد المجتمعات البشرية بالموت أو المرض هو الاقتدار البعيد عن الإصلاح و التعديل لأصحاب الصناعات النووية الذين يُصادرون النعم الإلهية لصالحهم و ضرر الشعوب الأخرى و كأنهم يمثلون المدير المطلق العنان على قرية العالم المعاصر.

و قد ورد في القرآن الكريم الذي هو عصارة المتون السماوية المقدسة: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾[1]، فإن سلاطين الجور و الحكّام المتغطرسين و الملوك الطغاة إذا دخلوا منطقة و تمكّنوا منها و سيطروا عليها عمدوا إلى إفسادها. و إن كان الإفساد و التخريب في العصور

١. سورة النمل، الآية ٣٤.

الغابرة يستلزم الدخول الفيزيائي للأشخاص فإنه اليوم و بسبب السرعة المدهشة لتطوّر الصناعات يكفي فيه التحكّم عن بُعد. و إنّ مَن أساس رسالتهم التضامن مع الطبقة المحرومة باتوا كالمفترسين يعتبرون سفارتهم امتصاص الدماء:

فمن كان نهجه إيذاء الآخرين تكون صورته صورة إنسان و قلبه قلب حيوان[۱]

و من كان يمتلك قدرة أسمى يقع على كاهله عبء أثقل. فلو أن الأمير كان مكلفاً بالحفاظ على سلامة البيئة في حدود إمارته يكون تكليف أمير الأمراء أهم لأن دائرة إمارته أفسح و أوسع من إمارة الأمير الذي هو مأمور له.

وظيفة الحكومة الإسلامية في تأمين سلامة البيئة

لقد رسم النظام الإسلامي وظيفة الوالي رسمياً حيث قال: «أيّما امرئٍ ولي من أمر المسلمين شيئاً لم يحطهم بما يحوط نفسه لم ير رائحة الجنة»[۲]، فإن من تقلّد منصباً في الدولة الإسلامية و عُهدت إليه مسؤولية قسم من أقسام الحكومة الدينية، يتوجّب عليه أن يؤمّن لعامة الناس كلّ ما يستخدمه لنفسه من حفظ حياته و تأمين سلامته و حيثيته الاجتماعية و ما شابهها. فلو كان يتمتع بصحة و بيئة سالمة ينبغي عليه أن يوفّرها لجميع المواطنين أيضاً.

و قد تجلى أمر الرسول الأعظم ﷺ هذا في البرنامج الحكومي لخليفته أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بشكل خاص، إذ قال علي عليه السلام لأحد

---

۱. حديقة الحقيقة، ص ۵۵۰.

۲. نهج الفصاحة، ج ۲، ص ٦٩٢.

عمّاله: «و ليكن نظرك فـي عمارة الأرض أبلغ من نظرك فـي استجلاب الخراج لأن ذلك لا يُدرك إلا بالعمارة»[١]، فإن تلوّث البيئـة يعـرّض الطاقـة البـشرية و الثروات الطبيعية كذلك للوقوع فـي الضرر.

إن حكومة المجتمع البشري و سياسته من أهم العلـوم الإنـسانية. و معرفـة العلوم الإنسانية بحاجة إلى معرفة الإنسان. و الإنسان و العالم موجودان قد أخذا وجودهما من غيرهما و كلاهما مرتبطان مع بعض، كما أن فيما بينهما تفاعـل و لا تتأتى معرفة الإنسان إلا عبر معرفة المبدأ الفاعلي الذي هو وجوده عين ذاتـه و الذي يهب الوجود للإنسان و العالم و بالتالـي فلا تتيسر معرفة سياسة المجتمـع الإنسانـي و حكومته من دون معرفة الإنسان.

إن الإنسان فـي الرؤية الإسلامية يقع على رأس نظم ثلاثـة و هـذا مـا لا تقول به الأديان غير الإلهية و هي النظام الفاعلي و النظام الداخلي المخصوص و النظام الغائي الخاص.

فنظامه الفاعلي الذي تتشكل علل ظهوره و تربيته مـن أمـور قـد خُلقـت بأسرها بيد الله الواحد الأحد و المبدأ الفاعلي الوحيد الـذي ظهـر منـه العـالم و الإنسان هو الله سبحانه و تعالى و لا يوجد أي عامل مستقل فـي تحقق الإنسان و لا أي موجود مستقل فـي تربيته و إدارته.

و نظامه الداخلي هو الذي تتألف حقيقته من الروح المجرّدة و الجسم المادي، فهو ليس كالملائكة روحاً بلا جسم و لا كالأجرام الترابية و النباتية جـسم بـلا

---

١. نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

روح و إنّ ما يقوّم إنسانيته هي الروح التـي لا تزول و التـي تصطحب الجسم الترابـي الزائل إلى جانبها.

و أما نظامه الغائي فهو الذي لا يموت بموت البدن بل هو حـيّ إلى الأبـد و يدخل بعد العبور من الدنيا دار القرار و هي القيامة و يعيش مع نفس هذا البـدن بما يناسب ذلك العالم الخالد و تُحشر معه كل معتقداته و أفكـاره و أيـضاً جميـع أخلاقه و صفاته و كذلك كل أعماله و أفعاله و لا تنفصل عنه بتاتاً.

و أما المدارس المادية و الحسية فإن الإنسان فيها فاقد للنظام الفاعلي بـالمعنى المذكور و كذا النظام الغائي بالمعنى المشار إليه و نظامه الداخلي ينحصر فـي المـادة و الجسم و تُفسّر الروح و الأفكار الباطنية أيضاً تفسيراً مادياً. و قـد بـيّن القـرآن الكريم الذي هو أفضل مفسّر للإنسان و العالم هذه الـنظم الثلاثـة الإنـسانية فـي آيات كثيرة و أجمع آية تشير إلى النظم الثلاثة بأسرها آية فـي سورة «طه» عـن لسان موسى الكليم عليه السلام مع فراعنة مصر حيث تقول: ﴿**قَالَ رَبُّنَا الذي أَعْطَى كُـلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾[1]، فعرّف فـي هذه الآية النظام الفاعلي بربّ جميع الخلائـق و النظام الغائي بالهداية إلى الهدف و النظام الداخلي بأن الله أعطى كل شيء نظـام الوجود المتواجد فيه و النظام المناسب لوجود الإنسان هو ما صرّحت بـه الآيـات التالية من سورة «ص» التـي تقول: ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِـينٍ * فَـإِذَا سَـوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾[2].

---

١. سورة طه، الآية ٥٠.

٢. سورة ص، الآية ٧١ و ٧٢.

أهم هدف للحكومة الإسلامية الخلافة الإلهية للإنسان و تشكيل المدينة الفاضلة

أهم هدف يقع على عاتق الحكومة الإسلامية و ينسجم مع النظم الإنسانية الثلاثة (النظام الفاعلي و الغائي و الداخلي) أمران: الأول هداية الناس للوصول إلى خلافة الله و تهيئة مقدمات السير و السلوك، و الثاني تأسيس مدينة فاضلة في البلد الإسلامي و تهيئة مبادئ الحضارة الأصيلة و تبيين الأصول الحاكمة على العلاقات الداخلية و الخارجية. و إن النصوص الدينية من آيات القرآن و متون الأحاديث و سيرة المعصومين و أئمة الحق و إن تضمنت معارف كثيرة و نكات مفيدة غزيرة بيد أن عصارتها تتمحور في بيان هذين الركنين المذكورين و كما أن نظام الإنسان الداخلي مُؤلّف من روح و جسم إلا أن الأصالة للروح و الجسم تابع لها، فإن السلامة و مراعاة أصول الطب المادي و المعنوي له هي من أجل تأمين سلامة الروح من شرّ العقائد السيئة و ضرر الأخلاق الذميمة و الحفاظ عليها من ضير السلوك القبيح.

تأسيس و تأمين المدينة الفاضلة بواسطة الإنسان الكامل

إن الهدف من تأسيس المدينة الفاضلة أيضاً يكمن في تربية أناس يسيرون في طريق الوصول إلى خلافة الله و إن الأصالة بين الركنين المذكورين للخلافة الإلهية، لأن البدن و إن كان سالماً يموت بعد مدة و يبلى بيد أن الروح تبقى حية خالدة. و المدينة الفاضلة كذلك فإنها و إن كانت تتمتع بحضارة سامية و لكنها تزول بعد فترة من الزمن، إلا أن خليفة الله و هو الإنسان الكامل مصون من آفة

الزوال و الاضمحلال، و لذا فإن المدينة الفاضلة بمثابة الجسم و خليفة الله بمثابة الروح و كما أن الجسم وفق أصالة الروح تصنعه الروح السليمة، فإن المدينة الفاضلة أيضاً على أساس أصالة خليفة الله يؤسسها و يؤمّنها الإنسان الكامل.

بيان بعض صفات و شرائط المدينة الفاضلة

تتحلى المدينة الفاضلة بصفات و شرائط عديدة يعود بعضها إلى البيئة و بعضها الآخر إلى الساكنين فيها و إن كانت جميع الصفات تتحقق تحت ظلّ التنمية العلمية و التكامل العملي لسكّان أي بقعة من البقاع. و بالطبع فإن صفات المدينة الفاضلة و شرائطها كثيرة و لكن نشير إلى بعضها باختصار:

أ: التنمية الثقافية

إن الحاكم في الحكومة الإسلامية يتولى تأمين العلم و المعرفة للذين يعيشون في دائرة حكومته و بعض الآيات من قبيل: ﴿**هُوَ الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ**﴾[1] تدلّ على ذلك. و إن مشكلة المجتمع في الجاهلية الحديثة أو القديمة هو الجهل بأسس الحضارة الأصيلة أو عدم العمل بها مع فرض العلم، فإن الجهالة و الضلالة سببان رئيسيان لانحطاط المجتمع الجاهلي و أهم هدف تتوخاه الحكومة الإسلامية في الجانب الثقافي بمعناه الشامل هو

---

۱. سورة الجمعة، الآية ۲.

رفع الجهالة و دفع الضلالة ليتم استبدال الجهل بالعلم و الكتاب و الحكمة و استبدال الضلالة الأخلاقية و الانحراف العملي بتزكية الروح و تهذيبها و إن من المعالم الأساسية في الآية المذكورة و أشباهها التي تبين أهداف الحكّام المسلمين و برامجهم هي مسألة التعليم للقضاء على الجهل و التزكية لرفع الضلالة و إن الآية المشار إليها تحثّ المجتمع الأميّ الجاهل على اكتساب العلوم و المعارف ليخرجوا من كونهم مجتمعاً أمياً إلى مجتمع عالم واع و تدعو المجتمع الضالّ الفاسد أيضاً إلى طهارة الروح للتحرر من الفساد و الوصول إلى التقوى و الصلاح. و بالطبع فإن الشعب الواعي المتقي سيكون قادراً على تأسيس المدينة الفاضلة و الحفاظ عليها.

ب: التنمية الاقتصادية

يتولى قادة المسلمين بيان الخطوط المالية العامة في النظام الإسلامي و إن القوانين الإلهية إضافة إلى دعوتها الناس للغرس و الصيانة و الحصاد في جميع الشؤون الاقتصادية و اعتبار حلّيته في جميع مراحل اكتساب المال و حفظه و توزيعه و مصرفه من الأركان الضرورية للاقتصاد السليم، قد تعرضت إلى مسائله الرئيسية و فيما يلي نشير إلى جملة منها:

ملكية الإنسان في قبال الآخرين و أمانته في قبال الله

إن الإسلام يُؤيّد أصل الملكية الخاصة و قد صادق عليها و لكن معناها هو أن المرء يملك حصيلة جهده بالنسبة لسائر الناس و لا يحق لأي أحد التصرف

فـي أمواله من دون إذنه و رضاه و لكن لا يملك أي أحد حصيلة أتعابه بالنسبة لله بل هو بمثابة الأمين على حفظها و النائب فـي التصرف فيها و قد دلّت علـى ذلك آيات عديدة منها: ﴿... وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الذي آتَاكُمْ﴾[1]، ﴿... وَأَنفِقُـوا مِمَّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ...﴾[2]، و لذا لا يحق لأي أحد التصرف فـي الأموال التـي اكتسبها من دون إذن الله و رضاه.

الحؤول دون تقسيم المجتمع إلى فقير و غنـي و ضرورة حفظ الأموال

يعتبر الإسلام أن مجموع الأموال لابد أن تُصرف فـي إدارة شـؤون النـاس بأجمعهم؛ أي لا ينبغي أن تسبب أصل الملكية الخاصة حرمان المجتمـع و تقـسيم الأمة الإسلامية إلى فئتين ثرية مكتنزة للأموال و فقيرة مستضعفة. فإن الإسـلام يعتبر المال بمثابة العمود الفقري للمجتمع الإنسانـي و سـبباً لقيـام النـاس و إن الفرد أو الفئة الفاقدة للمال فقيرة لانكسار عمودها الفقري و فقدان القدرة علـى القيام؛ فالمراد بالفقير هو الفقرة المكسورة فـي الظهر الـذي فقـد قـدرة القيـام و الصمود و بما أن المال يعدّ بمثابة الدم فـي عروق المجتمـع و عمـوده الفقـرى، لا ينبغي وضعه بين يدي السفيه و الجاهل لئلا يتصرف فيه عن إسراف أو تـرف و يُضيّع عامل قيام الأمة، و قد جاء فـــي القـرآن المجيـد حـول المـسائل الـثلاث

---

١. سورة النور، الآية ٣٣.

٢. سورة الحديد، الآية ٧.

الأخيرة ما نصه: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ التـي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً ...﴾[1] ، حيث نسب المال إلى عامة المجتمع و اعتبره سبباً لقيام الناس و نهى عـن إتيانـه السفهاء كالطفل أو البالغ الجاهل.

سيولة الأموال بين أفراد المجتمع

إن الإسلام يمنع احتكار الثروة و اكتناز الأموال و يعتبره كضغط الـدم فـي العرق الذي يسبب فلج سائر الأعضاء و لذا يوجّب سيولته بين جميع الطبقات و هذه الآية ﴿... الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِـضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَـا فـي سَـبِيلِ اللّـهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيم﴾[2] و غيرها دليل على منع جمود المال و شاهد على وجوب سيولته بين جميع أفراد المجتمع. ثم إن الإسلام يمنع من السيولة الناقصة للأموال و الانحناء الناقص لمسيره و يوجّب سيولته الكاملة و طي الانحناء التام له فلا يجيز أن تدور ثروة البلد بين فئة خاصة من دون أن تـصل إلى متنـاول الآخـرين و هذه الآية ﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ...﴾[3] و ما شابهها خير شـاهد على ذلك. و يمكن ترسيم تداول الثروة بين فئة خاصة و حرمـان عامـة المجتمـع منها بصورتين و كلاهما مرفوضان؛ الأولى على أساس النظام الرأسمالـي للغـرب و الأخرى على أساس النظام الشيوعي و الفكر الماركسي البائد للشرق.

---

١. سورة النساء، الآية ٥.

٢. سورة التوبة، الآية ٣٤.

٣. سورة الحشر، الآية ٧.

ضرورة الابتعاد عن إفراط الرأسمالية و تفريط الماركسية

لا ينبغي بأي نحو من الأنحاء أن ينحصر المال بيد فئة خاصة حقيقية أو اعتبارية بل لابد من سيولته بين جميع طبقات المجتمع و هذا العطاء الإسلامي هو الأساس الأمثل للاقتصاد السالم حيث يتم من بين «فرث» الرأسمالية و «دم» الشيوعية و الماركسية استنباط اللبن الخالص للاقتصاد الديني لننجو من الإفراط الأول و التفريط الثاني و نصل إلى النواة المركزية للعدل الإسلامي. و إن الإسلام يحبذ السيولة التامة و الانحناء الكامل للأموال بين عامة الناس عبر الطريق الشرعي كالتجارة عن تراض؛ فإن الطريق الأصلي لانتقال المال و سيولته العامة ما عدا طريق الإرث و الهبة و ما شابه ذلك هو طريق التجارة عن تراض فلو كانت التجارة عن غير تراض أو كان التراضي من غير تجارة كالقمار و أمثاله فهو طريق غير شرعي و تدل على ذلك آيات عديدة منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِنكُمْ...﴾[1].

ج: التنمية الصناعية و المهنية

تتلخص عصارة سيرة قادة الحكومات الدينية في كيفية استخدام الصنعة في عدة مباحث نوضحها أدناه:

---

١. سورة النساء، الآية ٢٩.

١- ازدهار الصنعة و المهنة فـي حكومة النبـي سليمان

كان سليمان‌ الذي بسط فراش حكومته الإسلامية فـي دائـرة وسـيعة من الأرض آنذاك و كاتب بعض ملوك عصره و دعاهم إلى الإسلام و نال مبتغاه فـي ذلك يتمتع بإمكانيـات كـثيرة، و قـد حـدّثنا القـرآن الكـريم عـن كيفيـة استخدامه للوسائل الصناعية فـي ذلك العصر حيث يقول: ﴿...وَأَسَلْنَا لَـهُ عَـيْنَ القِطْرِ﴾[1]، ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُـدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[2].

فقد كان عمّال النظام الإسلامي للنبـي سـليمان‌ فـي صـنعة العمـارة يبنون العمارات المرتفعة و القصور المنيعة و فـي صنعة الرسـم و الفـنّ ينحتـون تماثيل الملائكة و الأنبياء و الصلحاء بروعة و براعة ليقوموا بعد الحثّ على الفـنّ و إرضاء غريزة طلبه بإراءة أسلوب الاسـتغلال الأمثـل و يـضعوا أمـام أعـين الناس الأمثلة الصالحة من خلال الرسم ليتعلموا الفـنّ عـبر مـشاهدة النحـت و يكتسبوا السعادة بشهود المنحوت و فـي الصنعة المعدنية أيضاً يصنعون الأوانـي الفردية و الجماعية و ذلك لاكتساب الفـنّ و تـوفير وسـائل الرفـاه و الدعـة و الوقوف على آداب التعايش تحت ظلّ تأمين مستلزمات الحياة الضرورية، فقاموا بصناعة الأوانـي الكبيرة و الأوعية العظيمة و القدور الراسية و فـي الوقت الذي كانوا يستخدمون نعمة الصنعة فـي محلها قد أُمروا بشكر الله المنان الـذي خلـق

---

١. سورة سبأ، الآية ١٢.

٢. سورة سبأ، الآية ١٣.

نعمة الموادّ الأولية و المعدنية و أودع في أذهان البشر نعمة استخراجها و علّمهم كذلك نعمة فنّ الصنعة و صناعة الوسائل المفيدة. و خير شاهد على تطوّر الصنعة المعمارية و الفنية و الصناعية في ذلك العصر هو قضية ملكة سبأ حين دخلت على سليمان عليه السلام و رأت قصره الزجاجي الظريف و حسبته ماءً و كشفت عن ساقيها: **﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِن قَوَارِيرَ ...﴾**[١].

٢- النبي داود عليه السلام مأمور بتعليم الناس صناعة الدروع

إن داود والد سليمان الذي بدأ عبر قيادة ثورة و مقارعة الظلم في عصره بتمهيد السبيل لإقامة حكومة إسلامية و كان كذلك متنعماً بإمكانيات مناسبة قد أُمر بإخراج صناعة الدروع و مراعاة نظم حلقاتها بانسجام من نعمة الله الغيبية حيث ألان له الحديد الصلب و جعله بيده كالشمع: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً ...﴾**[٢]، **﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾**[٣].

المسألة الملفتة للنظر هي أن صناعة الدروع من العلوم العملية و المهنية و يمكن نقلها للغير، و لذا فقد عبّر القرآن عن هذا الأمر بـ«التعليم»، إلا أن تليين

١. سورة النمل، الآية ٤٤.

٢. سورة سبأ، الآية ١٠ - ١١.

٣. سورة الأنبياء، الآية ٨٠

الحديد كالشمع ليس من العلوم النظرية أو العملية بتاتاً لأنه متعلق بكرامة روح ولي الله و نزاهة نفس رسول الحق و لذا لم يعبّر القرآن عن هذه المسألة بـ«التعليم» بل اكتفى بقوله «ألنّا» ليتضح أن تليين الحدود لداود لا يتيسر إلا عبر قدرة غيبية. علماً بأن تليين الحديد كان يتم بالنار منذ العصور الغابرة بيد أن هذا العمل يدخل في عداد العلوم العملية و هو من المسائل الطبيعية لا الخارقة للعادة.

٣- النبي نوح عليه السلام و صناعة الفلك بتعليم الله

إن شيخ الأنبياء نوح عليه السلام لم يكن من روّاد طريق الرسالة في مسألة الوحي و النبوة فحسب، بل كان من الأوائل في استخدام علم الصنعة بشكل أمثل حيث تكفّل الله بتعليمه صناعة الفلك و تولى توفيقه و تأييده عملياً و هذا القرآن الكريم يحدّثنا عن ذلك قائلاً: ﴿... اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ...﴾[1]، ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[2].

و خلاصة البحث أن ١. أصل مسألة الصناعة في الحكومة الإسلامية أمر ممدوح و مُحرّض عليه، ٢. ضرورة استخدامها الصحيح قد تبين في السيرة العملية لقادة الدين، ٣. أفضل كيفية لاستخدام الصناعات المتطورة في كل عصر بشكل صحيح هو عبارة عن تأمين المتطلبات العلمية و العملية للناس في ذلك

---

١. سورة هود، الآية ٣٧.

٢. سورة المؤمنون، الآية ٢٧.

العصر، ٤. ما ذكر في القرآن هو من باب التمثيل لا التعيين، و معنى ذلك أن المسائل المذكورة في القرآن الكريم للاستغلال الأمثل إنما هي أمثلة و ليست محصورة بها، ٥. صناعة الفلك بواسطة نوح عليه السلام مثال لصناعة وسائل النقل البحرية و الغواصات سواء كانت لنقل الركّاب أو البضائع و الأمتعة و ما شابه ذلك و كذا وسائل النقل البرية و الجوية بشكل عام، و صناعة الدروع من قبل داود عليه السلام أيضاً نموذج لصناعة أي نوع من الوسائل الدفاعية كالمضادة للرصاص و ما شاكلها أو المضادة للسموم الكيمياوية و نظائرها، و الصناعة المعمارية و اليدوية و الظرائف الفنية و صناعة الأواني المعدنية بواسطة سليمان عليه السلام كذلك مثال لصناعة جميع مستلزمات الحياة التي تسدّ الاحتياجات الفردية أو الجماعية و كذا المتطلبات الفنية و الأدبية.

٤- توفيق ذي القرنين في استغلال الإمكانيات و صناعة سدّ منيع

و من المناسب الآن أن نشير إلى ما نقل حول ذي القرنين. فإن القرآن لم يتحدث عن نبوته و لكنه أشار إلى أسلوبه المستحسن إلى جانب توافر جميع الوسائل الممكنة بين يديه في ذلك العصر نسبياً حيث استخدم جميع الإمكانيات اللازمة و قام بأعمال جديرة منها صناعة سدّ عظيم منيع لا يمكن فتحه لارتفاعه و تسطيحه و لا نقبه و ثقبه لإحكامه و إتقانه لأنه لم يُصنع من التراب و الآجر و الحجر و الإسمنت و ما شاكلها بل هو سدّ معدني عظيم صُنع من قطع الحديد و النحاس المُذاب فقد جاء في القرآن المجيد: ﴿ءَاتُونِى

﴿زُبَرَ الحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾[1]، فبعد ترتيب قطعات الحديد كالحجر، أمر أن ينفخوا فيه عبر كور الحدادة لتنصهر قطع الحديد بالنار ثم أمر أن يُفرغ عليه النحاس المذاب ليتبدّل إلى سدّ معدني كامل.

من مجموع هذه البيانات يمكن استنباط خطة الحكومة الإسلامية في الانتفاع من الصناعات فإن استخدام التكنولوجيا سائغة في جميع الشؤون النافعة و المفيدة، و لكن لا يسوغ استخدامها بتاتاً في الشؤون المخرّبة و الهجومية و المُحرقة و القاتلة و المُفسدة للأرض و الهواء و النبات و الحيوان و الناس و المناطق المعمورة و غيرها و من هذا المنطلق يمكن دراسة الفرق بين الكادر الصناعي في المدينة الفاضلة التي هي الهدف للحكومة الإسلامية و بين الكادر الصناعي للدول المهاجمة و المخربة المدّعية للتحضّر، و معرفة الفرق بين البيئة النظيفة و الملوثة، و النافعة و المسمومة، و السالمة و المريضة.

د: التنمية الحقوقية

إن على القوانين الإسلامية و المسؤولين في النظام الديني تبيين و تدوين و تنفيذ التنمية الحقوقية المحلية و الدولية؛ لأن المجتمع الإنساني مهما ترقى في الشؤون الاقتصادية المختلفة و تبحرّ في الأمور الصناعية و لكنه بقي جاهلاً في القوانين الحقوقية الكاملة و المتقابلة لا يؤمن بها و لم يلتزم في العمل بها

---

١. سورة الكهف، الآية ٩٦.

فهو لا يفلح أبدا لأن نفس الأسلحة الاقتصادية و الصناعية من دون الصلاح الحقوقي و الأخلاقي تمهّد الأرضية للفساد و خير شاهد على ذلك الحرب العالمية الأولى و الثانية و الهجمات الموضعية بعدها التي أدت بأصحاب القدرة أن يسلكوا مسلك التخريب على الدوام و يقع المحرومون في هاوية الانزواء و القتل و النهب.

معالم الأصول الحقوقية للحكومة الإسلامية

تعرض لنا الحكومة الإسلامية أصولاً في هذا المجال نستعرضها فيما يلي:

١. نفي الظلم و الرضوخ له ...؛ ﴿... لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾[1].

٢. الوفاء بالعهود و المواثيق الدولية؛ ﴿وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾[2]، و إن لزوم الوفاء بالعهد لا يختص بعهد الله بل مقتضى إطلاق الآية المذكورة و سائرة الأدلة هو لزوم الوفاء به حتى في العهد مع خلق الله. و قد عبّر القرآن عن المؤمنين العظام الذين نالوا مرحلة الأبرار: ﴿... وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ...﴾[3]، و قال في ذمّ المشركين و الكافرين: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾[4].

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٧٩.

٢. سورة الإسراء، الآية ٣٤.

٣. سورة البقرة، الآية ١٧٧.

٤. سورة الأنفال، الآية ٤٦.

المجتمع الملتزم متنعم بالأمن و الحرية

إن اهتمام الحكومة الإسلامية بإحلال نظام الالتزام و القانون و الوفاء بالعهد و احترام الميثاق ينصبّ في وصول المجتمع الملتزم إلى الأمن و الحرية اللذان هما من مستلزمات التحضّر و من أسس المدينة الفاضلة. فإن ترك المجتمع العمل بالميثاق، سيُسلب منه الأمن و الحرّية و سائر الشؤون المدنية و إن للقرآن الكريم بيان بليغ في هذا الشأن فإنه و عبر تحليل خلقة الإنسان و التساوي بين البشر في الأسس العامة للخلقة و عدم تأثير الزمان و اللغة و العنصر و اللون و الرسوم و الآداب و العادات الداخلية و المحلية و ما إلى ذلك في قوله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾[1] ، لا يجيز لأي شخص أو فئة و بأي نحو من الأنحاء الاستعلاء و الاستكبار و يراه العامل المهم للإخلال بالتعادل الاجتماعي و يوجب مقارعته بسبب أن النزعة الاستكبارية هي نزعة نكث العهد و نقض الميثاق بعينها و لذا يقول: ﴿وَإِن نَكَثُوا أَيْمَانَهُم مِن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَأَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾[2].

نكث العهد أهم دليل لمقاتلة المشركين

إن أهم دليل للقتال مع المستكبرين هو نقضهم للعهد؛ لأن الله لم يجعل دليل قتالهم كونهم «لا إيمان لهم» (بالكسر)، بل لكونهم ﴿لاَأَيْمَانَ لَهُمْ﴾ (بالفتح)، إذ

---

١. سورة الحجرات، الآية ١٣.

٢. سورة التوبة، الآية ١٢.

يمكن التعايش السلمي مع الكافر الذي لا إيمان له، و لكن لا يمكن ذلك بتاتاً مع المستكبر الذي لا أيمان له، إذ لا تتيسر الحياة من دون عهود متقابلة لأن الطرف المقابل إذا كان لا يحترم عهده و يمينه و ميثاقه و ينقضه عند المقدرة فعند ذاك ستتعذر معه الحياة المشتركة.

و إن ما مُني به المجتمع البشري في الجاهلية الجديدة كما في الجاهلية القديمة هو نقض العهد من قبل أصحاب القدرة و السلطة في العصر الحاضر و إن بيان قصور منظمة الأمم المتحدة و سائر المحافل الدولية و المدعين لحقوق الإنسان مع الهجمات الغاشمة في مختلف بقاع العالم لا ينوء به المقام.

تأثير أداء الأمانة في الأمن و الحرية

٣- أداء الأمانة و الابتعاد عن الخيانة في الأموال و الحقوق؛ ﴿إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ...﴾[1]، فإن أمر الله هو لزوم مراعاة الأمانة و أدائها إلى صاحبها و قد قال في مدح المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[2]، و وصف الكثير من الأنبياء للناس بالأمانة و تشهد على ذلك آيات سورة «الشعراء».

و إن تأثير الاحترام المتبادل لأمانات الآخرين مشهود بوضوح في إقرار الأمن و الحرية و تأسيس المدينة الفاضلة. و قد أثبت القرآن المجيد عبر تحليل

---

١. سورة النساء، الآية ٥٨.

٢. سورة المؤمنون، الآية ٨.

تركيبة الإنسان بأنه لا يحق لأي شخص أو فئة الخيانة في الأمانة و أداة التميز العنصري للصهاينة و أمثالهم الذين يُفضّلون أنفسهم على الغير و لا يُلزمون أنفسهم في مراعاة أمانة الآخرين قائلاً: ﴿... وَمِنْهُم مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ...﴾[1]؛ أي أن بعض اليهود إن أعطيته ديناراً أمانة لا يؤده إليك إلا بالقوة و الرقابة و دليل خيانتهم في الأمانة هو استعلاؤهم على غير أهل التوراة و قولهم إن لم نردّ إليهم أمانتهم لا يوجد في ذلك حرج أو قدح أو ذمّ علينا. و بالطبع فإن من يخون الأمانة لا يرتدع عن النهب الابتدائي و من يخون بدينار واحد فهو قطعاً يرى الخيانة في الثروات الواسعة و الوطنية أمر مباح.

دعاء النبي إبراهيم لخلافة الإنسان لله و تأسيس المدينة الفاضلة

إن سلسلة الأنبياء الإبراهيميين عليهم السلام الذين قادوا الحكومات الإسلامية لسنوات متمادية و قد قال عنهم القرآن: ﴿... أذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً﴾[2]، قد ورثوا الخطوط العامة للإمامة و القيادة و الأسس المهمة للسياسة و الحكومة من مؤسس الكعبة و معمار المطاف و مهندس القبلة العالمية و إن النبي إبراهيم عليه السلام لم يلتزم بها في سيرته فحسب، بل كان يطرحها بالكامل في مناجياته الخاصة و يطلب استجابتها من الله.

---

١. سورة آل عمران، الآية ٧٥.

٢. سورة المائدة، الآية ٢٠.

و إن عصارة أدعيته تصبّ في الهدفين المهمين للحكومة الإسلامية و هما خلافة الإنسان الصالح السالك طريق الكمال لله و تأسيس المدينة الفاضلة و ذلك بالنظر إلى أن تأسيس المدينة الفاضلة لا يتأتى إلا في ضوء تكامل الذين وصلوا إلى المقام المنيع للخلافة الإلهية.

و إن ما يتعلق بالإعمار و الحرية و الأمن و الاقتصاد السالم و نظائرها، هو من صفات و شروط المدينة الفاضلة التي وردت في طائفة من الآيات منها: ﴿... رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ...﴾[1] ، و ما يتعلق بكمالات الإنسان التي تمهدّ الأرضية لخلافة الله مذكورة في العديد من الآيات منها: ﴿... وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾[2]، ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[3]، و إن الجذور الرئيسية للأدعية السياسية المُسجّلة في الجوامع الروائية، هي أدعية قادة الدين المذكورة في الصحف السماوية و لاسيما في القرآن الكريم.

---

١. سورة البقرة، الآية ١٢٦.

٢. سورة إبراهيم، الآية ٣٥.

٣. سورة البقرة، الآية ١٢٩.

الفصل الثانــي

صبغة العلوم الإنسانية و الدينية فــي البيئة

أ: صبغة العلوم الإنسانية فـي البيئة

إن فنّ البيئة الـشريف و إن كـان مـن ناحيـة يـرتبط بـالعلوم الطبيعيـة و التجريبية بيد أن فـي مهارته و كيفية حياة البشر و تأمين الصحة و النشاط و ... صبغة العلوم الإنسانية و إن جميع فروع العلوم الإنسانية قبل كـل شـيء بحاجـة إلى علم الإنسان، و لذا لابد من دراسة آراء المفكرين بشأن الإنسان ثم تعريـف الإنسان من منظار القرآن الكريم.

الإنسان فـي رؤية المفكرين الغرب

واحدة من الموضوعات التـي تطارحـت عليهـا آراء المفكـرين الغـرب و أفكارهم كثيراً و تمحورت أبحاثهم الفلسفية عليها تقريباً هي علم الإنسان. و لعل ظهور بعض المدارس الغربية له بعـض الـصلة بهـذا الموضـوع. و لدراسـة علـم الإنسان فـي الغرب و تحليله لابد من النظر فـي ثلاثة مراحل: مرحلة مـا قبـل الحداثة (السنة)؛ مرحلة الحداثة (التجدّد) و مرحلة ما فوق الحداثة. فـإن بعـض المفكرين الغرب الجُدد يدّعون أن الإنسان قبل المرحلة الجديدة كـان فاقـداً لأي شأن و منزلة و قد نال هذه المرتبة فـي مرحلة التجدّد و ستـصل هـذه الـشأنية إلى كمالها فـي مرحلة ما فوق الحداثة.

الإنسان فـي مرحلة ما قبل الحداثة (السنة)

كان المفكرون الغربيون فـي ما قبل المرحلة الجديدة يُعرّفون الإنسان بالنظر إلى طبيعته و يعتقدون أن له طبيعة لا تتغير، فإن الأرض هـي مركـز المنظومـة الكونية و الإنسان أيضاً لشرفه و منزلته فـي وسط هذا العالم و قلبه. و إن لعـالم الطبيعة نظام خاص و الهدف من خلق الإنسان هو انسجامه مع نظام الطبيعة لأن نظام الوجود فـي غاية الإحكام و لا يمكن لإرادة الإنسان أن تسير على خلافه بل لابد أن تسايره فـي العمل.

فإن الإنسان من منظار التقليديين ليس بشيء متميز عن نظام الوجود بل إن هذا النظام هو الذي وهبه هذه المنزلة و وضعه فـي مرتبة رفيعة. فهـم ينظـرون إلى الإنسان كالنص المشكل الذي لابد أن تقوم الفلسفة ببيان معناه[١].

الإنسان فـي مرحلة الحداثة (التجدّد)

وُضعت لماهية الإنسان تعاريف فـي العصر الجديد نشير إلى أربعة منها[٢].

تعريف على أساس علم البيئة: الإنسان ضرب مـن الحيـوان فـلا هـو مـن النباتات و لا من الآلهة؛ لأن النباتات أدنى منه و الآلهة أعلى منه.

تعريف على أساس علم النفس: الإنسان فاعل منفرد واع.

تعريف على أساس علم الاجتماع: الإنسان عضو واحد من نظام اجتماعي أوسع.

---

١. رسالهای در باب انسان (رسالة فـي باب الإنسان)، ص ٧٩.

٢. شور جاودانگی (نشوة الخلود)، ص ٢٨.

التعريف الديني: الإنسان قادر على أن يجمع كل هذه الأمور

نجد من بين هذه التعاريف أن مراد البعض فـي تـصريحاتهم مـن الإنـسان العصري هو المعنى المبتنـي على أساس علم البيئة[١].

الإنسان فـي مرحلة ما فوق الحداثة

لقد بذل المتجدّدون فـي وصف الإنسان قصارى جهـدهم ليرفعـوا مكانتـه فـي الطبيعة؛ فإنهم و إن لم يُوفّقوا فـي تعريفه الوجودي و لكنهم حـاولوا فـي تعريف الإنسان أن يصفوه بما يفوق مستواه. و قد سعى المفكرون الغربيون فـي النصف الثانـي من القرن الأخير أي فـي حـدود عقـد ١٩٦٠ أن يكمّلـوا آراء المفكرين الذين سبقوهم. و من هنا فإن ماهية الإنسان فـي هذه المرحلـة التـي سُميت بمرحله ما فوق الحداثة قد اتّخذت طابعاً فردياً لـيس إلا حيـث تتبلـور شخصية الإنسان عبر مواجهته الطبيعة و العالم المادي و المتحدين معه فـي نـوع الإنسانية و هو من المنظار الأخلاقي يمتلك خصيصة الطمع و الحـرص و يواجـه الآخرين بهذه الخصائص.

فإن الإنسان موجود حريص، أنانـي، لا يتقبـل المـسؤولية، و هـو حيـوان سياسي يوسّع دائرة سلطانه، نفعيّ، لدود، منتهك للحرمات و لا تحدّه أية حرمـة فـي مواجهته للآخرين. حيث حاولوا عبر هذه الصفات فـي تعريف الإنسان أن يهبوا له مكانة أسمى إلا أن بيان هذه الصفات على حدّ اعتراف بعض المنظّـرين

---

١. تاریخ اندیشه و نظریه‌های انسان‌شناسی (تاريخ الفكر و مباحث علم الإنسان)، ص ١٩.

الغربيين قد آلت بمحورية الإنسان المعاصر إلى موت الإنسان في مرحلة ما فوق الحداثة.

تعريف الإنسان في الثقافة القرآنية

لا يُفسّر الإنسان الكريم تفسيراً صحيحاً إلا القرآن الكريم و كما أن المنهج التفسيري الأفضل للقرآن فضلاً عن الاستعانة بالبرهان العقلي و الاستمداد بالحديث الصحيح هو تفسير القرآن بالقرآن: «سل معنى القرآن من القرآن و لا غير»[1]، فإن الأسلوب الأمثل لمعرفة الإنسان هو تفسير الإنسان بالإنسان؛ أي لابد من إرجاع متشابهات الحسّ و الخيال و الوهم في دائرة العلم إلى محكمات العقل النظري و إحالة متشابهات الشهوة و الغضب في دائرة العمل إلى محكمات العقل العملي و بالتالي جعل الفطرة أو الفطنة و الفكرة الإلهية المستقرة هي المنشأ للعلم و العمل لكي تبقى الصبغة الملكوتية للأسس البيئية سالمة. و من هنا قال رسول الله ﷺ: «إن أفواهكم طرق القرآن فطيّبوها بالسواك»[2]، و قال أيضاً: «أطيب الطيب المسك»[3].

إن الثقافة القرآنية لم تقتصر على الحياة النباتية و الحيوانية و الإنسانية المصطلحة و المعبّر عنها في تحديد الإنسان بـ«الحيوان الناطق» بل لابد من

---

١. مثنوي (الأرجوزة)، الدفتر الخامس.

٢. نهج الفصاحة، ج ٢، ص ٨٩٦

٣. بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١٤٣.

فصل أساسي آخر لكي يُعدّ المرء فـي الثقافة القرآنية بأنه «إنسان» فـإن الحـدّ النهائي للإنسان و فصله الأخير فـي القرآن الكريم هو «الحيّ المتألّه».

إن «جنس» الإنسان وفق هذا التعريف هو «الحيّ» الجامع للحياة النباتية و الحيوانية و الإنسانية المصطلحة التـي لها نطق و يمكن القول أنها تعادل «الحيوان الناطق» و فصل هذا التعريف و هو الفصل الأخير لحدّ الإنسان هـو «التألّـه» و معناه «التوجه نحو الله المسبوق بمعرفة الله و الـذوبان فـــي ألوهيتـه»، فـالقرآن الكريم لا يعتبر النطق هو الفصل الأخير للإنسان. فإن النطـق لازم لـه و لكنـه ليس بكافٍ، لأن من كان من أهل الإبداع و الصناعة و السياسة و لكنه يوظفهـا بأجمعها فـي خدمة هوى نفسه، فهو فـي نظر القرآن من «الأنعام» و «البهيمـة» و «الشيطان».

و لذا فإن المصطلح عند عامة الناس عن الإنسان بأنه (حيـوان نـاطق) هـو فـي رتبة جنسه و تألهه هو فصله الأخير.

إن الجنس فـي هذا التعريف يبيّن الذاتيات المشتركة بين الإنسان القرآنـي و الإنسان المصطلح العرفـي و فصله يعرض الذاتيات المميـزة للإنـسان القرآنـــي، إذن فهذا التعريف مبيّن لذاتيات الإنسان و جامع للأفراد و مانع للأغيار أيضاً.

و بما أن التألّه و الذوبان فـي الإيمان بالله مـودع فـــي مكنـون الإنـسان و سريرته فإن حقيقته أيضاً واحدة ليس إلا، و إن «الحياة» و «التأله» قد اقترنا و امتزجا بحدّ لا ترى لحقيقة الحياة الإنسانية سـوى التألـه و الولـع بجمـال الله و جلاله و كل ما ينطلي عليه غبار الغيرية (الكفر فـي التوحيد و النبوة و المعاد و

...) يتنافى و غيرة التوجه نحو الله؛ لأن الاعتقاد الخالص و الإيمان الأصيل لا يحتملان أي ضرب من الشرك و التعددية بحيث أن أدنى حديث عن غير الله و أقل ميل إلى ما سواه يسوق الروح التوحيدية النظرة إلى الذبول و النفس الموحّدة النشيطة إلى الخمول.

لأن حياة الإنسان الحقيقية فانية في تألهه، فمن يرفض أمر الله في نبوة نبيّ يتضرّر تألهه و بالتالي تفسد حياته أيضاً. و إن ما يتعلق بأصل التأله نظير ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1]، أو ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[2]، يرد في تضرّر أصل الحياة أيضاً.

و يُستفاد من القرآن الكريم أن الله الخالق للإنسان قد خلقه «حياً متألهاً» على الفطرة. و الإنسان الحقيقي في الرؤية القرآنية هو الذي لا يقف عند حدود الحياة الحيوانية و الطبيعية بل و لا يحدّد إنسانيته بالنطق أو التفكّر و لابدّ أن يوصل الحياة الإلهية و الخلود و التأله و التوجه نحو الله في فطرته إلى الفعلية و أن يرفع خطاه دوماً في مسير التأله اللامتناهي و يطوي مراحل التكامل الإنساني حتى الوصول إلى مقام الخلافة و مظهرية أسماء الله الحسنى و التخلّق بالأخلاق الإلهية.

إن جميع الناس في الرؤية الفطرية و الباطنية متصفون بصفة «الحيّ المتأله»؛ أي أن الحياة الإلهية و التأله الملكوتي مستقران في فطرة جميع البشر،

---

١. سورة الأنعام، الآية ١٤.

٢. سورة هود، الآية ١٢٣.

و لكن نظراً إلى مسير ازدهار الفطرة و تكاملـها نجـد الكـثير قـد دفنـوا حيـاة فطرتهم المتألهة تحت التراب المظلم للجهل و العصيان و وأدوا تألهم الفطري فـي سجن عبودية النفس المشؤوم و الانقياد لأميال الأغيار و الطواغيت و الأصنام و الشياطين. فإن القرآن لا يصف هؤلاء بـ«الحيّ» بل يعتبرهم خارجين عن دائرة الحياة: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ﴾[1]، فيظهر مـن التقابـل بين «الحيّ» و «الكافر» أن الحيّ غير الكافر و الكافر غير الحيّ و أنه لـيس لـه حياة حقيقية و لذا فهو ميت.

و بالطبع فإن الحياة المفقودة فـي الكافر هي الحياة الفانية فـي التأله، و إلا فالحياة الجامعة التـي هي جنس الإنسان موجودة فيه و لا يخرج منها إلا بقيد التأله.

إن الأقسام المذكورة للحياة طولية و ليست عرضية و لـذا فـإن مثـل هـذا الإنسان يعتبر موجوداً واجداً للحياة الحيوانية و لكنه ميت لكونه فاقـداً للحيـاة الإنسانية و كذلك الحال فيمن له حياة إنسانية باصطلاح الناس فإنه ميت أيـضاً لكونه فاقداً للحياة الإنسانية باصطلاح القرآن الحكيم، إذن فالاصطلاح التحليلي للقرآن لا يمنع إطلاق عنوان الإنسان و البشر و ... على عامة الناس.

أقسام الناس و المحكم و المتشابه فيهم

إن الناس فـي التقسيم الأول إما أموات أم أحياء: فـالأموات هـم الكفّـار الذين دفنوا فطـرتهم الإنـسانية تحـت أطبـاق متراكمـة و قاتمـة مـن الجهـل و

---

١. سورة يس، الآية ٧٠.

الخرافات. فمنهم من هو جسد جامد هامد ساكن عديم المنفعة خاضع للذلّ و الهوان و بغيته حفظ جسده الميت و هو الكافر الذمي و منهم من هو جسد متعفن قد جرّ العالم إلى التعفّن و هو الكافر الحربي الذي بنا حياته على محاربة الإسلام.

و الأحياء هم الذين نجوا من ظلمات الكفر القاتلة. فمنهم من هو في سبات و غفلة عن دينه و إيمانه و إنسانيته و منهم من هو مستيقظ واع؛ و الأخير أيضاً إما مريض و إما سالم و المريض الروحي تارة مرضه سطحي و أخرى مزمن. كما أن الإنسان الحي المستيقظ السالم أيضاً إما ناقص و إما كامل و بين الكُمّل من الناس أيضاً هناك من هو أكمل و بينهم من هو في ذروة الكمال.

فإن جميع الأقسام المذكورة للإنسان متشابهة إلا القسمين الأخيرين و هما الإنسان الكامل و الأكمل الذين يمثلون محكمات المجتمع الإنساني فالنبي و الولي «محكم بالأصالة» و العالم العامل «محكم بالمحكم» و الأول أكمل و الثاني كامل.

و على الإنسان الكامل أن يعرض نفسه دوماً على الأكمل و يزن نفسه بالميزان الأصيل للمحكمات ليتأتى له أن يكون مرجعاً و قائداً للمتشابهات. و على الإنسان المتشابه أيضاً أن يرجع إلى المحكمات و يتبعهم و يطوي معهم سبيل الإنسانية خطوة تلو أخرى.

التلاؤم مع الطبيعة فـي ضوء انسجام قوى الإنسان الباطنية

إن من جعل ميادين فكره تسير بإمامة العقل النظري و ميادين عمله و إرادته بإمامة العقل العملي بحيث أن جميع مجاريه المُدركـة و المُحرّكـة تقتـدي بالمحكمـات الفطرية و الثمرات المحكمة للقوى الفطرية تأتمّ بأحكم المحكمات، عنـدها سـيتحقق الانسجام الحقيقي بين القوى الباطنية و هنا يتضح أن الإنسان الـذي يقـيم لوحـده الصلاة لرب العالمين، كيف يقول بلسان الجمع: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

و معنى هذه الآية أن الحسّ و الخيال و الوهم يقولون بإمامة العقل النظري: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ و الشهوة و الغضب و حبّ الظهور و جميع الميول و الرغبات الطبيعية أيضاً يقـرؤون بإمامـة العقـل العملـي: ﴿إِيَّـاكَ نَعْبُـدُ وَإِيَّـاكَ نَسْتَعِينُ﴾ و كلّ هذه الأئمة الباطنية أيضاً يترنمون تحت إمامـة الـروح الإنـسانية الرفيعة بقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، و هنا يتضح معنى الجمع فـــي قولــه «نعبد و نستعين».

و لو اتّحدت القوى الباطنية لوجـود الإنـسان علـى أثـر تفـسير الإنـسان بالإنسان[2]، سيتلاءم و يتواءم مع سائر المخلوقات أيضاً و إن مثل هـذا الإنـسان يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما يقول الجميع: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[3]، و عندها سيتعامل مع البيئة التـي يعيش فيها معاملة الصفاء و الوفاء.

---

١. سورة الفاتحة، الآية ٥.

٢. لاكتساب المزيد من الشرح و التوضيح راجع كتاب تفسير الإنسان بالإنسان.

٣. سورة فصّلت، الآية ١١.

فقد قال رسول الله ﷺ حول جبل أحد: «هذا أحد جبل يحبّنا و نحبّـه»[١]، و جبل أحد مثال ليس إلا و لا يختص هذا الكلام به. و من المـسلّم بـه أن معـنى البيئة و الحياة البيئية يتبلور فـي ضوء هذه المعرفة و إن مثـل هـذا الإنـسان لا يُلوّث البحار و لا يُفسد الصحاري و الجبال: ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فـي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ﴾[٢].

و إن المراد بقول النبـي ﷺ: «هذا أحد جبل يحبنا و نحبه»[٣]، هو أن نـستفيد من منافعه بشكل صحيح بأن نأخذ منه التراب و ننحت الـصخور و يـضع بـين أيدينا المناجم إن كانت مودعة فيه. فأي جبل يمسك عن بذل المناجم؟ و كـذلك الحال فـي الأشجار: رؤوس ثمراتها باتجاه المزارع و أذنابهـا معلقـة بالـشجرة و معنى ذلك أن الشجر أيضاً يهب ثماره للبشر و لا يخفي شيئاً منها. و هذا هو حال البحار و الصحاري أيضاً.

فلو كان هذا التلاحم و التناغم حاصل لما ظهر الفساد لا فـي البحـار و لا فـي القفار و لما صُرف العلم النووي لصناعة القنبلة الذرية بتاتاً و لما وصل العالم الثالث إلى ما هو عليه الآن من أن يعيش الكثير من الناس تحت خـطّ الفقـر، و لما ظهر النظام الرأسمالـي و النظام الاشتراكي الفاسد. و إن كـل هـذا التنـاحر و التنافر يعود سببه إلى أتباع الهوى الذين كبّلوا العقل و لم يفسّروا الإنسان تفسيراً صحيحاً: «و كم من عقل أسير تحت هوى أمير»[٤].

---

١. بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٢٤٨.

٢. سورة الروم، الآية ٤١.

٣. راجع: بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٢٤٨.

٤. نهج البلاغة، الحكمة ٢١١.

فمن فسّر نفسه بشكل صحيح و عرفها سيكون كلامه بوصفه «خليفـة الله» مع المجتمع عن لطف و رحمة و يعتبر الجبل أيضاً من أحبائـه و لا يُلـوّث البيئـة بتاتاً و لا يكون مصداقاً لهذه الآية **﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾**[1]، و لا يكون سلوكه مصداقاً لقول أمير المـؤمنين عليه السلام: «اضرب بطرفك حيث شئت من الناس فهل تُبصر إلا فقيراً يكابد فقـراً و غنيـاً بدّل نعمة الله كفراً...»[2].

فإن أي فرد أو مجتمع إنسانـي يتوصّل لمعرفة نفسه عـبر تفـسير الإنـسان بالإنسان، سيحصل على مصالح نفسه و منافعها فـي حدود متوسطة و يجد عمره فـي يده نقداً؛ و عندها سيضع كل جهده كنموّ الشجرة و بـصورة جـذر راسـخ تحت قدميه و إلا فهو كالسيارة المستهلكة تترك خلفها كل سعيها و جهـدها و لا يبقى فـي النهاية رأس مال لديها؛ أي أن من ترك خلفه الحركة بـسبب اللـهو و اللغو، فقد فَقَدَ كلّ شيء و أضاع عمره و قضاه باللعب و اللهو و هو اليوم نـادم، و أما من وضع حركته تحت قدميه بسبب اتّباع العقـل و النقـل اللـذان يـسيران بهداية الوحي، فقد حصل على ثمرة عمره نقداً.

بملاحظة هذا المثال، يتضح هذا الاختلاف جيداً: فإن السيارة و الشجرة قـد يبقى كلاهما قائمان على الحركة لمدة عشرين سنة مثلاً بيد أن الشجرة تضع كـل حركاتها تحت قدميها لتتجذّر و تنمو على أساسها و تقوم عليها و تورق و تثمـر

---

١. سورة النمل، الآية ٣٤.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٢٩.

على الدوام. و لا تذهب حصيلة حركة الشجرة التي طالت عشرين سنة أدراج الرياح. و أما السيارة فستتبدّل بعد عشرين سنة من الحركة إلى قطعة معدنية مستهلكة حيث خلّفت جميع حركتها و لم تتقدم نحو الرقيّ و التكامل. و هي معدن متحرك ساروا به و لم ينهض للسير بنفسه و لذا فهو لا يملك من نفسه شيئاً و ليس هو إلا معدن خامل بارد.

و لو بدأ الإنسان يخطو كالشجرة فستصبح خطاه في النهار و الليل ركائزه و يكون منطقه إنجاز عمل يستطيع القيام عليه و تتجذر و تترسخ حصيلته لينمو و يورق و يثمر و يأخذ حصيلة عمره نقداً.

فمن الناس من إذا سألته في الثمانين من عمره ماذا تملك، يجيبك جواباً نقدياً و يقول بأنه ترك آثاراً علمية كثيرة أو أنه ربى أولاداً صالحين أو كانت له أعمال اقتصادية مفيدة و يقف أمام النبي صلى الله عليه وآله مرفوع الرأس. لم يأكل الربا و لم يدفع الربا و لم يغضب في غير أوانه و لم يكسر قلباً و تراه يخدم في المراكز العلمية و الثقافية و هذه هي ثماره، و منهم من هو صفر الكلام و كالمعدن المستهلك لم يبق له من ثماره إلا تقوّس الظهر و انحناؤه.

و على هذا الأساس فإن حركة العمر و استغلال الثروات الإلهية مرهونة بمعرفة النفس و تزكيتها من خلال إرجاع المتشابهات إلى المحكمات، و إلا فسيتبدّل بعد ثمانين سنة إلى معدن مستهلك لا وجه له للبقاء في الدنيا و لا للذهاب إلى البرزخ. فعلى الإنسان أن يموت بوجه أبيض و بضاعة نقدية و إلا فستضربه الملائكة الموكلة بقبض روحه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ

﴿وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾[1]، فإن الملائكة يضربون وجه المحتضر و يزعم من حولـه أنـه نائم فـي فراشه و يبرد بصورة طبيعية، حاله حال الذي يرى مناماً جيداً أو سـيئاً فالأول غارق فـي لذاته و الثانـي منهمك فـي خوف عميق و أمـا المـستيقظ إلى جانبه فهو جاهل بما يجري فـي باطنه. و هذا هو حال المحتضر المسكين فـإن مـن حوله يزعمون أن حاله فـي خير و لا يعلمون أن ملائكة الله يضربون وجهه بقوة و هم أو غيرهم يضربون دبره بشدة. و كل ذلك يحدث فـي الخارج لا فـي النوم.

رسالة الأنبياء فـي تفسير و تغيير الإنسان و العالم

إن أهم ما جاء به الأنبياء و على رأسهم النبـي الأكـرمﷺ هـو تفـسير و تغيير الإنسان و العالم.

و إن تفسير العالم و تغييره متفرّع من تفسير الإنسان و تغييره. فلو تمّ تفسير الإنسان بصورة صحيحة و استقر فـي مستقره المحـوري لتَغيّـر العـالم، لأن عـالم الخلق قد خُلق من أجل الإنسان و الإنسان من أجل لقاء الله المنان. و لم يُخلـق الإنسان من أجل العالم أو أن يكون أحدهما عدلاً للآخر.

فإن الهدف من خلق العالم هو تربيـة الإنـسان و وصـوله إلى لقـاء الله، لأن الإنسان هو الوحيد الذي يتسنى له نيل هذا المقام الرفيـع: ﴿ثُـمَّ دَنَـا فَتَـدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾[2]، و هو الوحيد الذي يـصدر منـه الكـلام الأول و

---

١. سورة محمد، الآية ٢٧.

٢. سورة النجم، الآية ٨-٩.

الآخر، أما الموجود الذي يزول ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[1] و يدلّهم ﴿إِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾[2] لا يمكن أن يصدر منه الكلام الأول و الآخر.

إن الإنسان في نظام الخلقة أصل و العالم تبع له و كلاهما لاستفاضتهما يتبعان الفيض و الفوز الإلهي الخاص و ذلك للوصول إلى لقاء الحق. فإن سلك العالم سبيل الإنسانية سيصل من خلاله إلى لقاء الحق. و إن الصراط المستقيم هو صراط الإنسان الأصيل و لا يتأتى لأي مخلوق الوصول إلى هدفه المنشود إلا عبر هذا الطريق. و إن هدف الأنبياء هو تفسير الإنسان بالشكل الصحيح و تغييره و بالتالي تغيير العالم. و إن ما جاء به الأنبياء و لاسيما الرسول الأكرم ﷺ لم يقتصر على بناء المجتمع الأمثل و تأسيس الحكومة على أساس القسط و العدل و إن كان بإمكان مثل هذا المجتمع أن يحقق الهدف الأوسط للأنبياء حيث بيّنه القرآن الكريم في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[3]، بل هدفهم النهائي هو إخراج المجتمع من الظلمات إلى النور كما جاء في القرآن الكريم: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾[4] و المراد بذلك هو النور الذي يُمكّن الإنسان من مشاهدة الحقائق من دون وجود نور ماديّ آخر و

---

١. سورة التكوير، الآية ١.

٢. سورة التكوير، الآية ٢.

٣. سورة الحديد، الآية ٢٥.

٤. سورة إبراهيم، الآية ١.

رؤية ما لا يمكن رؤيته لا بالعين المفتوحة فحسب بل بالعين المطبقة أيضاً. كالحارثة بن مالك الذي يقول: «كأني أنظر إلى عرش ربي»[١]. و إن هدف الأنبياء الأخير هو أن يتنوّر الإنسان فيطّلع على الماضي و المستقبل القريب و البعيد. و قد دلّنا القرآن على هذا الطريق و حثّنا على سلوكه. كما أن البعض قد نالوا هذا المقام و بإمكان الآخرين أيضاً أن يدخلوا بادئ الأمر في عداد أهل النظر و من بعدها في جمع أهل البصر و يشهدوا حقائق العالم.

و في هذه الحالة يرى الإنسان السمّ المهلك للذنوب و لهيب النار فيها و احتراق أهل المعاصي:

﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ﴾[٢].

فليس المراد رؤية الجحيم و أهلها بعد الموت لأن ذلك يتحقق للجميع حتى الكفار: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾[٣]. إذن فهدف الأنبياء هو إخراج المجتمع من الظلمات إلى النور لتتوافر للإنسان إمكانية مشاهدة حقائق العالم.

و لو تحقق هذا الهدف لانقلب العالم القاتم و سلمت و طهرت البيئة و استنار الإنسان المظلم، و لفُسّر العالم بالطريقة الصحيحة و تغيّر العالم و البيئة البشرية. و إن النور حقيقة؛ أي أنه نيّر بنفسه مُنير لغيره، و من هنا فإن إطلاق النور على هذه الحقيقة ليس من باب المجاز و التشبيه و الكناية و الاستعارة و نظائرها. و

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٥٤.

٢. سورة التكاثر، الآية ٥-٧.

٣. سورة السجدة، الآية ١٢.

لذا لا يمكن أن يقال بأن العلم لأنه بمثابة النور فهو تشبيه أو أن يقال بأن النـاس بما أنهم خرجوا من ظلمة الجهل إلى نور العلم فإن إطلاق النور على العلم مجاز، بل قد استخدم النور فــي معناه الحقيقي.

فلو كان النور مادياً لأنار الأشياء المادية فقـط و لـو كـان معنويـاً لأضـاء المسائل المعنوية لا غير.

و كما أن لجسم الإنسان أعضاء مادية كالعين و الأذن و الشامة و الذائقـة و اللامسة و له بكل واحد منها إدراك خاص، فإن روح الإنسان أيضاً تتمتع بهـذه الحواسّ الخمس. و قد جـاء الأنبيـاء لأن يلتفـت الإنـسان إلى هـذه الحـواسّ الباطنية، و كما أن الحواسّ الظاهريـة بحاجـة إلى عـلاج حـين مرضـها كـذلك الحواسّ الباطنية فهي تحتاج إلى علاج إن عجزت عن إدراك المعارف.

و قد أشار القرآن الكريم إلى مرض القلب لدى البعض حيث قـال: ﴿فِــي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً﴾[1]، و هو الذي يتصدى بعد ذلـك لهدايـة هـذه القلوب المريضة عبر علاجها حتى الوصول إلى مقام ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2] و ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[3].

إن البشرية التــي تطلب أن يسير العالم باتجاه صـحيح مـع وجـود الفـصول الأربعة المثمرة الزاخرة بالأرزاق المادية و المعنوية: ﴿قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فــي أَرْبَعَةِ

---

١. سورة البقرة، الآية ١٠.

٢. سورة الصافات، الآية ٨٤.

٣. سورة الشعراء، الآية ٨٩.

﴿أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾[1]، لابد أن تعرف أن هناك ارتباط وثيق بين سلوكها و بين نظام الخلق. فلو سلك الإنسان الطريق الصحيح لسار نظام العالم فـي منفعته و تغيّر لصالحه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[2]، و فـي هذه الحالة ستتألف الغيوم و تتحرك و تحمل و ترسل أمطارها فـي الوقت و المكان المناسب و تتوافر البركات الإلهية بين يدي الناس بكثرة و غزارة. و لو استبدلوا التقوى بالطغيان لأرسلت الغيوم أمطارها فـي البحار و القفار السبخة أو فـي غير أوان نزول المطر و عندها ستجلب الضرر و الخسران بدل الصلاح و المنفعة، لأن قيادة الغيوم كسائر مخلوقات العالم بيد الله سبحانه الذي يقول: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[3] و يقول أيضاً: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ﴾[4] و يقول كذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾[5].

---

١. سورة فصلت، الآية ١٠.

٢. سورة الأعراف، الآية ٩٦.

٣. سورة الحجر، الآية ٢١.

٤. سورة السجدة، الآية ٢٧.

٥. سورة النور، الآية ٤٣.

ثم يُبيّن البُعد السلبيّ للقضية و يقول: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1].

تستفاد من هذه البيانات نقطتين: ١- تفسير و تغيير العالم و الإنسان. ٢- أصالة تفسير الإنسان و تغييره و تبعية تفسير العالم و تغييره، فإن الهدف من خلق السماوات و الأرض هو تأمين حياة الإنسان المعتدلة و لكن الهدف من خلق الإنسان هو خروجه من الظلمات إلى النور.

فمن أراد أن يُفسّر العالم و يُغيّره من بعد ذلك و يبني بيئة مناسبة للبشر، عليه أن يُفسّر الإنسان على نحو صحيح و يُغيّره.

إن الإنسان المادي يزعم أنه خُلق من التراب و يعود إلى التراب: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا...﴾[2] و يقول الإنسان الموحّد المتوسط بأننا خُلقنا من التراب و سيؤول مصيرنا إلى لقاء الله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[3]. أما الإنسان العارف فيقول: ﴿إِنَّا لِلّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[4]، و هو بالإضافة إلى خلقة البشر الترابية لم يُعرض عن جانب نفخ الروح الملكوتية فيه و لم ينس عبارة ﴿نَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[5] و إن مثل هذا الإنسان إذا وصل إلى المقصد يراه مكاناً معروفاً لديه. و يقول بأني كنت قديماً

---

١. سورة الأنفال، الآية ٥٣.

٢. سورة المؤمنون، الآية ٣٧.

٣. سورة طه، الآية ٥٥.

٤. سورة البقرة، الآية ١٥٦.

٥. سورة الحجر، الآية ٢٩.

فـي هذا المنزل و عاهدت مُضيّفي حـين سائلنـي: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فقلـت ﴿بَلَى﴾[1]. و عند ذلك فمن فتح أذن قلبه و تتلمـذ علـى يـد الأنبيـاء كالنبـي داود عليه السلام سيرى المخلوقات من النباتات و الحيوانات و الجمادات إلى الملائكة و الناس و الجنّ واقفين فـي صفّ واحد لـصلاة الجماعـة و مـشغولين بـذكر الله؛ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَاجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ...﴾[2].

فإن الإنسان يشاهد بأن القرآن الكريم فـي بـادئ الأمـر يمـدح أوليـاء الله قائلاً: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[3]، و لكنه يرى بـالتعمق فـي عالم الخلق:

بأن الموحّدون لم ينحصروا ببنـي آدم بل يوحّده حتى الحيوانات أيضاً[4]

و أن العالم يُسبّح بحمده كذلك.

لقد كان عمل أنبياء الله التفسير الصحيح للإنسان و العالم؛ فكان سعيهم فـي أن يهبوا للبشر سمعاً يُمكّنهم من سماع تسبيح المخلوقـات. و لم تكـن معجـزتهم إنطاق الموجودات بل معجزتهم إماطة اللثام عن بصر الإنسان و سمعه. فكم ممّـن نال هذا المقـام فـي ظـلّ مدرسـة أنبيـاء الله و أصـبح بحيـث يـسمع تـسبيح الموجودات.

---

١. سورة الأعراف، الآية ١٧٢.

٢. سورة سبأ، الآية ١٠.

٣. سورة النور، الآية ٣٧.

٤. كليات سعدي، قسم القصائد.

و إن البشر يستطيع التخلّص من جحيم الأنانية و الحرص و الطمع و النهب عبر اتّباع التعاليم السماوية لأنبياء الله و الدخول في جنة السلام و الصفاء و النور و تغيير البيئة التي يعيش فيها إلى بيئة مناسبة للحياة في ضوء تبديل الصفات الحيوانية إلى الخصال الإنسانية.

ب: الصبغة الدينية في البيئة

الاهتمام بالبيئة في الشرائع الإلهية

تعتبر معرفة الأصول البيئية و اكتسابها و الابتعاد عن تخريبها و السعي للحفاظ عليها في الدين الإلهي الحنيف الذي قد تجلى طوال التاريخ على شكل مناهج و شرائع متنوعة لأنبياء الله من أبرز الحقوق الإنسانية و كذا من أوضح التكاليف البشرية و ذلك لتأمين نشاط المجتمع إلى جانب سلامته و حيوية الأشخاص إلى جانب صحتهم.

و لهذا حذّر و نهى عن تلويث الجوّ و الطرق و الأحياء و الأماكن العامة، و أمر و حثّ على إزالته في حال وقوع مثل هذا الحدث المرّ، كما ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «إن الله عزّوجلّ إذا أنعم على عبد نعمة أحبّ أن يرى عليه أثرها، قيل: و كيف ذلك؟ قال: ينظّف ثوبه و يطيّب ريحه و يحسّن داره و يكنس أفنيته...»[1].

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ١٧٥-١٧٦.

قداسة حفظ البيئة تماثل أجر تلاوة القرآن

إن المسائل المذكورة إنما هي حقوق و وظائف متبادلة بين جميـع المـواطنين. فقد ورد عن الرسول الأكرم ﷺ أنه قال: «من أماط عـن طريـق المـسلمين مـا يُؤذيهم، كتب الله له أجر قراءة أربعمائة آية، كلّ حرف بعشر حسنات»[١].

و المراد بالطريق لا يختص بالطريق الأرضي بـل يـشمل المعـابر البحريـة و الجسور الجويّة أيضاً. و المقصود من ما يُؤذيهم لا يختص بموانع الطرق بل إن كل ما يسبب أذى العابرين و يخلّ ببعض مزايا سـلامة المجتمـع و نـشاطه؛ كرائحـة القمام، و دخان المعامل، و التلوّث الصوتـي و شدّة الازدحام فـي حركة الـسير مشمول لكلام النبـي الرائع، و إن قداسة مراعاة الأصـول البيئيـة تماثـل حرمـة تلاوة المتن الدينـي المقدس.

و من هنا تظهر قذارة ما يقابل هذه الأمور، و يتضح أن أي حكومة أو شعب يترك التفكر عمداً بالمحيط الأخضر و السالم و الباعث على الحيوية و النـشاط و لا يرتدع عن تدنيسه و يعمد إلى تلويث المنطقة الذهبية للطبيعة الإلهية أو يختم علـى لسانه و يبقى ساكتاً إزاء تلويث النفعيين من أصحاب المعامل، سـيغمرهم قهـر الله القاهر، و يكون مصيرهم فـي قعر جهنم. و بالطبع فإن مثل ذلك القهر يتبعـه هـذا القعر، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث ملعون من فعلهن؛ المتغوّط فـي ظلّ النزال، و المانع الماء المنتاب، و سادّ الطريق المسلوك»[٢]؛ فهناك ثـلاث طوائـف ملعونون من قبل الله سبحانه بسبب ثلاثة أعمال سيئة:

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٥٠.

٢. وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٢٥.

١- من يلوّث الأماكن العامة و المظلات و المنتزهات و محل نزول المسافرين و ...

٢- من يغصب الماء الذي هو حق غيره و لا يراعي نوبة حقوق المواطنين.

٣- من يسدّ الطرق و المعابر و يمنع عبور العابرين.

و قد كان سلوك أئمة الحق ككلامهم ينصبّ في ترغيب الحكومة و الشعب على مراعاة الأصول البيئية، و لذا كان علي بن الحسين عليه السلام يمرّ على المدرة في وسط الطريق فينزل عن دابّته حتى ينحّيها بيده عن الطريق[1].

و قد مرّ عيسى ابن مريم بقبر يُعذّب صاحبه ثمّ مرّ به من قابل فإذا هو ليس يُعذّب، فقال: يا ربّ مررت بهذا القبر عام أوّل فكان صاحبه يُعذّب ثمّ مررت به العام فإذا هو ليس يُعذّب، فأوحى اللّه عزّ و جلّ إليه: يا روح اللّه إنه أدرك له ولد صالح فأصلح طريقاً و آوى يتيماً فغفرت له بما عمل ابنه[2].

الأبعاد الثلاثة لأبحاث البيئة في ثقافة الوحي

تنقسم الأبحاث البيئية من منظار ثقافة الوحي إلى ثلاثة أقسام:

أ: الأبحاث البيئية المتعلقة بالجسم

ب: الأبحاث البيئية المتعلقة بالجسم و الروح

ج: الأبحاث البيئية المتعلقة بالروح

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٥٠.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٤٩.

أ: القسم المتعلق بالجسم: للوصول إلى بيئة سالمة لابد أن يتمتع المجتمع بـنعم عدة.

يقول الإمام الصادقعليه السلام: «لا تطيب السكنى إلا بثلاث، الهواء الطيّب و الماء الغزير العذب و الأرض الخوارة»[1]. فالكلام عن طيب الحياة لا الحياة بمفردهـا، و المصابون بالقحط فـي البلدان الفقيرة أحياء بالفقر و المرض و التكدّي و لكنـهم لا يتمتعون بالحياة الطيّبة. فهم يعيشون فـي جوّ «لا يموت فيهـا و لا يحـيى» لا هم أموات و لا أحياء.

ب: القسم المتعلق بالجسم و الروح: و لابد فـي هذا القسم أيضاً من أصـول ثلاثة لتتبدّل حياة البشر إلى حياة إنسانية. فقد روي عن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال: «لا يستغنـي أهل كلّ بلد عن ثلاثة، يفزع إليه فـي أمر دنياهم و آخرتهم، فإن عدموا ذلك كانوا همجاً: فقيه عالم ورع و أمير خير مطـاع و طبيـب بـصير ثقة»[2]؛ إذن لابد للمجتمع من فقيه مبيّن للأحكام الإلهية عالم بزمانه ورع طـاهر الروح، و حاكم يطلب الخير لينقاد الناس إليه و تُحفظ فـي ضوء ذلـك الوحـدة الترابية و الاستقلال و الوحدة الوطنية و أمن المجتمع، و طبيب بصير فـي علمـه يثق به الناس من حيث شخصيته الطبية و يعتمدون عليه فـي حفظ أسرارهم.

ج: القسم المتعلق بالروح: إن حياة الإنسان و بعبارة أخرى إنسانية الإنسان و أصالة وجوده متعلقة بالروح لا بالجسم، و لذا لابد من أن يملأ حياة روحه بالبهجة

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٣٢.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٣٥.

و النشاط و يتسنى ذلك عبر الرياضة الشرعية، فينبغي لتزكية الروح الحدّ من لذائذ البدن و الاهتمام بتكامل الروح. كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الشريعة رياضة النفس»[١]، و يقول أيضاً حول نفسه: «إنما هي نفسي أروضها بالتقوى»[٢]. فإن من يروض نفسه بالتقوى ينصبّ سعيه في الإعراض عن اللذائذ الجسمانية المحللة و إيصالها إلى الحدّ الأدنى و ذلك لتربية الروح و تزكيتها. و لذا تجد البعض يصومون بالنفل أياماً كثيرة و البعض الآخر يصومون الدهر إلا أياماً معدودات يكون الصيام فيها محرّماً و يقنعون في الليل بالقليل من النوم و يحدّون من راحة أبدانهم للعبادة و التهجّد، كما قال القرآن الكريم: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾[٣] لأنهم مشتغلون بالتهجّد و الاستغفار: ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٤]؛ ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحمُوداً﴾[٥].

و إن قال امرؤ لا يلزم اجتناب الحلال و من السائغ التمتع بما أحلّه الله و لا ينبغي إلا الاجتناب عن المحرّمات، فهو يعيش في القسم الثاني؛ و قد تعرض لطراوة البيئة الملفقة بين الجسم و الروح و لكنه إن أراد طراوة حياة روحه و تربيتها عليه الحدّ من الحلال أيضاً و تقليل النوم و الأكل و الراحة و ذكر الله دوماً كما جاء في القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[٦].

---

١. شرح غرر الحكم، ج ١، ص ١٤٥.

٢. نهج البلاغة، الكتاب ٤٥.

٣. سورة الذاريات، الآية ١٧.

٤. سورة الذاريات، الآية ١٨.

٥. سورة الإسراء، الآية ٧٩.

٦. سورة المعارج، الآية ٢٣.

و قد ورد فـي البيـان النوراني لعلـي عليه السلام: «أسـهروا عيـونكم و أضـمروا بطونكم و استعملوا أقدامكم و أنفقوا أموالكم و خذوا من أجسادكم فجـودوا بهـا على أنفسكم»[1]. فإن الجسم و إن كان بحاجة إلى الطعام و النوم و الراحة و التمتع باللذائذ الطبيعية و لكن ينبغي لتربية الروح الأخذ مـن حـصّة البـدن بعيـداً عـن الإفراط و التفريط و إعطائها للروح، كما هي سيرة أهل بيت النبـي الأكرم صلى الله عليه وآله و آيات سورة «الإنسان» المباركة تدلّ على ذلك: ﴿وَيُطْعِمُـونَ الطَّعَـامَ عَلَـى حُبِّـهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾[2] حيث نزلت كما قال المُفسّرون فـي علي و فاطمة عليهما السلام حين صاموا ثلاثة أيام متتالية لشفاء الحسنين عليهما السلام و أعطوا طعامهم حين الإفطـار المـسكين و اليتـيم و الأسـير[3]، مـع أن الجـسم بحاجـة إلى الطعـام و إن تـأمين احتياجات البدن الأولى أمر مطلوب و كان الطعام المهيّأ للإفطار طيّب و طـاهر و لكن الإعراض عن حاجة النفس و تأمين حاجة المـسكين و اليتـيم و الأسـير لله سبحانه إنما هو الأخذ من الجسد و التعرض لتربيـة الـروح و ظـاهر الحادثـة أن الأسير الذي ورد ذكره فـي القرآن الكـريم لم يكـن مـسلماً لأن المـسلمين فـي المدينة لم يكونوا من الأسرى. و إن كان من الممكـن أن يكـون المـشركون الـذين أُسروا فـي ساحة الحرب قد أسلموا تحت ظلّ هداية قادة المدينة.

و قد جاء فـي بيان آخر لأمير المؤمنين عليه السلام: «أشرف لباس ابن آدم فيهـا

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٨٣.

٢. سورة الإنسان، الآية ٨.

٣. مجمع البيان، ج ١٠، ص ٢٠٩.

لعاب دودة و أشرف شرابه رجيع نحلـه»[١]؛ أي أن أفـضل لبـاس الإنـسان و فراشه الحرير و أفضل شرابه (غذائه) العسل و كلاهما يخرجان من نوعين مـن الحشرات. فإن العسل و إن كان طيباً طاهراً يبعث على الـشفاء: ﴿فِيـهِ شِـفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾[٢] و تُصنع من الحرير و الأطلس أيضاً ثياب و فراش مرغوب و لبسه جائز للنساء و استعماله سائغ فـي موارد أخرى، إلا أن وصية الإمام علي عليه السلام هي ألّا يجذبنّكم منتوج هاتين الحشرتين و يسبّب غفلتكم عن تربية الـروح. و هناك فـي قبال ذلك من صرف كل همّته لمزيد مـن الاسـتهلاك و الاسـتعمال، فإنه و إن كان انتفاعاً حلالاً من البيئة و هو فـي نظر الإسلام طيّب و طاهر و مقبول، إلا أن هذا الانتفاع متعلق بالبيئة الملفّقة بين الجـسم و الـروح؛ و لكـن فـي بعد البيئة المتعلقة بالروح الذي يتعرض له أرباب الملكـوت و الأوحـديّ من الناس المتديّنين فهم يتمتعون أيضاً بطهارة البدن و طراوة البيئة و يعيـشون فـي محيط طاهر و لكن المطلوب لديهم طراوة حياة الروح الحاصلة من التهجّد آناء الليل و من سائر العبادات و لا تحصل بالرفاهية فـي العـيش و الالتـذاذ بالنعم المادية كالعسل و الحرير.

حفظ البيئة فـي ضوء تعاليم الأنبياء

هناك ثمّة مسائل مطروحة فـي الشرق و الغرب بشأن حفـظ البيئـة و لكـن لابد من الالتفات إلى أن الكلام الصحيح هو المقتبس من نداء الأديان الإلهيـة، و

---

١. تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ١٣٥.

٢. سورة النحل، الآية ٦٩.

المدارس الشرقية و الغربية محرومون من المعارف الإلهية، و هم عراة من الأصـالة و التجذّر كالإنسان الذي لا أصل له و لا نسب و لا تربطهم أية صلة بالوحي و التعاليم السماوية، أما الإنسان الذي تربطه صلة بمدرسة الوحي و كلامـه يـستند إلى الكتب السماوية كالقرآن و التوراة و الإنجيل فهو إنسان أصيل متجذر.

و إن الأنبياء الذين سبقوا النبـي إبراهيمعليه‌السلام و إن كان عددهم كثير بيد أن البشرية اليوم خاضعة تحت تعاليم الأنبياء الإبراهيميين الذين يعود تـاريخهم إلى ٤٠ قرناً على أقل التقادير. و على هذا فإن أي كلام حقّ يصدر فـي مجال حفظ و سلامة البشر و البيئة فهو مقتبس من نداء الأنبياء الإبراهيميين.

ثم إن الكلام المرتبط بالوحي صـادر عـن ذات الله المقدسـة و أمـا الكـلام الصادر عن الآخرين فهو إما استنباط نـاقص مـن كـلام الأنبيـاء حيـث أنهـم جالسون على مائدة الأنبياء و مأدبتهم و إما صادر من عند أنفسهم و لا يتصف بالاستمرارية و البقاء؛ كالمدارس الإلحادية للشرق التـي لا تنـسجم مـع فطـرة الإنسان الإلهية حتى آلت من دائرة حياة البشر إلى الزوال و الاضمحلال.

شبهة عدم الانسجام بين القداسة الدينية و بين العلوم و الأمور المادية

يقول البعض إن الدين و الأمور المقدسة إن دخلت الساحة الدنيوية للناس، ستفقد قداستها و تتبدّل إلى أمور عرفية؛ و إن أراد الدين المقدس التدخل فـي الشؤون البشرية و إدارة المسائل الطبيعية سيواجه مشكلتين رئيسيتين:

١. بما أن الأمور الدنيوية تختلف من حيث الماهية عن الأمور الميتافيزيقية و الإلهية، لا يمكنها بتاتاً أن تتخذّ طابعاً قدسياً. بل إن كل شيء يملك من نفسه ذاتاً و ماهية لا يستطيع أن يتبدّل ذاتياً إلى أمر ديني؛ إذ لا يمكن للشيء أن يمتلك ذاتين و ماهيتين؛ فالماء أو البناء أو ما شاكلهما له ذات خاصة و لذا لا يوجد لدينا ماء ديني و ماء غير ديني أو شراب ديني و شراب غير ديني. و كذلك الحال في مسألة العدل و الحكومة و العلم و الفلسفة و أمثالها فلا يُتصور فيها أن تصبح أو أن تكون دينية.

٢. و ليست الأمور الدنيوية و البشرية غير قدسية فحسب، بل إن الأمور المقدسة التي ترد ساحة الطبيعة أيضاً تفقد قيمتها و قداستها و تتبدّل إلى أمور عرفية دنيوية؛ و معنى ذلك أن كل ما يدخل عالم الطبيعة يصبح طبيعياً و يغمره غبار الطبيعة و كلّ ما يدخل دائرة الاجتماع البشري يتبدّل إلى مسألة اجتماعية بشرية. و بعبارة أخرى لا يوجد في عالم الطبيعة و الاجتماع البشري أمر ما وراء الطبيعة و ما وراء الاجتماع البشري، و حتى الروح التي تفوق الطبيعة فهي تتجلبب عبر دخولها بيت الطبيعة بجلباب الجسمية.

و الحاصل أن على الدين المقدس و تعاليمه القدسية ألا تجتاز خطاه الحدود الفردية، و لا تطأ الميادين الاجتماعية و الحكومية و المعيشية و في كلمة واحدة السياسة البشرية؛ إذ على أثر الإثنينية الماهوية بين الدين و الأمور البشرية و الدنيوية، لا يتأتى للدين تقديس مثل هذه الأمور، بل يفقد قداسته هو أيضاً و يتبدّل إلى أمر عرفي بشري.

و من هنا لا ينبغي على المشفقين و علماء الدين أن يتجشّموا العنـاء لجعـل الأمور البشرية دينية؛ لأن جهودهم و مساعيهم ستذهب هباء منثوراً، إضافة إلى أن فقدان الدين قداسته سيوقع أساس تديّن المجتمع فـي الخطر.

محاور النقد

للبحث فـي الدليل الثانـي، لابد من التعرض للمسائل التالية:

أ: مفهوم القداسة

كل فعل أو أمر اتّخذ طابعاً إلهياً و انطلت عليه صبغة ربوبيـة فهـو مقـدّس فـي الرؤية الدينية. و قد اعتبر الله أن الصبغة الأمثل لشؤون العالم هـي الـصبغة الإلهية: ﴿صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً﴾[1] و كلّ مـا يتّخـذ مثـل هـذه الصبغة بأي نحو من الأنحاء فهو أمر مقدّس.

و قد وضع الله طريق الوصول إليه للناس فـي العمل بالتعاليم الدينية و على الناس أن يهبوا لحياتهم صبغة دينيـة عـبر مراعـاة الأحكـام الإلهيـة و توفيـق أعمالهم و نياتهم مع قوانين دين الحق. و كلما كان هذا التوفيق أكثر، كلما ظهرت الصبغة الإلهية بمظهر أجلى و أكبر و اتّخذت الشؤون الفرديـة و بتبعهـا المـسائل الاجتماعية فـي الحياة طابعاً قدسياً و إلهياً أكثر فأكثر.

---

١. سورة البقرة، الآية ١٣٨.

و للمزيد من التوضيح في مجال قداسة أمور العالم ينبغي لنا معرفة الدين أكثر، فإن الدين يدعو الناس دوماً إلى مسألتين أساسيتين:

١- إن الدين يطلب من منتحليه الاجتناب عن الأعمال السيئة و القيام بالأعمال الحسنة. و من هنا فإن القرآن الكريم يعتبر الطائفة المؤهلة للبشارة الإلهية و الأجر العظيم الربوبي هي تلك الطائفة من المؤمنين الذين يعملون الصالحات لا الذين يقترفون السيئات على خلاف مقتضى إيمانهم: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾[1].

٢- إن الدين يأمر الناس أن يهتموا بتحسين أهدافهم و نياتهم. و لهذا جعل الله سبحانه شرط قبول الأعمال الصالحة وجود «الحسن الفاعلي» و ذلك للتوجه إلى العامل الروحي و المعنوي في ما وراء الأفعال. و قد وردت كلمات فاخرة في هذا المجال كالمرويّ عن الإمام السجاد عليه السلام في قوله: «لا عمل إلا بنية»[2] و المرويّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله: «نية المؤمن خير من عمله»[3]. و من هنا فإن مجرّد الذنب و إن كان يوجب الجزاء و استحقاقه له ليس مشروطاً بكفر المذنب بل المسلم المذنب يجازى أيضاً إلا أن مجرّد العمل الصالح لا يسبب دخول الجنة بل لابد من أن يكون الفاعل صالحاً و مؤمناً في جوهر ذاته. و لذا فإن عمل الكافر الصالح لا يستوجب استحقاقه دخول الجنة.

---

١. سورة الإسراء، الآية ٩.

٢. الكافي، ج ١، ص ٧٠.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٨٤.

و من هنا فإن نداء الدين هو الوصول إلى هذين الهدفين الكبيرين «الحسن الفعلي» و «الحسن الفاعلي». و على الناس أن يبذلوا قصارى جهدهم للقرب من هذين الهدفين القيمين. و كلما اقترنت أفعالهم و سكناتهم بهذين الحُسنين، كلما انطلت على أعمالهم و أفعالهم صبغة إلهية أكثر و اتّخذت بالتالي مزيداً من الطابع القدسي.

إذن فالقداسة مبتنية على أن تتّخذ العقائد و الأخلاق و الأفعال الفردية و الاجتماعية طابعاً و صبغة إلهية و هذا يحصل أيضاً في ضوء الحسن الفعلي و الفاعلي. فإن اتّضح هذا المعنى جيّداً سنعرف بأن قداسة أمور العالم لا علاقة لها بتغيير ماهيتها بتاتاً و كل عمل يتحلى بهذين الحُسنين المذكورين يتّخذ صبغة إلهية قدسية و إن حُسن الأشياء و الأفعال و قُبحها ليس بمثابة ماهيتها و أجزائها الماهوية بتاتاً حتى يسبب اتخاذها طابعاً دينياً التغيير في ماهيتها فإن هذا أمر محال.

ب: دائرة الأمور المقدسة

إن كان كلّ شيء يحمل طابعاً إلهياً و صبغة ربوبية فهو مقدّس و لا تتيسّر مثل هذه الصبغة إلا بمراعاة التعاليم النازلة من قبل الله، فإن جميع الأمور المنضوية تحت إشراف الشرع و أمره بإمكانها أن تُحسب من الأمور المقدسة؛ حتى الأفعال التي يقوم بها الناس تحت قيادة الشرع بمقتضى حاجتهم الطبيعية ـ و يبذلون في هذا الطريق جهوداً موسعة ـ فهي غير مستثناة من أن تكون أموراً قدسية.

و لعل البعض يزعم أن الكثير من نشاطات الإنسان و أعماله التـي هي من مستلزمات حياته الطبيعية، أمـور اعتياديـة و طبيعيـة و هـي تتنـافى و مفهـوم القداسة و حقيقتها من هذا الجانب، أما التأمل فـي نظر الدين و أحكـام الـشرع يدلنا على أن هذه الأمور أيضاً بإمكانها أن تتّخذ صبغة إلهية و أن تكون دينيـة قدسية كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «الكادّ علـى عيالـه كالمجاهـد فـي سـبيل الله»[1]، و قال الإمام الرضا عليه السلام: «الذي يطلب من فضل الله عزّ و جلّ ما يكفّ به عياله أعظم أجراً مـن المجاهـد فـي سـبيل الله عـزّ و جـلّ»[2]، و قـال الإمـام الباقر عليه السلام: «من طلب الدنيا استعفافاً عن الناس و سعياً على أهله و تعطّفاً على جاره لقى الله (عزّ و جلّ) يوم القيامة و وجهه مثل القمر ليلة البدر»[3].

تدلّ هذه الأحاديث على أن الـشرع الأنـور و مـن خـلال التـدخّل فـي الشؤون الدنيوية ـ حتى فـي شؤون البشر الـضرورية كتـأمين مخـارج الحيـاة ـ يؤدي إلى إيجاد الترابط بين شؤون البشر الدنيوية و المفاهيم المقدسة بالكامـل ـ كالجهاد فـي سبيل الله ـ، و تتبدّل هي أيضاً إلى أمور قدسية إلهية؛ حـتى أنهـا تتحلى بنسبة عالية من القداسة بحيث يستطيع الإنسان من خلالها أن يصل فـي المعاد إلى أعلى مدارج الإنسانية و إلى لقاء ربه.

---

۱. وسائل الشيعة، ج ۱۷، ص ٦٧.

۲. الكافـي، ج ۵، ص ۸۸.

۳. وسائل الشيعة، ج ۱۲، ص ۱۱.

إذن لا يريد الـدين اعتبـار بعـض أعمـال الإنـسان الخاصـة و تـصرّفاته المخصوصة ـ كالدعاء و المناجاة ـ أنها من الأمور النورانيـة و القدسـية، بـل إن جميع جوانب حياة الإنسان و أنماطها مؤهلة و مستعدة لأن تكون نورانية سـواء الأعمال المستقاة مباشرة من الدليل النقلي للدين المـبين ـ كالـصلاة و الـصوم و الحج و أمثالها ـ أو الأعمال المقتبسة من الدليل العقلي للدين و المتعلقة بـشؤون الحياة الدنيوية و المعيشية للمجتمع؛ حيث يمكن بأجمعها أن تكون نورانية مقدسة.

و لا فرق فـي هذه الطائفة من الأعمال و التصرفات بـين الأمـور المهمـة و غير المهمة؛ بحيث أن الأعمال القليلة الأهمية بالظاهر كالأكل و الشرب و الـتنزّه و السفر و ما إلى ذلك إلى المسائل الاجتماعيـة المـصيرية كالحكومـة و قـوانين المجتمع كلها بالإمكان أن تتّخذ طابعاً قدسياً، و إن كانـت متفاوتـة فـي درجـة القداسة. كما أن القداسة ـ الحاصلة عبر التعاليم الدينية ـ أيضاً لا تخـتص بجـزء من الدين، بل أن أي بلاغ دينـي بإمكانه أن يؤثر فـي موضوع خاص أو عمل مخصوص؛ و نعلم أن البلاغات و التعاليم الدينية لا تتلخص بـ«النقل» (الآيـات و الروايات).

و إن للدين بلاغات أخرى لا تقلّ حجيتها و أهميتها عن الـدليل النقلـي و هي «الأدلة العقلية» التـي يتم استنباطها من العقل البرهانـي و تعتبر جزءاً مهماً لا يتجزأ عن الدين، و من هنا فإن بإمكان الأحكام العقلية ـ كسائر الأجـزاء و الأقسام النقلية للدين ـ أن تهب القداسة للحياة البشرية و شؤونها عـبر الحفـاظ على العنصرين المحوريين المشار إليهما، و كما أن العمل على أساس الأدلة النقلية

(الآيات و الروايات) أمر مقدس، فإن العمل على أساس الأدلة العقلية أيضاً يستجلب الأفعال و التصرفات القدسية.

و زبدة الكلام أن جميع شؤون الحياة البشرية بما أنها غير خارجة عن أحكام الدين و قوانينه العقلية و النقلية و أن كونها مهمة أو غير مهمة و طبيعية أو غير طبيعية لا علاقة لها بأن يكون للدين رأي فيها فهي بالإمكان أن تتخذ طابعاً قدسياً دينياً.

إذن لا ينبغي البحث عن الأمور المقدسة في العبادات و مناجيات الكنائس و المساجد فحسب، و دائرة مفهوم التقدّس أعلى مما يتصوّره البعض في ذهنه حيث يفصل الأمور الدنيوية عنه بالكامل؛ فإن تقسيم الثروة مثلاً و توفير الإمكانيات الاقتصادية للشعب و تقديم الخدمات الصحية و العلاجية و الحفاظ على الأمن الداخلي و الخارجي و مراعاة الأصول البيئية و الحؤول دون تخريب بيئة المجتمع و غيرها بالإمكان أن تتّخذ بأسرها طابعاً دينياً قدسياً و ذلك بأن يتم إنجازها عن عدل و عقل و تقديم المصالح الوطنية على المصالح الشخصية و أن تكون كلها للوصول إلى قرب الله و رضاه.

ج: مستند الأمور المقدسة

إن دين الإسلام و كلّ شيء له صبغة دينية قدسية و كلّ ما يطلق عليه بأنه أمر مقدس يستند إلى سند تكويني يغطي جميع أقسام العقائد و الأخلاق و الحقوق و الفقه و معنى ذلك أن هناك حقائق تكوينية في ما وراء الأحكام و

التعاليم الدينية و إن التعاليم المذكورة فـي الواقع هي نفس تلك الحقـائق التـي ظهرت بكسوة الاعتبار و تجلّت بصورة الدين بحيث أن حقيقة الـدين أيـضاً إذا أرادت أن تخلع لباس الاعتبار مـن جـسدها و أن تظهـر علـى حقيقتـها فهـي ستتجلى على هيئة نفس تلك الحقائق العينية.

إذن فالدين يُمثّل الشكل الاعتباري لعالم الوجود، و حقيقته هي نظام الكون ليس إلا بحيث يمكن اعتباره تفسيراً لعالم الوجود بجميع أشكاله. و بعبارة أخرى لا يمكن اعتبار الدين أنه مجـرّد قواعـد و قـرارات اعتباريـة قـد تم تنظيمهـا و اعتبارها من دون أيّ مرتكز تكوينـي بل لابد من العلم أن لجميع أجزاء الـدين مبنى و منشأ عيني قويم و قيّم. و يمكن فـي هذا الشأن الإشارة إلى تجسّم أعمال الإنسان فـي النشأة الأخرى.

و من الواضح أن نعم الجنة ـ كأنهر العسل و الخمور اللذيذة فـي الجنـة ـ لم تكن من نتاج الموادّ الطبيعية ـ كالزهرة و النبات و جهد النحل و عصارة العنـب ـ بل العقيدة و الأخلاق و العمل الصالح للإنسان هو الذي يصنع مثل هذه الـنعم و يعرضها بهذا الشكل. و من هنا قال الله فـي القرآن الكريم: ﴿**إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَـا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[1] و لم يقل: «إنما تجزون بما كنتم تعملون»؛ أي أنه لم يقـل بـأنكم تجزون على أساس أعمالكم و بسببها بل قال بأن جزاؤكم هو مـتن أعمـالكم و إن ما تشاهدونه هو عين عملكم.

---

١. سورة الطور، الآية ١٦؛ سورة التحريم، الآية ٧١.

فإن أحسن مؤمن أو قضى حاجة شخص أو قام بعمل صالح سيكون ظهور و بروز حقيقة هذه الأعمال ـ التـي تم بيانها و شـرحها فـي الـدين و الـشرع المقدس ـ فـي المعاد هي نعم الجنة. و إن اقترف شخص ذنباً كالكذب أو الظلـم ـ المحرمة فـي الدين و المنهي عنها فـي الشرع المقدس ـ فإن ظهورها و بروزها هي ألوان العذاب و الصعوبات التـي أوجدها الـشخص بنفـسه. فـإن الأحكـام الدينية و إن كانت اعتبارية و تمثل طائفة مما ينبغي و ما لا ينبغي عمله، بيـد أن لها حقائق كامنة فـي ما وراء هذه الاعتبارات و هي بمثابة سند لها.

و لبيان المسألة نشير إلى المراحل المختلفة لنظام التكوين. و هـي ـ بترتيـب قوس الصعود ـ عبارة عن عالم الطبيعة و المثال و العقل و لقـاء الله. و إن كيفيـة نضد و ترتيب المراتب المذكورة هي أنها تبدأ من النـاقص و المـستكفي و تُخـتم بالتام و فوق التام.

هذه المراحل تُبيّن كيفية سير الإنسان إلى الله؛ ذلك المسير الحقيقي و الواقعي الذي لابد للإنسان السالك أن يطويه مرحلة تلو أخرى حتى الوصول إلى منتهاه و هو لقاء الله.

و ميزة هذه المراحل هي أن لا سبيل للفصل و الانقطاع فيها بل هي متـصلة بعضها مع بعض بالكامل بحيث أن كل مرحلـة فوقانيـة تمثـل حقيقيـة المرحلـة التحتانية و كل مرحلة تحتانية تمثل رقيقة المرحلة الأعلـى. و هـي تـبين طريقـاً مستقيماً تكوينياً خالياً من أي تشقق و فطور. و قد قال الله فـي هـذا الـشأن:

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَذْكُوراً﴾[1] ثم علّم الإنسان قائلاً له: ﴿يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ﴾[2].

يظهر من التدبّر فـي كلمة «كدح» أن الوصـول إلى لقـاء الله يتحقـق عـبر طريق متصل غير منفصل. فلو لم يكن هناك طريق مـن عـالم الطبيعـة إلى عـالم المثال أو كان هناك فاصل بين عالم المثال و عالم العقل أو كان الطريق بـين عـالم العقل و لقاء الله منقطعاً مفصولاً لما قال القرآن ﴿كَادِحٌ﴾ بـل مـن المفـروض أن يستعمل كلمة أخرى.

إذن فالنظام الماثل أمامنا فـي عالم التكوين متصل و مرتبط بعضه مع بعض بالكامل و كلّ يمثل حقيقة الآخر أو رقيقته. و إن القـرآن الكـريم لبيـان كيفيـة الارتباط فيما بين هذه المراحل عرّف مخلوقات العالم الأعلى بأنها مـدبّرة للعـالم الأسفل و عبّر عنها بـ«مُدبّرات الأمر» و اعتبر أيضاً موجودات العـالم بأسـره ـ سواء كانت ضمن العالم العلوي أو السفلي ـ «مسبّحة»، «ساجدة»، «مسلمة» و «طائعة» لخالقها تقدّست أسماؤه. فللمخلوقات الأسمى فـي عـالم الوجـود علـى الموجودات الأدنى ـ بإذن الله ـ إشراف علّي و تـدبيري و للموجـودات الأدنى بالنسبة إلى المخلوقات الأعلى تشرّف معلولـي فقد تبيّنت كيفية الارتبـاط بـين الأجزاء و المراحل المختلفة لنظام التكوين بهذا الترتيب.

---

١. سورة الإنسان، الآية ١.

٢. سورة الانشقاق، الآية ٦.

يتضح مما ذكر أن هناك صبغة ملكوتية مستحكمة مترابطة قد غطّت جميع أرجاء العالم و على هذا الأساس تكمن في ما وراء الكثير من الأمور ـ التي قد يحسبها البعض أنها بسيطة صورية ـ حقائق و ركائز قويمة تكوينية. و من هنا لا ينبغي أن نُلخّص الدين و كلّ ما اتّخذ طابعاً إلهياً في ظواهره بل توجد في ما وراء هذا الظاهر الاعتباري أمور حقيقية تمثل دعائم تكوينية للأمور الاعتبارية و معنى ذلك أن الأمور الاعتبارية للأخلاق و الفقه و الحقوق مسبوقة بملاكات تكوينية و ملحوقة بالأجر و الجزاء التكويني و إن الدين و الأمور الإلهية المقدسة مع وجود هذه الدعائم إذا دخلت عالم العرف فإنها لا تفقد قداستها بل تهب القداسة لما يحيط بها.

و على سبيل المثال فإن جميع أفراد المجتمع يجلسون على الأرض و يقومون و يأكلون و يشربون و كل هذه أمور مادية و راتبة في الحياة اليومية، إلا أن نفس هذا الجلوس و القيام و الأكل و الشرب قد تتخذ صبغة ملكوتية و طابعاً قدسياً لما يكون لها من نصيب من العوالم الأخرى و لارتباطها بالدين. و على هذا الأساس يكون لبعض الأشياء و الأمور العرفية تمايز على سائر الأشياء و الأمور؛ كالتراب مثلاً فإنه متوفر في العالم بكثرة إلا أن بعض الأتربة تتصف بالقداسة و الشفاء ـ كتربة سيد الشهداء عليه السلام ـ و كذلك الماء فإنه موجود في العالم بكثرة إلا أن بعض المياه تكون شافية ـ كماء زمزم المتبرك ـ كما أن جماع المختلفين في الجنس أيضاً كثير في عالم الطبيعة كجماع الحيوانات البرية و

البحرية و تلقيح النباتات أيضاً و لكن لا تتحقق قضية «النكـاح سنتـي»[١] و لا تتجلى حقيقية «من تزوّج فقد أحـرز نـصف دينـه»[٢] إلا إذا تـزوّج شخـصان مسلمان و حينئذ يتخذ هذا الاجتماع من الذكر و الأنثى طابعاً قدسياً؛ إذ يكمن فيه هدفاً أسمى من إرضاء الغريزة.

إن هذه الأمور المقدسة من حيث العناصر المادية ليست بعيـدة عـن عـرف المجتمع، و لكن بما أن لها ارتباط بالمنـشأ الإلهـي و الحقيقـي و اتـصال بمـا وراء الأمور الظاهرية فهي تتمتع بنوع من القرب من منـشأ جميـع الحقـائق و تتخـذ طابعاً قدسياً إلهياً؛ كالماء الكرّ الذي لا يتنجس بملاقاة المتنجس بل يسبب طهارة الأشياء المتنجسة أيضاً.

و المثال الرائع الآخر ـ المناسـب للتقريـب للأذهـان ـ هـو سـلوك الأئمـة الأطهار عليهم السلام مع الفقراء. فإنهم يعلمون «إن المسكين رسول الله فمن منعـه فقـد منع الله و من أعطاه فقد أعطـى الله»[٣]، و لهـذا إن سـألهم سـائل شـيئاً وضـعوا الصدقة فـي يده ثم عمدوا إلى أيديهم فشمّوها و قبّلوهـا و مـسحوا بهـا علـى رؤوسهم و أعينهم و قـالوا: ﴿انَّ اللّـهَ هُـوَ يَقْبَـلُ التَّوبَـةَ عَـنْ عِبَـادِهِ وَيَأْخُـذُ الصَّدَقَاتِ﴾[٤]؛ و معنى ذلك في الحقيقة أن الله (فـي مقام الفعل) يأخـذ الـصدقة من أيدينا فيتسبب ذلك أن تتبرك يدنا العرفية و الاعتيادية، و كذلك الحال فـي

---

١. بحار الأنوار، ج ١٠٣، ص ٢٢٠.

٢. بحار الأنوار، ج ١٠٣، ص ٢١٩.

٣. نهج البلاغة، الحكمة ٣٠٤.

٤. سورة التوبة، الآية ١٠٤. (راجع: وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٤٣٣-٤٣٥).

وقت الدعاء و التضرع حيث كانوا يرفعون يدهم إلى الله ثم يمسحونها على أعينهم و وجوههم.

و الحاصل أن الدين و الأمور المقدسة لارتباطها مع الحقائق التكوينية و استنادها إليها ـ و قد مرّ شرح هذا الارتباط ضمن بيان المراحل الأربع لنظام التكوين ـ إذا دخلت عالم العرف فإنها لا تفقد قداستها بل تهب القداسة للأمور العرفية أيضاً.

د: الأمور القدسية و استنباط الناس

من الواضح أن معرفة الناس بالحقائق الدينية و الإلهية أمر قيم للغاية و إن الهدف من إرسال الرسل و بعثة أنبياء الله هو إدراك الحقائق الدينية بشكل جيد من قبل الناس و السير في الصراط المستقيم. فكم من مجاهد ـ بل و نبيّ ـ فدى نفسه العزيزة في سبيل الله و شرب شربة الشهادة ليتعرف الناس على التعاليم الإلهية و يدركوا نداء الإسلام الأصيل.

و لذا فإن فهم الناس للدين بشكل صحيح و كذا إقبالهم و هدايتهم تتمتع بأهمية و قيمة بالغة بحيث أن الله يعتبر إقبال الناس و توجههم من مواطن النصر الإلهي و يأمر نبيه بحمد الله و تسبيحه شكراً لهذه النعمة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾[1].

---

١. سورة النصر، الآية ١-٣.

و رغم كلّ ما يحمله دين الإسلام من أهمية و قيمة لهداية الناس و فهمهم الصحيح و توجههم نحو الله و تعاليمه، فإنه لا يبني بتاتاً قداسة الدين و قيمته الباطنية و المقدسات الربوبية على رأيهم و فهمهم و استنباطهم. و إن قداسة الأمر المقدس لا تتعلق برأي الناس و تقوى و تضعف على أساس آراء الموافقين و المخالفين منهم، لأن الأمور المقدسة ـ كما ذكرنا ـ ليست من الأمور التي لا أصل لها و لا أساس حتى تبقى على قداستها إن اعتبرها الناس مقدسة و تدخل في عداد الأمور العرفية و الطبيعية الأخرى إن رفع الناس يدهم عن تقديسها.

و إن هذا النمط من الفكر ناجم من انطباع أشخاص يرون الأمور القدسية وليدة توهم عامة الناس و تخيّلهم و لا يرون للمقدّسات الدينية اعتباراً أكثر من ذلك، و الحال أن الدين إلى جانب بيان الموقع القويم للأمور القدسية و دعائمها المحكمة، لا يربط إقبال الناس و إيمانهم أو إدبارهم و إعراضهم بقيمة و اعتبار الأمور القدسية و كل ما يحمل صبغة وحيانية إلهية بتاتاً.

طرح أصول مباحث البيئة في الدين

تعتبر معرفة الأصول البيئية و اكتسابها و الابتعاد عن تخريبها و السعي للحفاظ عليها في الدين الإلهي الحنيف الذي قد تجلى لأنبياء الله على شكل شرائع متنوعة من أبرز الحقوق الإنسانية و كذا من أوضح التكاليف البشرية.

و مع ملاحظة الطابع الديني للحفاظ على البيئة و طرح الخطوط العامة للأبحاث البيئية في الدين، يتحتم علينا البحث في أنه ما هو نداء التعاليم

الدينية بالنسبة إلى المعطيات العقلية و التجربة البشرية في العلوم الإنسانية و التجريبية؟

واحدة من وظائف النبي الأكرمﷺ بالإضافة إلى إبلاغ آيات القرآن الكريم للناس، تبيينها و استمر أهل البيتعليهم‌السلام أيضاً على هذا النهج و كانوا يحثّون أتباعهم للبحث و الجدّ و الاجتهاد في هذا الطريق كما قال الإمام الثامن علي بن موسى الرضاعليه‌السلام: «علينا إلقاء الأصول و عليكم التفريع»[1]. فإن هذا الكلام لا يختص بالفقه و الأصول و العلوم الدينية بل هو بيان عام. حيث يقول بأننا نلقي أصول العلوم بجميع أصنافه و عليكم باستخراج فروعها؛ سواء في العلوم الدينية أو التجريبية أو التجريدية أو الملفقة و بعبارة أخرى العلوم الإنسانية أو الطبيعية. فقد أوجب الإمام الاجتهاد عبر هذا البيان ـ وجوباً عينياً أم كفائياً ـ إذ لم يقل في الرواية «لكم التفريع» بل قال «عليكم التفريع» المفيد للوجوب.

فكما يجب على الأئمة المعصومينعليهم‌السلام تبيان القوانين العامة للمجتمع من قبل الله سبحانه و تعالى، ينبغي على المجتمع أن يخرج منه أناس مؤهلون للاجتهاد يستنبطون فروع تلك القوانين العامة.

إذن فالحديث الشريف للإمام الرضا (عليه آلاف التحية و الثناء) ناظر إلى جميع العلوم النافعة، و علم البيئة يدخل في عداد العلوم النافعة أيضاً و نحن مكلّفون باستخراج فروع هذا العلم من قوانينه العامة لتأمين حياة سالمة و الاستفادة من بيئة مناسبة.

---

۱. وسائل الشيعة، ج ۲۷، ص ٦۲.

و لازم هذا الاستخراج فـي بادئ الأمر هو أن نهب للعلوم طابعاً دينياً و لا يتأتى ذلك إلا أن تكون فلسفة العلوم دينية أيضاً. و دينية فلسفة العلـوم التـي هي فلسفة مضافة منوطة بكون الفلـسفة المطلقـة دينيـة كـذلك. و إن الفلـسفة المطلقة و أصل الرؤية الكونية تتولّد حرة و يصطلح عليها بأنها «حرية الحـدوث و رقية البقاء».

فإن الفلسفة و الرؤية الكونية فـي بدء ظهورها حرّة لا هي إسـلامية و لا غير إسلامية، و لكن بعد انتظامها تتّخذ طابعاً إلهياً أو إلحادياً. فمن انحرف عـن الجادّة و أنكر المبدأ و المعاد و اعتقد أن لا حياة بعد الدنيا المادية: ﴿مَا هِـيَ إِلَّـا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا الاَّ الدَّهْرُ﴾[1] تكـون فلـسفته إلحاديـة، و الحال أنها لم تكن إلحادية بادئ الأمر، إذ كانت فـي البدء بصدد معرفة الوجـود و العدم و لكن ما إن وقعت فـي هاويـة الفكـر الإلحـادي تبـدّلت إلى فلـسفة إلحادية.

و فـي قبال ذلك من كان فكره فكراً إلهياً فإن فلسفة علمه سـتكون إلهيـة أيضاً و بالتالـي سيتّخذ علمه البيئي كسائر العلوم التجريبية الأخرى صبغة إلهية و لذا لا ينظر إلى عالم الخلق بوصفه عالم طبيعة بل يـراه خلقـاً إلهيـاً و عنـدها سيعرف جيداً العلاقة بين الخلقة و الإنسان حيث خلق الله العالم من أجله و مـن جانب آخر وضع على عاتقه مسؤولية حفظ البيئة و قال بأن هناك ارتباط بـين أعمال الإنسان و حوادث العالم: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ

١. سورة الجاثية، الآية ٢٤.

بَرَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ﴾[1]، فالإنسان ليس موجوداً بعيداً عن عالم الخلق، كما أن الحوادث الطبيعية مؤثرة في أعمال الإنسان و أفكاره، و إن لعمل الإنسان و خُلقه و عقيدته و فكره أثر في البيئة أيضاً كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «ما من قطرة تنزل من السماء إلا و معها ملك يضعها الموضع الذي قُدّرت له»[2]. و قال الله سبحانه أيضاً: ﴿أَنَّا نَسُوقُ المَاءَ إِلَى الأَرْضِ الجُرُزِ﴾[3].

عرض الخطوط العامة من قبل الدين للكثير من العلوم

إن الإسلام رغم تكريم العقل و التجربة من حيث علم المعرفة و تجليل مكاسب البرهان العقلي و التجربة الحسّية و الفتوى بضرورتها لتأمين صلح عادل و حياة متحضّرة، لا يعتبرها كافية لتلبية جميع متطلّبات البشر العلمية و العملية. و من هنا لابد من بيان أن معنى النطاق الديني هو تحديد و تعيين حدود ما جاء به الأنبياء؛ و معنى ذلك أن الذي جاء به الأنبياء هل يتحدّد بتعيين التكاليف العبادية و الأوامر الأخلاقية و الوظائف الحقوقية و بيان حدّ و تعزير المُتخلّف عن التكاليف و الحقوق و لا يتضمن أصولاً و أسساً في المسائل العلمية و الكونية و الفنون السياسية و العسكرية و الاقتصادية و العلوم الاجتماعية و البيئية و نظائرها، أم أن الدين يمثّل مجموعة من الوظائف و

---

١. سورة الأعراف، الآية ٩٦.

٢. من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٥٢٥.

٣. سورة السجدة، الآية ٢٧.

الأصول العلمية و العملية الحاوية للقيم و المعارف التـي يحتاج إليها البشر و قـد تعرض لها بالكامل؟

إن الدين لم يتولّ الحثّ لاكتـساب العلـوم و ترغيـب المـستعدّين لتحـصيل الكمالات العلمية فحسب، بل قام بعرض الخطوط العامة للكـثير مـن العلـوم و علّم المبانـي الشاملة للكثير من المعارف التجريبيـة و الـصناعية و العـسكرية و أمثالها.

و هنا لابد من الالتفات إلى أمـر مهـم فـي إسـناد مـسألة إلى الـدين أو اعتبارها مسألة دينية و هو أن الدين قد يتعرّض لمسألة ما بجميـع مواصـفاتها و خصائصها الصغيرة و الكبيرة كالعبادات التوقيفية التـي وردت جميع فرائـضها و سننها بل و آدابها و أحياناً أسرارها فـي الكتاب و سنة المعصومين عليهم السلام بصورة صريحة أو ضمنية أو التزامية و قد يتعرض الدين لمسألة على نحـو أصـل كلّـي شامل مبيناً فيه قاعدة علمية و أصلاً تجريبياً أو فلسفياً و ما إلى ذلـك مـن دون بيان حدوده و قيوده و شروطه و شطوره كالكثير من مسائل علم أصـول الفقـه الذي يعدّ من العلوم الإسلامية و بعض المسائل المتعلقة بالمعـاملات فـي الفقـه التـي تحسب من العلوم الدينية.

و إن العارفين بهذين القسمين العظيمين من العلوم الإسلامية يعلمان بأنـه لم ترد نصوص دينية غزيرة بشأنهما كما فـي قسم العبـادات الفقهيـة بتاتـاً، حـتى قالوا فـي الفرق بينهما و بين قسم العبادات فـي الفقه بأن التعقيد فـي مـسائل أصول الفقه و قسم المعاملات الفقهية يكمن فـي قلة النصوص و كثرة الأصول و

القواعد العقلية و العقلانية بحيث يصعب استنباطها و جمعها و الاستنتاج منها و الصعوبة في المسائل العبادية للفقه تكمن في كثرة النصوص التعبّدية و قلة الأصول العرفية حيث يتطلب الاستظهار من كل هذه الروايات بعد جمعها و الخروج بنتيجة منها بعد الاستظهار الشخصي، سعياً حثيثاً و همة عالية و ذكاء خارقاً.

و المحصّل أن هذه كلها تدخل في عداد العلوم الدينية. حتى في المواطن التي وردت بحوث معمقة و مصطلحات كثيرة لحلّ بعض مسائل أصول الفقه أو بحث المعاملات الفقهية و لا توجد في المتون الدينية أثر لهذه البحوث العميقة أو الاصطلاحات الفنية كبحث الاشتراط و الإطلاق، و التعليق و التنجيز، و الصحيح و الأعم، و سراية تعدّد العنوان إلى المعنون أو تعدي وحدة المعنون إلى العنوان في اجتماع الأمر و النهي، و الحكومة و الورود، و التخصيص و التخصّص، و التقييد و التقيّد، و الأقل و الأكثر الارتباطي و الاستقلالي، و الفرق بين الشرط و السبب و المقتضى و المانع، و الشرط المتأخر و المتقدم و المقارن إلى غير ذلك من الأبحاث و كذلك المصطلحات الأصولية و الفقهية التي هي عصارة استنباطات علماء الأصول و الفقهاء المضطلعين حيث استظهر كلّ واحد منهم مبحثاً عميقاً من أصل شامل و قدّم لاستنباطه مقدمة و رتب للاستنتاج منه مؤخّرة و الشاهد على ذلك تراكم مباحث أصول الفقه أو مسائل قسم المعاملات الفقهية.

عاملان مؤثران فـي إسلامية المباحث

إن المسائل الكثيرة الواردة فـي مثل هذه المواطن، إما أن تكـون مـن بـاب إدراك أصل شامل و استنباط فروعها و إما أن تكـون خاضـعة لتأييـد قـوانين العقلاء الذي يتم بمرأى و مسمع من صاحب الشريعة و مع إمكانية الطرد و المنع لم تتعرض للنقد و الردع لأن هناك عاملان مؤثران فـــي إسـلامية مـسألة مـا؛ أحدهما و هو الأصل و الأساس تأسـيس و إبـداع مـسألة مـن قبـل الـشارع المقدس و الآخر الذي يتخذ طابعاً دينياً هو إقرار و تأييد قـرارات النـاس لـئلا تكون مغايرة للأصول المبدئية و قواعد المعرفة الإسلامية.

المعيار فـي إسلامية العلم

لابد من الالتفات إلى هذه المسألة و هـي أن المعيـار فـــي أن يكـون العلـم إسلامياً ليس فـي أن يُدرّس فـي الحوزة العلمية لأن هذه الضابطة لا هي مانعة و لا جامعة، فمن الممكن أن تُدرّس بعض العلوم الإسلامية فـي خارج الحوزة و أن تُدرّس فـي الحوزة بعض العلوم التـي لا تحمل طابعاً إسلامياً فـي ذاتها و إنما هي مقدمة لاكتساب العلوم الإسلامية ـ كالأدب الذي هو مقدمة لنشر الآثار المخالفـة للإسلام أيضاً ـ كما أن هناك من نهض للبراز بزعمه الفائل و رأيـه الآفـل فـــي قبال تحدّي القرآن الكريم مستعيناً بفنون الأدب العربـي؛ فإن كانت أصـول الفقـه من العلوم الإسلامية ـ و هي كذلك ـ فإن الكثير من العلوم الإنـسانية الأخـرى و كذلك العلوم التجريبية أيضاً يمكن عدّها ضمن العلوم الإسلامية.

و في هذه الصورة فإن درجة إسناد مضامينها إلى الإسلام مرهونة بدرجتها العلمية، فإن كان ثبوتها العلمي قطعي يكون إسنادها إلى الإسلام يقينياً و إن كانت نسبة ثبوتها ظنية يكون مقدار إسنادها إلى الإسلام على حدّ الظن و إن كان ثبوتها مجرّد احتمال و مرجوحاً يكون إسنادها إلى الإسلام أيضاً بهذه النسبة، كالإسنادات المختلفة لمسائل الفقه و أصول الفقه و التفسير و السيرة و الأخلاق و سائر العلوم المُصادق على إسلاميتها و لابد من العلم بأن كشف الخلاف في العلوم التجريبية أو الرياضية لا ضير فيه، كما أن كشف الخلاف في سائر مواطن الإسناد أيضاً لا ضرر يعتريه.

طرح الكثير من المباحث الطبيعية في المتون الدينية

إن أصول الفقه بكل سعته قد تم استخراجه بوساطة العقل من عدد ضئيل من آيات القرآن الكريم و الروايات الإسلامية و الحال أن هناك آيات و روايات كثيرة في موضوعات أخرى يستطيع البشر عبر التفكر و التدبر فيها استخراج الكثير من العلوم المتعلقة بعالم الخلق.

و كما أن أصول الفقه من خلال الدراسات المعمقة في الآيات و الروايات المتعلقة به يُعدّ علماً إسلامياً، يمكن عبر البحث في الآيات و الروايات المتعلقة بخلق السماء و الأرض و الماء و الهواء و غيرها اعتبار هذه العلوم أيضاً ضمن العلوم الإسلامية.

فعلى سبيل المثال قد تم استنباط أبحاث موسّعة فـي البراءة من آيـة ﴿وَمَـا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[1]، و كذلك يمكن من خلال آيات عديـدة نظـير: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فـي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[2] استخراج أبحاث كثيرة من قبيل كيفية نزول المطر، و إحياء الأرض، و تفتّح الأشجار، و تأمين الموادّ الغذائية للمخلوقـات الحيـة و ازدهـار المنـاظر الطبيعية. فالكلام فـي هذه الآية لا يتعلق بإفاقة الأشجار، بـل يـرتبط بإحيـاء التراب الميّت حيث يتبدّل إثر جذب الأشجار له إلى موجود حيّ. فإن الأشجار النائمة تفوق فـي بادئ أمرها عبر هطول الأمطار ثم تثمر من خلال التغذّي من الماء و الهواء و الموادّ الغذائيـة بواسـطة الجـذر و عنـدها تتبـدّل الأرض الميتـة بوساطة الأشجار إلى موجود حي (الغصن و الجذع و الورق و الثمر).

فإن وردت المباحث المطروحة في القرآن الكـريم فـي فـروع الزراعـة و تربية الحيوانات و صيد الأسماك و الأنواء الجوية و المناجم و ... و الفنون المتعلقة بها لاستفيد منها أكثر مما استفيد من آية ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[3] فـي بحث البراءة فـي أصول الفقه.

كيفية الاستفادة من المتون الدينية فـي العلوم الأخرى

لمزيد الاستفادة من القرآن الكريم فـي العلوم المختلفة لابد من:

---

١. سورة الإسراء، الآية ١٥.

٢. سورة النحل، الآية ٦٥.

٣. سورة الإسراء، الآية ١٥.

التعرض للآية المختصة بموضوع البحث.

ذكر معنى مفردات الآية.

بيان المعانـي العرفية المتبادرة إلى الذهن.

ترجمة الآية بشكل بليغ مع ملاحظة معانـي مفرداتها.

ملاحظة آراء المفسرين الماضين و المتأخرين.

مناقشة آرائهم و الخروج بنتيجة منها.

طرح الآيات الأخرى المؤيدة لهذه الآية.

ملاحظة الروايات الواردة بشأن هذه الآية.

ملاحظة الحصيلة العلمية (العلم القطعي أو المفيد للطمأنينة لا الفرضية) فـي ذلك الموضوع؛ فلا يمكن الاستناد إلى أصالة إطلاق أو أصالة عموم الأدلة النقلية بمفردها، بل لابد من البحث عن المُخصّص اللبّي لئلا يحصل تعارض بين مفاد الأدلة النقلية و بين الأدلة العقلية القطعية.

ثم الاستنتاج من هذه المباحث بعد ملاحظة كل هذه الأمور و بالتالـي بيان الرأي العلمي.

فالمهم أن نعتبر ما توصلنا إليه منهجياً من العقل التجريبـي أو الرياضـي أو الفلسفي و الكلامي حجة فيما بيننا و بين الله.

حجية الفهم المنهجي العقلانـي

يعتبر الفهم المنهجي العقلانـي حجة فمن توصّل علمياً إلى مسألة ما فـي علم البيئة أو علم النبات أو علم الصيدلة أو علم الحيـوان أو الأرض أو البحـار

أو علم الكون سواء كان كافراً أو مسلماً يكون حجة فيما بينه و بين الله سبحانه. فإن كان مسلماً يُؤجر و يُثاب إن عمل بالمسألة العبادية وفـق فتـوى العقـل أو امتثل بقصد القربة فـي المسائل التوصّلية و يُؤاخذ يوم القيامة إن خالفهـا. و إن كان كافراً كذلك يُخفّف عنه العذاب يوم القيامة إن وافق عملـه فتـوى العقـل و يضاعف له العذاب إن خالفها؛ لأن الكـافر مكلّـف بـالفروع كمـا هـو مكلّـف بالأصول أيضاً. فلو تصدّى منظّر للبحث منهجياً و توصّل إلى ضرورة بناء سـدّ خَرَسانـيّ مُسلّح لحجز و تخزين ماء المطر و تحسين حياة الناس و الحـؤول دون أضرار السيل المحتملة و لأثره فـي البيئة و فائدته فـي حقـل الزراعـة و تربيـة الحيوانات و الصناعة و لتأمين ماء الشرب للناس، ثم خالف ما توصّل إليه عقله و سلك طريقاً آخر، فسيغمره العذاب فـي يوم القيامة و لا يمكنـه ادّعـاء عـدم ورود مثل هذا الأمر لبناء السدّ فـي القرآن أو الروايات الإسلامية لأن العقل قد دلّه على ذلك و تمت حجة الله عليه.

و يتضح من هذا البيان أن المنظّر كالمجتهد إن أصاب رأيه الواقع فله أجـران و إن أخطأ فله أجر واحد و إن خالف رأيه و ثبت بعد ذلك أنـه كـان مخطئـاً لم يقترف ذنباً فقهياً و لكنه اجتراء و دلالة على سـوء الـسريرة و هـو ذنـب مـن الناحية الكلامية. فالكلام ليس عن كفر المنظّر أو إسلامه بل الكلام عن العلـم و المعلوم. فالمعلوم هو فعل الله و خلقه و العلم أيضاً حجته، و معنى ذلك هو العلـم بأسرار فعل الله عبر العقل الذي هو حجة إلهية. و كما أن العلـم حجـة منطقيـة لإثبات مسألة ما فهو حجة أصولية و فقهية بين العبد و مولاه أيضاً.

و قد ورد في المسائل الفقهية أن من كان سفره معصية عليه أن يتم صلاته و يجب عليه عند الضرورة الصوم أيضاً. و كانوا يضربون في السابق لتعيين مصداق سفر المعصية مثال قاطع الطريق الذي يُخلّ بأمن السفر، و اليوم لابد من القول أن الخبير الفني إذا حال دون حركة سفينة أو طيران طائرة لشعوره بالخطر سيكون سفر هذه السفينة أو الطائرة سفر معصية كذلك، سواء كان المسافر مسلماً أم كافراً. و لذا فإن كل ما يتوصل إليه العقل و يخرج من الفرضية إلى العلم فهو حجة فقهية، و لكن علينا أن نعرف بأن العلم لا يُكتسب من خلال الحسّ و التجربة فحسب لكي يقال: ما هي العلاقة بين صلاة الاستسقاء و الدعاء و التضرع و بين نظام العالم التكويني! فإن الحسّ و التجربة لا سبيل لهما إلى الكثير من المسائل. و إن العلوم التجريبية لا يمكنها إلا أن يكون لها كلام إثباتي و إثبات العلاقة بين الظواهر، و لكنها غير قادرة على الكلام السلبي؛ فإن بإمكان العلوم التجريبية أن تقول بأني جرّبت هذه المسألة و يحدث مثل هذا الوضع في مثل هذه الظروف، و لكن لا يمكنها القول بأن هذا هو الطريق الوحيد، و إن الطرق الأخرى لا يمكن اختبارها حتى تعطي العلوم التجريبية رأيها فيها. فاتضح بهذا البيان أن العلوم إسلامية بأسرها و لا يوجد علم غير إسلامي لكي يقال: ما هو الفرق بين الفيزياء الإسلامية و الفيزياء غير الإسلامية؛ و معنى ذلك أننا إن طالعنا نظام الوجود من أعماق الأرض إلى الفضاء و البحار و القفار و غيرها فقد طالعنا كتاب الله التكويني و تحدّثنا عن فعل الله سبحانه و من جانب آخر إذا توصلنا إلى علم بالعقل فإنه حجة إلهية، و من هنا فإننا

من خلال الحجة الإلهية نتدارس أفعال الله و بالنظر إلى النظام الفاعلي و الغـائي لها تكون العلوم إسلامية بأجمعها.

إن إسلامية العلوم القرآنية أمر مسلّم به و لكن إن أنكر امرؤ مبدأ نزولـه و هو الله سبحانه و رفض العمل به المتعلق بالحشر و النشر و المعاد، سيتبدّل القرآن إلى نص عربـي ليس إلا، و فـي هذه الحالة إن اهتم فـرد بأدبـه و فـصاحته و بلاغته و قصصه و سائر علومه يمكنه الادّعاء بـأن القـرآن لا معـنى لأن يكـون إسلامياً و غير إسلامي، لأنه أنكر المبدأ و المعاد و نظر إلى القرآن بوصـفه كتابـاً يعنى بالأدب العربـي.

إن العالم الخارجي و هو كتاب الله التكوينـــي يـضاهي كتـاب التـدوين لله سبحانه و تعالى، و إن الأرض و الـسماء و الجبـال و الـبراري و الـصحاري و النباتات و الحيوانات و سائر الموجودات يُمثّلون أوراق الكتـاب التكوينـــي لله. فإن حلّق الإنسان إلى الفضاء أو خاض أعماق الأرض و البحار فإنّ أحكام الله واحدة لأنها من مبدأ واحد: ﴿**هُوَ الذي فـي السَّماءِ إِلهٌ وَفِـي الأَرْضِ إِله**﴾[١]، و كما أن الحياة فـي سائر الكرات لا تُغيّر الفقـه و تفـسير القـرآن، كـذلك الحـال بالنسبة للمبدأ و المعاد فـي عالم الخلق.

حجية معطيات العقل الأصيل

إن هناك ارتباط ثنائي بين النقل و العقل، و الفصل و التفكيـك بينـهما بعـد بيان هذا الارتباط أمر عبث و عندها سيتجلى معناه بشكل آخر.

---

١. سورة الزخرف، الآية ٨٤

تُبيّن النصوص الدينية من جانب أهمية العقل في كلا بعديه النظري و العملي، فيقول الله مثلاً في القرآن الكريم: ﴿اللَّهُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَماوَات وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شيء قَدِيرٌ وأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شيء عِلْماً﴾[١].

فيكون الهدف من خلق المنظومة الكونية بالاستناد إلى هذه الآية هو علم الإنسان، و بما أن العقل النظري هو الذي يتولى الجانب الفكري، يظهر أن عطاء الكائنات و مخلوقات العالم بأسرها متعلقة به و لا يصل الإنسان إلى هدف الخلقة إلا إذا استفاد جيداً من قوة الفكر و استخدم العقل النظري لكشف المجهولات و حقائق العالم.

و يقول الله سبحانه أيضاً في أهمية العقل العملي: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢]. فجعل الله الهدف من الخلقة في هذه الآية عبادة الجنّ و الإنس. و من جانب فإن العبادة و العبودية مرهونة بالنية الصحيحة الصائبة و لا تتحقق من دون استخدام العقل العملي؛ و معنى ذلك أن الإنسان إن لم يكن قادراً على إيجاد نية صحيحة و صالحة في نفسه و على أن يتّخذ لأفعاله أهدافاً سامية بالنظر إلى ما وراء المادّيات فإن عبادته و عبوديته لا تأخذ معناها الصحيح و مفهومها الصائب، و من هنا فإن هدفية الخلقة مدينة للعقل العملي أيضا و الناس من دون العقل العملي يفقدون القدرة على إيجاد النية الصائبة و العبادة الحقة و يُحرمون من الوصول إلى هدف الخلقة.

---

١. سورة الطلاق، الآية ١٢.

٢. سورة الذاريات، الآية ٥٦.

و بالطبع لا ينبغي التصوّر أنه إذا كان الهدف من الخلقة هـو العقـل النظـري إلى جانب العقل العملي فإن ذلك سيُفضي إلى التضادّ و التعارض، لأن لكلّ مـن هذين النمطين من العقـل دور ثبوتــي فــي حـدّ ذاتـه و الأمـران المثبتـان لا يتعارضان بتاتاً و إثبات أحدهما لا يُلقي الآخر فـي دائرة الحصر و النفي.

و من جانب آخر فإن المتون الدينية علاوة على تقييم العقل قد ذكرت فـي تعاليمها الاتجاه الصحيح للتفكير و كذا طريقة الاختيار الصائب للنية و من هنـا فهي لا تترك العقل و لا توكله إلى نفسه بل تدلّه إلى كشف الحقائق المجهولة عبر تبيين الطرق و المناهج الصحيحة.

و بعد ملاحظة جانب واحد من التعامل، لابد من الاهتمام بالجانـب الآخـر أيضاً. و فـي هذا الخضّم فإن لرقيّ قيمة التعقل من الأهمية بحيث أنـه قـد تـبين من أدلة الشرع القطعية. و يتم إثبات هذا التقييم بالنظر إلى أربعة مسائل:

١- إن محور الشريعة هو حكم الله

٢- المصدر الوحيد الذي ينبثق منه حكم الله هو الإرادة الإلهية

٣- الأدلة الشرعية هي الكاشف الوحيد عن إرادة الله

٤- الأدلة الشرعية إما عقلية أم نقلية، و الأدلة النقلية إما الكتـاب أم سـنة المعصومين عليهم السلام

و المُحصّل من هذه المسائل الأربعة هو أن العقل كالنقل و ما يتفـرع منـه ـ كالكتاب و السنة، و ما يتفرّع من السنة أيضاً كالخبر الواحد و المتواتر و الإجماع و الشهرة الفتوائية و الروائية و ... ـ يتمتع بالحجية و الكاشـفية عـن إرادة الله و

حكمه. و من هنا فإن العقل الأصيل كالنقل المعتبر حجة إلهية و لا فرق بينه و بين سائر الأدلة الشرعية. و يتضح أيضاً أن العقل لا يُقابل الدين و لا يعدّ أمراً منفصلاً عنه، بل العقل يُقابل النقل. و إن نداء و محتوى أي دليل عقلي أم نقلي يمثلان نداء الدين و محتواه أيضاً.

و إن أمعنا النظر في التعامل بين العقل و النقل و عدم الفصل بين الميادين الحقيقية لهما لاتّضح جيداً بطلان الفصل بين المنهجية و الإيديولوجية و عندها لا يمكن القول بأن بيان الإيديولوجية على عهدة الشارع و المنهجية على عهدة العقل لأن أصل التمايز بين المسائل المقتبسة من المتون النقلية للدين و المسائل المستقاة من العقل لا علاقة له بأنهما منضويان تحت أصل شرعي و ديني و الشارع يؤيّد كلا المجموعتين من دون أي فصل و تمايز بينهما.

و بعبارة أخرى كما أن النقل المعتبر حجة الله فإن العقل الأصيل أيضاً حجة الله و لا فرق بين محتواه أياً كان ـ سواء كان فقهياً أم أصولياً، توصلياً أم تعبّدياً ـ و بين محتوى الدليل النقلي. و لهذا لا يوجد هناك فرق في المسائل الاجتماعية و السياسية الإسلامية بين الأحكام المأخوذة من المتون الروائية و القرآنية و بين النتائج الحاصلة من العقل البرهاني و كلها تدخل ضمن النظام السياسي و الاجتماعي.

و بعبارة أخرى، لا يختص نظام الإسلام السياسي و الاجتماعي بالمسائل المشار إليها في المتون الدينية مباشرة، بل يشمل الإشارات الشرعية الناتجة من العقل، و المتون الدينية أيضاً مليئة بالتصريح بصحة إسنادها.

و هنا نسترعي الانتباه إلى نقاط عدة:

١- العقل يُقابل النقل لا الدين. و إن تقـسيم الـشيء إلى عقلـي و شـرعي تقسيم خاطئ، بل الصحيح تقسيمه إلى عقلي و نقلي.

٢- حجية العقل مـشروطة بـبعض الـشروط كمـا أن حجيـة النقـل أيـضاً مشروطة ببعض الشروط.

٣- العقل غير القياس لأن العقل حجة و القياس ليس بحجة.

٤- لقد تبيّنت مسألة عدم حجية القياس فـي أصول الفقه و قبلها فـي فـنّ المنطق قبل بيانها فـي الفقه لأن عباقرة المنطق فـي العصور الغابرة قد أفتوا بـأن القياس الفقهي الذي هو نفس التمثيل المنطقي، إن لم يقترن بالبرهان فهو سـاقط عن الاعتبار.

إسلامية الجامعة فـي ضوء المتون الإسلامية

من أجل أن تكون الجامعـة إسـلامية لابـد و أن تكـون المتـون الدراسـية إسلامية أيضاً، و معنى ذلك أن ينصبّ الاهتمام إلى الجانـب الفـاعلي و الغـائي للأشياء و أن يتم البحث فـي خلقة الله بدلاً من الحديث عن الطبيعـة. أمـا الآن فقد أحلّوا الطبيعة محلّ الله و بدل الحديث عن سير المخلوقات فـي خلقة الله بأن مبدأها من أين و مآلها إلى أين يدور الكلام عن الطبيعة و صنيعها و مقتضياتها. و لكن إن دار الحديث عن الخلق فسيؤول البحث إلى خالقه و مدبّره و بالتالـي إلى مسؤولية الإنسان أيضاً و أما إذا دار الكلام عن الطبيعة فعنـد ذاك لا تثبـت أية مسؤولية للإنسان.

ما هي الطبيعة حتى يكون الإنسان مسؤولاً أمامها؟ أمام أي شخص يكـون الإنسان مسؤولاً؟ كيف تتصرّف الطبيعة مع الإنسان بعد موته؟ إلى أي مـستوى يمتدّ نفوذ الطبيعة؟ من الذي خلق الطبيعة؟

إن كان المراد بالطبيعة هو موجود عليم حكيم قدير مـدير و مـدبّر فهـو الله الذي أطلقوا عليه اسم الطبيعة و إلا فإن الطبيعة ليست إلا أوهام و خرافات.

و إن تُرك الاستناد إلى الطبيعة فـي المتـون الدراسـية و استُبدل بالخلقـة الإلهية، فإن قداسة العلوم الجامعية عندئذ لا تقلّ عن العلوم الحوزوية إن لم تكن أفضل منها لأن الحديث فـي العلوم الحوزوية عن «قول الله» و فـي الجامعة عن «فعل الله». و إن هذه الرؤيـة لعـالم الخلـق تـسوق الإنـسان إلى التقـوى و إلى الاتصاف بصفات الملائكة. و فـي هذه الصورة لا يسند أي ظاهرة إلى غير الله و يعتبر الأمور بأسرها من عند الله. فتارة ينظر إلى أمر الله العام حيث يُدير نظـام الخلق على أساس العلة و المعلول، فقد يُسيّر الفُلك عبر الريـاح و قـد يُـسيّرها بأمر خاص كما فـي سفينة نوح حيث كانت تسير و تقف من خلال قول ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾: ﴿قَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرٰاها وَمُرْسٰاها﴾[1]. و فـي ظهور الماء أيضاً تارة و عبر طريق اعتيادي يُسيّر الغيـوم بواسـطة الريـاح و يُحمّلـها و يأمرهـا بإرسال أمطارها إلى الأرض و أخرى و عبر طريق غير طبيعي يفور المـاء مـن التنور كما حدث فـي طوفان نوح: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾[2].

---

١. سورة هود، الآية ٤١.

٢. سورة هود، الآية ٤٠.

عندما يدور الكلام عن الريح و المطر يتم البحث عن رسالة الـريح و مهمـة المطر أيضاً. فإن الرياح تتكفل رسالة الله فـي نظام التكوين لتُحمّـل النباتـات و الغيوم و تُسيّرها. و قد عبّر القرآن الكريم عن المطر بالرحمة حيـث قـال: ﴿هُـوَ الذي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ المَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الْثَمَرَاتِ كَذلِكَ نُخْـرِجُ المَـوْتَى لَعَلَّكُـمْ تَذَكَّرُون﴾[1].

فإن الرياح تهبّ قبل نزول الرحمة مبشّرة ثم تحمل الغيوم الثقيلة على عاتقها و تُحمّلها و من بعد ذلك تهبط إلى الأرض التـي تُساق إليها و يكون نزول المطر على نحو قطرات: ﴿فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ﴾[2]، إذ لو كان نزولـه بـصورة شلال لما كان مفيداً بل يوجب تلف المزارع و خراب البيوت و الدمار.

فالمهم التوجه إلى رسالة الريح و الماء و كونهما فـي يد قدرة الله تعالى كمـا قال: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾[3]؛ نحن الذي نسوقه و نقوده. فالسائق هو الذي يهـدي من خلف و القائد الذي يهدي و هو متقدم و الله قائد لأنه «هو الأول» و سـائق لأنه «هو الآخر».

مع ملاحظة ما ذُكر يتضح أن جميع العلوم إسلامية و لا يمكن أن يتصف علم بالعلمانية و أما إذا صادر الإنسان عقله و اعتبر هذه الثروة الإلهية من عند نفسه

---

١. سورة الأعراف، الآية ٥٧.

٢. سورة النور، الآية ٤٣.

٣. سورة الأعراف، الآية ٥٧.

و أعرض عن حجية معطياته عندها لا يعتبر أوامر العقل إلزامية و بالتالي يُقسّم العلم إلى إسلامي و غير إسلامي.

كون العلم النووي علم إسلامي و المنع من استخدامه الضارّ

في غضون ما ذكرنا سابقاً من أن جميع العلوم إسلامية و مبدئياً لا يوجد علم غير إسلامي في الرؤية الكونية الإلهية، يُطرح هنا هذا السؤال و هو أن العلوم المضرّة بالمجتمع البشري كالسحر أو تعلّم العلم النووي و صناعة و إنتاج الأسلحة الكيمياوية و الجرثومية و تعلّم صناعة الأسلحة النووية التي تهدّد البيئة هل تعدّ من العلوم الإسلامية؟

و الجواب أن العلم هو معرفة العلاقة الحقيقية بين الأشياء التي هي فعل الله سبحانه. فإن معرفة نظم النواة الداخلي و كيفية تركيبها و تحليلها غير محظور، و إنما المحظور هو إنتاج أسلحة الدمار الشامل و أما الانتفاع الصحيح منها الذي يُقرّره العقل و النقل فهو جائز بل لازم إن كان فيه بعد وقائي. كما قيل في السحر أيضاً أن بالإمكان من خلال هذا العلم إفشال ادّعاء المتنبئين و المدّعين للبنوة أو الإمامة أو أي شيء آخر و إبطال تأثيره السيء.

غزارة الأصول و الكلمات الجامعة في القرآن و الحديث حول الإنسان و العالم

بعد بيان سعة دائرة العلوم الإسلامية و الشعاع الوسيع للعلوم الدينية يتضح بأن ما ورد عن الأئمة المعصومين عليهم السلام «علينا إلقاء الأصول إليكم و عليكم

التفرّع»[١]، ناظر إلى الاجتهاد فـي جميـع فـروع العلـوم الإسـلامية و لا يختـص بالفقه، بل لابدّ من القول أن الأصول و الكلمات الجامعة القرآنية و الروائية فـي العالم و الإنسان و كذا رسم الخطوط العامة للرؤية الكونية لا تقلّ عن الروايـات الفقهية بتاتاً و كما تم تدارس بعض النصوص الدينية دراسة أصولية بالاسـتمداد من القواعد العقلية و القوانين العقلائية لتكون مفتاحاً لفهم المتون الدينيـة، ينبغـي أيضاً بنفس الآليات الفنية مداولة بعض النصوص الدينية الأخرى الصادرة كأداة لمعرفة العالم و الإنسان و تبيـان آليـات معرفـة سـائر العلـوم و الفنـون معرفـة اجتهادية و من ثَمّ التعرض للنصوص الواردة فـي الرؤية الكونيـة و التـاريخ و السيرة و الأخلاق و الصناعة و البيئة و أمثالها.

معنى إسلامية بعض العلوم

لا ينبغي التوقع بتاتاً بأن معنى إسلامية العلوم ـ كعلم الطبّ مـثلاً ـ هـو أن تكون جميع قواعده الصغيرة و الكبيرة واردة فـي الأحاديث كالصلاة و الـصوم، كما أن معنى إسلامية علم الأصول أيضاً لم يكـن و لـيس كـذلك، لأن المـسائل العقلية و العقلائية الكثيرة و كذا الاصطلاحات الأصولية الغزيرة المـشهودة فـــي هذا الفنّ المتراكم لا يوجد لها أثر فـي القرآن و الأحاديث.

و فـي هذه الصورة يستعيد الاجتهاد الفعّال معناه و يُسلك الطريـق الأمثـل لرأب الصدع و سدّ الثغور، إذ بعد وضوح فُسحة ميدان العلوم الإسلامية و بيـان

---

١. بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٤٥.

معنى إسلامية الفنون، يكون اجتهاد المضطلع البارع و الخرّيت الماهر خير وسيلة لتأمين التحضّر العلمي للمجتمع الإسلامي و إن تغيير عالم بالطبيعة أو التربة أو المُنجّم رأيه لا يضرّ بصبغة علمه الدينية، كما أن رجوع الفقيه أو الأصولي أو المُفسّر عن رأيه لا يضرّ بإسلامية العلوم المذكورة. و في الواقع فإن المضطلعين في الفنون الإسلامية هم بمثابة المفسرين التجريبيين للقرآن الكريم إذا طابقوا الفهم الرئيسي على أصول الدين المبدئية و المعرفية.

تأثير الوحي في ازدهار العلوم الإنسانية

أشرنا فيما مضى إلى إن فنّ البيئة الشريف و إن كان من ناحية يرتبط بالعلوم الطبيعية و التجريبية بيد أن في مهارته و كيفية حياة البشر و تأمين صحته و نشاطه صبغة العلوم الإنسانية و من جانب آخر له اتجاه ديني كذلك؛ و من هنا لابد من البحث في تأثير الوحي على ازدهار العلوم الإنسانية. لأن العقل و الوحي أحدهما في طول الآخر لا في عرضه و معنى ذلك أن العقل البرهاني و إن كان كافياً بل كاملاً في العلم بأصل المعارف في الجملة، إلا أن الوحي الإلهي في التعريف بجميع معارف عالم الوجود ضروري و أكمل من العقل البرهاني، و من هنا فما يفهمه العقل المُبرهن يُؤيّده الوحي السماوي و ما لا يفهمه و لا سبيل له إليه يُوجّهه الوحي السماوي و يُثير دفائنه العلمية عبر البحث و الاستنباط و يُوصل المعارف الحاصلة لديه بالقوة إلى الفعل و يُبيّن له الحقائق التي كان يعلمها غامضة مُبهمة بصراحة و وضوح. و الحاصل أنه يجبر ضعفه و يرفع نقصه.

كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام فـي دور الأنبياء إزاء التعاليم الإنـسانية: «و يُثيروا لهم دفائن العقول (المدفونة تحت غبار الكفر و المستورة إثر ظلمة الـضلالة و التيه) و يروهم آيات المقدرة ...»[1]. فيتجلى أثر العقل البرهانـي فـي ضـوء الوحي الإلهي و ينمو بالاستلهام من الأوامر السماوية و يستضيء بنورها.

تبيين الوحي للنُظُم الداخلية و الفاعلية و الغائية للأشياء

إن الوحي السماويّ هو كلام الله المحيط بجميع عالم الوجود إحاطـة تامـة و الذي لا يصدر منه إلا واحد واسع شامل (لا واحد عـددي) و إن عـالم الخلـق بأسره ليس إلا نظام حقيقي واحد، و لذا فإن أراد الله الحديث عـن شـيء مـن منظومة عالم الخلق، يُبيّنه مترابطاً مع تركيبة عالم الإمكان و للأخير أيضاً صلة لا انفصام لها مع مبدأ الخلق بحيث يبدو جلياً بُعد صـلة ذلـك الجـزء بـأول سـبب موجد له فلا يحصر تعريف شيء بتاتاً بفرز دائرة نظامـه الـداخلي و لا يكتفـي بشرح مادته و صورته و لا يقنع ببيان جنسه و فصله و لا يقتصر على توضيحه و على ذكر ماضيه و حاضره و مستقبله المادي و لا يعتبر الوقوف علـى سـيره الأفقي و تطوراته المادية كافياً.

إهمال بعض العلوم التجريبية و الإنسانية للنظام الفاعلي و الغائي للأشياء

و بيان ذلك أن بعض العلوم الإنسانية و العلـوم التجريبيـة نـاظرة إلى بيـان الأدوار السالفة لموجود مادي و تحوّلاته الفعلية و تطوّراته المستقبلية على خـطّ

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١.

الزمن و الحركة و المادة و ما شاكلها و هذا هو الاقتصار على التاريخ الأفقي للموجود المادّي. و بعبارة أخرى تبحث في خصوص دائرة نظامه الداخلي؛ فعلى سبيل المثال تقوم في علم البيئة أو المعادن أو الطبّ أو الهندسة أو النجوم أو باقي فروع العلوم التجريبية و كذا بعض العلوم الإنسانية بشرح تحوّلات الموجودات الماضية و الحالية و المستقبلية و البحث في نظامها الداخلي، و لكن لا تتحدث عن نظامها الفاعلي و نظامها الغائي أيضاً؛ فمثلاً في بيان كيفية ظهور المنجم في قلب الأرض أو نشوئه في وسط الجبل و المراحل التي مرّت عليه و تحولاته الفعلية و تطوراته المستقبلية، لا يقع الكلام في موجد هذا الموجود المادي و أن الموجد لو كان موجوداً لاحتاج إلى موجد آخر حتى تصل السلسلة إلى علة الإيجاد و هو مبدأ «واجب الوجود» الذي وجوده عين ذاته و هو غنيّ محض و يقضي حاجة كل محتاج بالكامل.

و الحاصل أنه لا يتم البحث في النظام الفاعلي لهذا الموجود كما لا يدور الكلام عن هدفه أيضاً و أن هذا الهدف لو كان بنفسه موجوداً هادفاً حتى تنتهي السلسلة إلى غاية الأهداف و هو هدف «واجب الوجود» ذو الكمال المطلق الذي هو عين ذاته، لا يحتاج إلى كمال مفصول عن ذاته و ذاته هي الهدف الأخير لجميع الموجودات الهادفة و المحصّل أنه لا يدور الحديث في «النظام الغائي» لهذا الموجود.

فقد اكتفت فروع العلوم التجريبية و كذا بعض العلوم الإنسانية ببيان «النظام الداخلي» للأشياء و لم تخض البحث في «النظام الفاعلي» و «النظام الغائي» لها

بل توكل هذه الأبحاث إلى الرؤية الكونية و تنظر إليها و تتعرض لها مبتورة عن المبدأ و المعاد. و من الواضح أن مثل هذه الدراسة في تفسير موجودات العالم و إن تصدت لبيان نظامها الداخلي بيد أنها مقطوعة عن نظامها الفاعلي و مبتورة عن نظامها الغائي. و بعبارة أخرى يُمثّل عنوان الخلقة هوية جميع الموجودات العينية فإن سلبنا هذا العنوان الخاص المقرون بالارتباط التكويني مع الخالق لما بقي أثر للإسلامية في المعلوم.

تأثير الغفلة عن النظام الفاعلي و الغائي في البيان الناقص لأسرار العالم

التعرض للنظام الداخلي للموجودات و إهمال مبدأ هدفيتها و مقصدها إنما هو بيان ناقص و تفسير قاصر لأسرار العالم و الحرمان من الكثير من الفوائد القيمة لمعرفة أسراره و الوقوع في هاوية السيئات التي لا حصر لها و مصاديقها البارزة مشهودة في عالم العقل بلا وحي و العلم بلا عقل، بيد أن الوحي الإلهي في تبيان موجودات العالم يعتبر كل واحد منها «آية» و علامة لمبدأ العالم و في ضمن توجيهها و تفسير مراحلها الماضية و تحولاتها المستقبلية و توضيح سيرها الأفقي، يتعرض لتبيين نظامها الفاعلي و المبدأ الأول لها و كذا لشرح نظامها الغائي و الهدف الأخير لها و هو ربّ العالم و يذكر سيرها العمودي إلى جانب بيان سيرها الأفقي معتبراً وجود ارتباط بين هذين النظامين الفاعلي و الغائي اللذان يمثلان الجناحين القويين لجسم النظام الداخلي للعلوم التجريبية و بعض العلوم الإنسانية و يهب لها قوة الطيران و يسوقها من الجمود و الركود إلى

الحركة و النشاط و يجعل الميدان الواسع للرؤية الكونية الإلهيـة نُـصب عينيهـا و يدّلها بشكل جليّ على مسير الطيران و يحثّها على ذلك.

و على سبيل المثال فإن هذه الآية القرآنية تشير فـي جملة مختصرة إلى هذه النُظُم الثلاثة: ﴿رَبُّنَا الذي أَعْطَى كُلَّ شيء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[1]؛ أي أن ربّنا أعطى كلّ شيء نظامه الداخلي و زوّده بمستلزمات كماله ثم هداه و دلّـه علـى هدفـه الحقيقي.

تكامل الوحي فـي ضوء بيانه للنظام الفاعلي و الغائي

لقد طُرح هذا الأمر بشكل جليّ فـي جميع القرآن الكريم حول موجـودات العالم؛ فإنه يتعرض فـي تفسير أي موجود من الموجودات السماوية أو الأرضية و من الموجودات الحية أو التـي لا نفس فيهـا و مـن النباتـات و الحيوانـات و البشر و ما شاكلها خلال شرح نظامها الداخلي، إلى توضيح نظامهـا الفـاعلي و تبيّين نظامها الغائي و بالتالـي يضع هذين الجناحين القويين للرقيّ نحو التعالـي فـي بدن النظام الداخلي لجميع فروع الدارسة و البحث فـي شأن الموجودات و يُحييها و يسوقها إلى الطيران و يُبدّل العلم إلى العقـل و المعرفـة إلى البـصيرة و يوصل الفكر إلى الشهود و يُطبّق معطيات العقل النظـري بالتنـسيق مـع العقـل العملي و ينقل المفاهيم الذهنية إلى أعيان خارجيـة و زبـدة الكـلام أنـه يجعـل الإنسان «المُتخصص» «مُتشرّعاً» و «المحقق العلمي» «متحققاً عملياً» و «المُنظّر»

---

١. سورة طه، الآية ٥٠.

«متعبداً» و «المُبدع الفنـي» «ملتزماً دينياً» و «المُخترع الصناعي» «متـديناً» و بالتالـي يُثير الفكر الخام حتى ينضج. و فيما يلي نشير علـى سـبيل المثـال إلى بعض موارد ازدهار العلوم فـي ضوء الوحي الإلهي.

المورد الأول

تبيين النظام الداخلي و الفاعلي و الغائي للسماوات و الكواكب فـي القرآن

يقول الله فـي تبيين نشوء السماوات و كيفية استوائها بغير أعمدة مرئية و جريان الكواكب و النظم و النسق الخاص للشمس و القمر: ﴿اللَّهُ الذي رَفَعَ السَّماوَاتِ بِغَيْـرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُـسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُون﴾[1]. فتعـرض فـي هـذه الآيـة ضمن بيان النظام الداخلي للسماوات و الكواكب، إلى نظامها الفاعلي و نظامها الغائي كذلك؛ أي أنه عنى بمسألة التوحيد و بمسألة المعاد أيضاً.

المورد الثانـي

تبيين النظام الداخلي للأرض و الإشارة إلى نظامها الفاعلي و الغـائي فـي القرآن

يقول الله فـي بيان امتداد الأرض و إرساء الجبال التـي سـببت كالأوتـاد استقرارها و كيفية تربية الثمرات و الأشجار فـي المـزارع المتنوعـة و اسـتقائها

---

١. سورة الرعد، الآية ٢.

بأسرها من ماء واحد و غرسها بأجمعها في أرض واحدة: ﴿وَهُوَ الذي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَاباً أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1].

فعمدت هاتين الآيتين ضمن توضيح النظام الداخلي للأرض الواسعة و الجبال الراسية و الأنهار الجارية و مسائل الزراعة و غيرها إلى بيان نظامها الفاعلي و نظامها الغائي كذلك؛ أي أنهما تعرضا للتوحيد و للمعاد أيضاً، و لكن هناك اختلاف بين طريقة بيان النظام الفاعلي في هاتين الآيتين حيث أشير في الآية الأولى من الوحدة إلى الكثرة، أي أن الله الواحد هو الذي مدّ الأرض و جعل فيها جبالاً رواسي و أنهاراً جارية و ....، و لكن تمّت الإشارة في الآية الثانية من الكثرة إلى الوحدة، أي أن السير ثانية للأرض الواحدة ذات القطع المتجاورة و في كل قطعة مزارع و ثمار خاصة مع أن قطع أرض تلك المزارع متشابهة و تُسقى كلها بماء واحد، يهدي الإنسان العاقل إلى المبدأ الواحد. ثم تبيّن مسألة المعاد و الخلق بعد الموت من جديد. فالحاصل أن عنوان الخلق مقوّم لهوية الأرض و ما شابهها و لا يمكن معرفة شيء من دون معرفة مقوّمه بتاتاً و لا يتأتى معرفة الخلق من دون معرفة الخالق و إن عمل الخالق الحكيم هادف لا محالة.

---

١. سورة الرعد، الآية ٣-٥.

المورد الثالث

بيان النظام الداخلي لخلق و تربية الأنعام و الإشارة إلى نظامها الفاعلي و الغائي.

يقول الله فـي بيان خلق الأنعام و كيفية تربية الحيوانـات و الاسـتفادة مـن قطعان الأنعام و جمالها حين الـذهاب إلى المرعـى و العـودة منـها و مـا يتعلـق بالحيوانات الأهلية و مسائل أخرى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُـمْ فِيهَـا دِفْءٌ وَمَنَـافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِـينَ تَـسْرَحُونَ * وَتَحْمِـلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَـرَؤُوفٌ رَّحِـيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

فقد تعرضت هذه الآيات خلال بيان النظام الداخلي لخلق و تربيـة الأنعـام (علي أساس إلقاء الأصول و تفريع فروعها) إلى نظامها الفاعلي و هو التوحيـد. و فـي نهاية هذا البحث أشارت إلى نظامها الغائي أيضاً حيث قالت: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُنكِرَةٌ وَهُم مُـسْتَكْبِرُونَ﴾[2]؛ أي لابـد من الاهتمام بالنظام الفاعلي و الإيمان بالنظام الغائي كذلك.

لمورد الرابع

بيان النظام الداخلي لظهـور الغيـوم و نـزول المطـر و الإشـارة إلى نظامهـا الفاعلي و الغائي.

---

١. سورة النحل، الآية ٥-٨

٢. سورة النحل، الآية ٢٢.

يقول الله فـي بيان ظهور الغيوم و التأليف بينها و جعلها ركاماً و نزول المطر من بينها و تكوين الغيوم المتلبّدة فـي الفضاء كالجبال السماوية ينزل منها البَـرَد و كيفية توزيعه و طريقة إضاءة البرق و سائر المسائل المختصة بتنظـيم الليـل و النهار و بيان خلق الحيوانات المختلفة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّـفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَـذْهَبُ بِالأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللَّهُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فـي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُوْلِى الأَبْـصَارِ * وَاللَّـهُ خَلَقَ كُلَّ دَاَبَّةٍ مِن مَآءٍ فَمِنْهُم مَن يَمْشِى عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَن يَمْشِى عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شيء قَـدِيرٌ * لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1].

فأشارت هذه الآيات ضمن بيان تأليف الغيوم و المطر و البَرَد و البرق و ... إلى النظام الفاعلي بأن الله القادر على الإطلاق هـو الـذي خلقهـا و أنـشأنها و أدارها و إلى نظامها الغائي معتبرة بأنها كلها آيـات لله و متعرضـة للهدايـة إلى الصراط المستقيم الذي ينتهي إلى الهدف و المعاد؛ أي أنهـا تعرضـت بعـد تعلـيم النظام الداخلي للظواهر الجوّية و ما شاكلها إلى النظام الداخلي و نهاية سلـسلة الخلق فـي طول العلل و هو ربّ العـالمين و إلى النظـام الغـائي أيـضاً و نهايـة سلسلة الأهداف و الغايات عبر الصراط المستقيم و هو الهدف الذاتـي و الغايـة النهائية؛ لأن الصراط المستقيم هو الذي ينتهي إلى هدف حقيقي.

---

١. سورة النور، الآية ٤٣-٤٦.

و الملخص أن القرآن الكريم فـي تبيـان الموجـودات الماديـة و المجـردة الأرضية و السماوية، و البحرية و البرّية، و ذوات الأرواح و التـي لا نفـس لها و الجوية و غير الجوية و ... يبين أولاً نظامها الداخلي بشكل مختصر مفيد، ثم يتعرض لنظامها الفاعلي و نظامها الغائي أيضاً، بل يتمحـور الـشطر الأوفى من البحث فـي بيان التوحيد و المعاد و مبدئها و منتهاها فـي السير العمودي و لا يعتبر مطالعة متن النظام الداخلي للأشـياء مـن دون التوجـه إلى هـذين النظامين كافياً بتاتاً.

نماذج من ازدهار العلوم فـي ضوء الوحي

و هنا لابد من ذكر نماذج من ازدهار العلوم فـي ضوء الوحي لبيـان تـأثير المعطيات السماوية فـي العلم و المعرفة البشرية.

بيان كيفية استخدام القوة بواسطة الوحي

إن ما يُوفّره الإنسان عبر الفكر هو القوة و القدرة، و لكن لا يعـرف جيـداً كيفية استخدامها و تشخيص مواطن الانتفاع بها و معرفة منافعها و مضارّها بيد أن الوحي السماوي يبيّن جيداً طريقة استخدامها فيقول مثلاً كأصل شامل و أمر عام: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1]؛ فقد أوضح عبر هذه الهداية الشاملة و القيادة العامة كيفية استخدام جميع القوى المادية و المعنوية.

---

١. سورة الفتح، الآية ٢٩.

صناعة أفضل الأدوات الدفاعية من أشدّ الوسائل الهجومية

بعد أن لان الحديد الصلب للنبي داودعليه السلام بالإعجاز الغيبي، جاءه أمر الوحي الإلهي أن يستخدمه في صناعة الأسلحة الدفاعية لا المُخرّبة قائلاً: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1]. فأمره أن يصنع دروعاً وسيعة بحلقات هندسية و ثقوب متناسقة.

النقطة المهمة هي أن يُصنع من أشدّ الوسائل التخريبية أفضل الأدوات الدفاعية و من أقوى القدرات الهجومية أدقّ الصناعات الدفاعية و من أقسى مظاهر الهجوم و القمع أفضل أسباب المقاومة و الصمود. و زبدة البحث أنه قد انصبّ السعي في الكلام عن الحديد الذي فيه «بأس شديد» و فيه «منافع للناس»: ﴿وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[2]، في بعده النافع لا في بعده الخشن و القاتل و المُخرّب.

إرشاد الإسلام في بيع السلاح للفئات الباطلة و المتخاصمة

إن شبّ القتال بين فئتين من أهل الكفر و الباطل و اندلعت نيران الحرب و راجت سوق السلاح في خضم هذه الأزمة، يتصدى في هذا المجال العلم البشري الذي يُستعمل في خدمة الأرباح الدنيوية العابرة لتصنيع الأسلحة المُخرّبة و يبذل واسع جهده لبيعها للطالبين، بيد أن الوحي السماوي قد بيّن

---

١. سورة سبأ، الآية ١٠-١١.

٢. سورة الحديد، الآية ٢٥.

مسار الإنسان فـي هذه الكارثة الرهيبة و الحدث المرّ بشكل جيد و يقول فـي هذا الشأن بأن هاتين الفئتين و إن كانتا من أهل الباطل على الافتراض المـذكور و لم تكونا من المسلمين و أهل الحق، و لكن لا ينبغي بيـع الـسلاح المُخـرّب و القاتل لهما، بل لابد من وضع الأسلحة الدفاعية بين أيديهما.

فقد روي عن هشام عن محمد بن قيس أنه قال: سـألت أبـا عبـد الله عـن الفئتين يلتقيان من أهل الباطل أبيعهما السلاح؟ فقال: «بعهما ما يُكنّهما؛ الـدرع و الخُفّين و نحو هذا»[1].

فإن هذا أمر إسلامي إنسانـي حيث لا يُجيز لأحد أن يستغل هذه الفرصـة المرّة حيث نيران الحرب مستعرة أو أن يُهيأ أرضـية الـدمار و القتـل عـبر بيـع الأسلحة الهجومية أو أن يتسبّب من خلال التمييز و الانحياز إلى عرق خاص أو صنف مشخص أو حزب معين أو جمع محدد استعلاء فئة علـى أخـرى و تـأمين طموحها التوسعية و بالتالـي يقوم بإرساء ركائز الاستكبار، بيد أن الإنسان الحرّ المتحرّر من أغلال الحرص و شراك الطمع و سلاسل اكتناز الأموال و فخّ الجشع مُكلّف بالبيع لكلا الفئتين المتخاصمين المتقاتلين لا البيع لفئة واحدة و أن يبيعهما سلاحاً دفاعياً لا مُدمّراً و ذلك لصيانة دماء الناس من أبنـاء جنـسه و الحـؤول دون التخريب و الهجوم و الدمار، و لذا قـال الإمـام الـصادق(عليه السلام): «بعهمـا مـا يُكنّهما؛ الدرع و الخفّين و نحو هذا»؛ أي بـع كـلا الفئـتين مـا يكـون حافظـاً و حارساً لهما و حائلاً دون إراقة الدماء كالدرع و ما شابهه.

---

١. وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ١٠٢.

ازدهار العلوم السياسية فـي ضوء الوحي

لقد رسم الإمام أمير المـؤمنين(عليه السلام) الهندسـة الإسـلامية و نمـوذج الـسياسة الإلهية فـي كتابه إلى مالك الأشتر حيث بيّن فيه كيفية استخدام القدرة المركزيـة و حدّد طريقة استعمال القوة السياسية و اعتبر مجال نفوذ الحكومة محدوداً بحدود العدالة قائلاً: «و لا تكوننّ عليهم سبُعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان إمـا أخ لك فـي الدين أو نظير لك فـي الخلق»[1].

فقد تجلى فـي هذا الأمر السياسي الذي هو مظهر للـوحي الإلهـي ازدهـار جزء من العلوم الإنسانية بشأن الحكمة العملية و هي سياسـة المجتمـع بوضـوح؛ لأن الإمام(عليه السلام) قد حصر كيفية استخدام العلم السياسي و حقوق النـاس بـدائرة العدل و لم يسمح بتاتاً اجتياز حدوده المقدسة حتى بالنسبة لغير المسلمين و هـذا هو ازدهار علم سياسة المجتمع فـي ضوء الوحي الإلهي.

فمن الواجب أن تحوم رسالة الثورة الثقافية حول هذه المسائل المذكورة لكي تنال العلوم الإنسانية ذروة ازدهارها و تصل العلـوم التجريبيـة أيـضاً إلى قمـة سموّهـا و بالتالـي فكمـا يُـدوّن و يُـدّرس «النظـام الـداخلي» فـي الفـروع التخصصية، ينبغي التعرض أيضاً لنظامها «الفاعلي» و «الغـائي» الـذي يوجـب التعهّد و التعبّد الدينـي و يتم تطبيقهما جنباً إلى جنب ليظهر العلم بمظهر العقل و يقترن التخصص بالتعهّد الإلهي.

---

۱. نهج البلاغة، الكتاب ۵۳.

الفصل الثالث

علاقة الأعمال الحسنة و السيئة
بالحوادث الطبيعية

عرفنا بأن القرآن الكريم قد أمر بإعمار الأرض و دعا الجميع إلى ذلك بجدّ و وضع للقيام بهذا العمل المهم الوسائل اللازمة في الطبيعة و هدى البشر إلى الحياة الأسمى عبر العقل من الباطن و أنبياء الله من الظاهر. و السؤال الذي يطرح نفسه للكثير هو أن الله سبحانه نظراً إلى التوحيد في الخالقية خالق كل شيء و فاعل كل فعل فكيف يظهر بين الحين و الآخر زلزال مدمّر أو سيل مخرّب أو كوارث طبيعية أخرى فتضرب المدن و القرى للحظات قليلة و تخلّف فيها الدمار؟ و يمكن طرح هذا السؤال بصورة أعم و هو أنه كيف يتم انتساب الشرور التكوينية لله و ما هو دور الإنسان في مثل هذه الحوادث؟

قبل الدخول في هذا البحث بشكل مبسوط و مستدلّ، لابد من ذكر بعض النقاط.

أهمية البحث

تكمن أهمية بحث الشرور في أن عدم فهمه بشكل صحيح يتنافى و الأصول الاعتقادية لكلّ موحّد كالتوحيد الأفعالي و العدل الإلهي و الحكمة الإلهية و النظام الأحسن. و من جانب آخر فإن الكثير من العقائد الشركية و

الأفكار المنحرفة كالاعتقاد بإله الخير و الشرّ و مسألة التفـويض المزعومـة و ... ناهضة من التحليل الخاطئ لمسألة الشرور و السيئات.

و لابد من الالتفات إلى أن تحليل هذه المسألة فـي كلّ واحد مـن الأصـول المذكورة يحتاج إلى بحث مستقل و ما قيل فـي بحث لا يمكن الاكتفـاء بـه فـي بحث آخر إذ قد يكون الجواب لحلّ المسألة فـي أصل وافيـاً و لا يكـون كافيـاً فـي أصل آخر.

إن ما نبحثه الآن و نجيب عليه هو عدم الانسجام بين الشرور التكوينيـة و اقتراف الذنوب و بين التوحيد فـي الخالقية، أي بناء على عدم وجود خالق فـي العالم سوى الله، فمن يكـون الخـالق للـشرور التكوينيـة (الحـوادث الـسيئة) و التشريعية (المعاصي)؟

النسبة بين «الخير و الوجود» و بين «الشرّ و العدم»

الخير مساوٍ بل مساوق للوجود، أي أن كل خير وجود و كل وجود خـير، أما الشرّ فلا يساوي العدم بل أخصّ منه، أي أن كل شرّ عدم و لكن ليس كـلّ عدم شرّ. و بعبارة أخرى الشرّ عدم خاص و هو عدم الملكة من موضوع قابل و مستعد. فالنسبة بين الخير و الشرّ أيضاً عـدم و ملكـة. إذن فـالخير و الـشرّ لا يتحدان مع الوجود و العدم حتى يكونا نقيضين.

و هناك فرق أيضاً بين الخير و النفع و بين الشرّ و الـضرر. فـالخير و الـشرّ معنـيّ بهما من حيث الهدف و نهاية العمل، و النفع و الضرر من حيث الطريق و

كيفية الوصول إلى الهدف. و بتحليل دقيق يعود النفع و الضرر كالخير و الشرّ إلى الوجود و العدم و لكن بالنظر إلى الطريق لا بالنظر إلى الهدف، كالهداية و الضلالة فالهداية أمر وجودي و الضلالة أمر عدمي و كلاهما يُنظر إليهما بالنسبة إلى الطريق خلافاً للسعادة و الشقاوة التي تُطرح في الأغلب مع ملاحظة الهدف و نهاية المطاف.

و لابدّ من الالتفات إلى أن الوجود و العدم تارة حقيقيان و أخرى اعتباريان و علاقة الخير و الشرّ بالوجود و العدم حقيقية لا اعتبارية، بخلاف الحُسن و القُبح اللذان هما من مسائل الحكمة العملية و من الأمور المبدئية.

فالخير و الشرّ يردان في الحكمة النظرية و المعرفية و الحسن و القبح في الحكمة العملية و المبدئية؛ و إن كان هذا الاختلاف قد لا يُلاحظ في طرح المسائل و يدخل عنوان الخير و الشرّ في الحكمة العملية، كما يدخل الحسن و القبح أيضاً في الحكمة النظرية و يكون المراد منهما الحسن الوجودي أي درجته الأعلى و القبح الوجودي أي دركته الأدنى.

الخير المطلق و النسبي و الشرّ النسبي

الخير و الشرّ إما ذاتيان و نفسيان و إما نسبيان و قياسيان، أي أن وجود بعض الأشياء خير أو شرّ من دون ملاحظة الغير و مع غضّ النظر عن مقارنتها بشيء آخر كالعلم و الجهل، و هناك بعض الأشياء تتصف بالخير و الشرّ من خلال تقييمها و مقارنتها بالغير بحيث أنها من دون المقارنة خير لا شرّ كالأفعى

و العقرب و الحيوانات المفترسة التي تتصف بالشر إذا ما قارنّاها بالإنسان و الضرر الذي تُلحقه به أو بحيوان آخر و إن نظرنا إليها من دون هذه المقارنة يكون وجودها خير.

و إن هذا التقسيم صحيح بالنسبة للخير فقط و أما الشرّ فهو نسبي و قياسي ليس إلا، إذ يتضح من خلال التحليل الدقيق أنه لا يتّصف أي موجود بالشرّ الذاتي و المطلق. نعم هناك بعض الأمور العدمية تتصف بالشر نسبة إلى بعض الأمور الوجودية.

معيار الخير و الشرّ

في التمييز بين الخير و الشرّ لا ينبغي جعل الإنسان و النفع و الضرر الذي يلحق به هو المحور. و لا يسوغ القول بأن ما كان يلائم الإنسان فهو خير و ما لا ينسجم مع حاله فهو شرّ، لأن الإنسان أيضاً فقرة من فقرات عالم الوجود و لا ميزة له من هذا الجانب على سائر الموجودات.

و إن منشأ الكثير من الإشكالات المطروحة حول الشرور هو تقييم خير الأشياء و شرّها من خلال نفع الإنسان و ضرره و لو كان محور القضاء و الحكم هو النظام بأسره و مفردات عالم الوجود بأجمعها لا خصوص الإنسان ستخرج الكثير من المسائل التي تحسب من الناحية الفردية و الجزئية شراً من دائرة الشرور بالنظر إلى كلّ النظام.

الحسنة و السيئة في القرآن

قد يُطلق القرآن الكريم «الحسنة» و «الحسنات» و «السيئة» و «السيئات» على أعمال الإنسان الصالحة و الطالحة نظير: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[1]. و في مواطن كثيرة يُطلق هذه التعابير على الخير و الشرّ التكويني؛ ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2].

الفرق بين «من عند الله» و «من الله»

إن القرآن الكريم في الوقت الذي يُثبّت التوحيد الأفعالي، ينسب السيئات و المصائب إلى الإنسان. و بنظرة ثاقبة ـ تلك التي يُعبّر عنها القرآن بـ«التفقّه» و الكثير محروم منها ـ يتضح أن شمولية التوحيد الأفعالي لا تتنافى مع تنزيه الله سبحانه عن السيئات.

و قد وردت في القرآن الكريم آيتان رئيسيتان تعرض لنا تحليلاً شاملاً و بليغاً عن سبب ظهور الشرور و السيئات التكوينية و كيفية استنادها إلى الله سبحانه: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِن عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ اللّهِ فَمَالِ هؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ﴾[3].

---

١. سورة هود، الآية ١١٤.

٢. سورة الأعراف، الآية ١٦٨.

٣. سورة النساء، الآية ٧٨-٧٩.

يتضح من خلال فهم النقاط الهامة لهاتين الآيتين و لاسيما الفرق بين «من عند الله» و «من الله» أنه كيف تكون الحسنة و السيئة ـ الخير و الشرّ ـ كلاهما «من عند الله» و الحسنة إضافة إلى ذلك «من الله» أيضاً أما السيئة فليست «من الله» بل «من نفسك». و بعبارة أخرى الحسنة «من عند الله» و «من الله» أيضاً أما السيئة فهي «من عند الله» و ليست «من الله» بل «من الإنسان»[١].

إن للأشخاص الضعفاء في الإيمان إزاء الأحداث المريرة و الممتعة أربعة أنماط من الحكم:

١- إذا ما أحلّ حادث مرير بالآخرين كالهزيمة و الأسر و القتل ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَعَهُمْ شَهِيداً﴾[٢].

٢- و إذا ما أحلّ بالآخرين حادث ممتع كالانتصار على الأعداء قالوا: ﴿يَلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[٣].

٣- و إن يحلّ بهم حادث ممتع يقولون هذا من عند الله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾[٤]، و قد يعتبروه لهم كأصحاب النبي موسى عليه السلام الذين كانوا يعتبرون الحسنات لهم ـ و لعلّ ذلك ناجم مما كانوا يرون لأنفسهم من صلاح ـ: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هذِهِ﴾[٥].

---

١. راجع تفصيل هذا البحث في تفسير التسنيم، في تفسير الآيات المذكورة.

٢. سورة النساء، الآية ٧٢.

٣. سورة النساء، الآية ٧٣.

٤. سورة النساء، الآية ٧٨.

٥. سورة الأعراف، الآية ١٣١.

٤- و إن نزل بهم حادث مرّ نسبوه إلى الأنبياء عليهم السلام و المؤمنين. فقد نقل القرآن الكريم عن بعض معاصري النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنهم إن تحلّ بهم حادثة مؤلمة قالوا له صلى الله عليه وآله هذه السيئة من عندك: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِن عِندِكَ﴾[1]، كما نقل عن أصحاب النبي موسى عليه السلام أنهم كانوا يتشاءمون منه و من أتباعه: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾[2].

ففي مثل هذا الجوّ الفكريّ و في الردّ على مثل هذه الأحكام الباطلة، يفرّق القرآن الكريم بين الحسنات و السيئات و يقول: الحسنات «من عند الله» و «من الله»، أما السيئات فهي «من عند الله» و ليست «من الله».

و السرّ في أن القرآن الكريم ذكر هذه المسائل مخاطباً النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هو أن الأشخاص الضعفاء في الإيمان و المبتلين بالخرافات لا يستطيعون فهم مثل هذه المسائل و لذا قال في نهاية الآية الأولى: ﴿فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾[3].

الحسنة و السيئة التشريعية

تعرضنا للبحث حول الحسنة و السيئة في مقامي التشريع و التكوين. ففي المقام الأول يأمر الله سبحانه بالحسنة و البرّ و ينهى عن السيئة و القُبح؛ ﴿إِنَّ

---

١. سورة النساء، الآية ٧٨.

٢. سورة الأعراف، الآية ١٣١.

٣. سورة النساء، الآية ٧٨.

اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاىء ذِى القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنكَرِ وَالبَغْىِ﴾[1]، ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَيَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ﴾[2].

و يقول في سورة الإسراء بعد إحصاء عدد من الذنوب: ﴿كُلُّ ذلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾[3]، إذن فالسيئات التشريعية لا أنها ليست من الله فحسب بل قد مُنيت بكراهته و نهيه.

و إن كراهة الله سبحانه و نهيه عن الذنوب تشريعي لا تكويني، لأن مخالفة نهي الله التكويني يستلزم أن يكون العاصي غالباً و القادر المطلق مغلوباً، و هو مستحيل عقلاً و مردود في الكثير من الروايات أيضاً.

أقسام الشرور التكوينية

السيئات و الشرور التكوينية على نمطين: إما أمور عدمية نظير فقدان الوجود و فقدان الفيض كالفقر و الجهل و العجز و ... أو أمور وجودية تظهر إلى الوجود إثر أسباب و عوامل خاصة بها كالسيل و الزلزال و الحرب و ...

ففي الصورة الأولى التي تكون فيها الظواهر الأليمة أمور عدمية، لا تقع في حيّز الوجود و الموجود من الأساس حتى تُنسب إلى الله أو إلى غير الله، لأن العدم و الفقدان لا يحتاج إلى علة و فاعل حتى نبحث عن فاعله. نعم يمكن في هذا المجال البحث عن سبب قطع أو إمساك هذا الفيض الخاص من قبل الله

---

١. سورة النحل، الآية ٩٠.

٢. سورة الأعراف، الآية ٢٨.

٣. سورة الإسراء، الآية ٣٨.

و قد يُستنتج أن أعمال الإنسان السيئة هي السبب في زوال استحقاق تلقي هذا الفيض.

و للحوادث في الصورة الثانية جهتان «الوجود» و «الشرّ»، فهي من جهة الوجود منسوبة إلى الله و من جهة الشرّ منسوبة إلى الإنسان، إذ قد تقدّم في مقدمات البحث أن الوجود مساوق للخير و الحوادث الأليمة بغضّ النظر عن العناوين العارضة عليها و التي تعدّ مصيبة للمجتمع البشري، ممكنة الوجود و كلّ ممكن للوجود ينتهي بالواسطة أو بغير واسطة إلى واجب الوجود الغني بالذات.

إذن فأصل الوجود لهذا القسم من السيئات و الشرور من عند الله كما هو الحال في الحسنات و الأحداث الممتعة؛ ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللّهِ﴾[1]، و كلّ ما كان من عند الله فهو خير و فيض و نعمة بيد أن الإنسان هو الذي يستبدل الخير بالشرّ لعدم استغلاله بشكل أمثل، فعلى سبيل المثال يتبدّل ماء المطر بسبب عدم بناء سدّ و هدايته بشكل صحيح من الرحمة الإلهية إلى نقمة سيل مدمّر، أو أن الطعام المقوّي و الشافي يتبدّل إلى عامل للضعف و المرض بسبب كثرة الأكل و الاستعمال الخاطئ.

و بعبارة أخرى فإن سنة الله سبحانه الدائمة هي منح النعم و دوام الفيض و لكن الإنسان يبدّل النعمة إلى نقمة بسوء اختياره.

---

۱. سورة النساء، الآية ۷۸.

و لابد هنا لبيان ما ذكر، البحث في مجموعتين من آيات القرآن الحكيم؛ الآيات القائلة بأن سنة الله الدائمة هي نزول النعمة و الخير و الآيات القائلة بأن تبديل النعمة إلى نقمة سيئة تتحقق إثر سوء اختيار الإنسان. و حصيلة البحث في هاتين المجموعتين من الآيات تتلخص في سورة «النساء» من أن الجانب الوجودي للحوادث الذي هو خير و نعمة من عند الله؛ ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾[١]، و جانب الشرّ و القبح فيها ناجم من سوء اختيار الإنسان و من نفسه؛ ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ﴾[٢].

دور الإنسان في تبديل النعمة إلى نقمة

واحدة من الأصول الثابتة في القرآن الكريم هي أن الله لا يسلب نعمة و لا يبدّلها إلى نقمة، إلا أن يُغيّر المتنعّمون ما في أنفسهم من أخلاق و سجايا نفسانية؛ ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[٣].

تبيّن هذه الآية قاعدة كلية و سنة إلهية مستمرة و هي أن ما كان من عند الله فهو نعمة و رحمة؛ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[٤]، و الإنسان المتنّعم مختار و بإمكانه عبر حسن استخدامه للنعمة أن يُديمها على نفسه و أن يتمتع بنعمة

---

١. سورة النساء، الآية ٧٨.

٢. سورة النساء، الآية ٧٩.

٣. سورة الأنفال، الآية ٥٣.

٤. سورة النحل، الآية ٥٣.

خاصة أخرى من باب الأجر و يمكنه بسوء اختياره أن يبدّل النعمة إلى نقمة و أن يستجلب الألم و العذاب لنفسه و يحجبها من فيض الله الخاص؛ ﴿إِنَّ اللَّـهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[١]، أي أنّ الإنسان كما أنه يستطيع بسوء اختياره تبديل النعمة إلى نقمة يمكنه بحسن اختياره استبدال القبيح بالحسن، و بما أن الحسن نعمة على كلّ حال و النعمة خير و الخير مساوق للوجود فإن الحسنات تكون «من عند الله» و «من الله» كذلك، لكن القبائح و السيئات فهي من الناحية الوجودية المتصفة بالخير و النعمة «من عند الله» و أما من ناحية قُبحها و سوئها المتصفة بالشر ليست «من الله» و لا تُنسب إليه بل هي منسوبة إلى الإنسان، و إنّ عدم نسبة الشرور إلى الله لا يتنافى مع التوحيد الأفعالي لأن جهات الشرّ و القُبح فقدان و نقص و عيب و الله سبحانه منزّه عن العيب.

و على هذا الأساس ينسب القرآن الكريم السيئة و المصيبة و الفساد في آيات كثيرة و بتعابير مختلفة إلى الإنسان؛ ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[٢]، ﴿أَ وَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾[٣]، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾[٤]، ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ﴾[٥].

يستفاد من مجموع هذه الآيات و أمثالها التي أشرنا إلى بعضها نفس ما تم التصريح به في سورة «النساء» من أن الحسنات و السيئات من جهة أصل وجودها من عند الله؛ ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ اللّٰهِ﴾[1]، و الحسنات أيضاً لاتصافها بالخير و النعمة من الله أيضاً؛ ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ﴾، و أما السيئات فلاتصافها بالشرّ و القُبح من الإنسان؛ ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ﴾[2].

عندما انتصر المسلمون في معركة بدر و فرّ عدد من الأعداء و أُسر جمع و عُفي عن آخرين، قال الله سبحانه و تعالى مخاطباً النبي الأكرمﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾[3].

فعلى الإنسان أن يصل إلى هذه البصيرة و هي أن كلّ ما يملك و إلى أي منزل يرقى فمن فيض الله، لأن قوة الاختيار و الإرادة و هداية العقل و الفطرة من الباطن و الوحي و النبوة من الخارج و سائر أسباب الترقي و التعالي كلها من الله.

فقد روي عن الإمام السجادعليه السلام أنه دعا الله سبحانه قائلاً في مقام شكر النعم الإلهية: «فكلما قلت لك الحمد وجب عليّ لذلك أن أقول لك الحمد»[4].

فلا سبيل للإنسان إلا أن يكون مظهراً و مجرى لصفات الله و أفعاله و أقواله و إلا فهو حقيقةً لا يملك من نفسه شيئاً. و إن هذه البصيرة تؤدي إلى عدم

---

١. سورة النساء، الآية ٧٨.

٢. سورة النساء، الآية ٧٩.

٣. سورة آل عمران، الآية ١٢٨.

٤. مفاتيح الجنان، مناجاة الشاكرين.

سقوط الإنسان في وادى العجب و الكبر الهائل؛ أي أن الجمع بين التكامل و التواضع يجعل الإنسان السالك الصالح مظهراً لله سبحانه: «الداني في علوّه و العالي في دنوّه»[١]، لئلا يهبط إلى ضلالة فساد المباهاة التي في غير محلها كما ورد عن الإمام السجادعليه السلام في دعائه أنه قال: «و هب لي معالي الأخلاق و اعصمني من الفخر»[٢].

نشأ انتزاع الخير و الشرّ

إن للأستاذ العلامة الطباطبائى (رحمه الله) بحث مبسوط في استناد الحسنات و السيّئات إلى الله سبحانه و عصارته:

إن الحسنة و السيئة ـ أو الحسن و القبح ـ مقتبسان من نظام التكوين. فإن كانت التركيبة الباطنية لموجود ما منسجمة و متكاملة في نظام التكوين و لا نقص فيها للوصول إلى الهدف فهو موجود جيّد و حسن، و إن حلّ به نقص من الداخل أو الخارج و فَقَدَ انسجام أجزائه و تعذّر عليه الوصول إلى هدف خلقته فهو موجود رديء و سيء.

و العدل و الظلم كذلك يردان بنفس المعنى في نظام التكوين. فإن نمت شجرة بشكل طبيعي و لم تتضرّر و أثمرت في أوانها فهي شجرة عادلة معتدلة و إن تضرّرت و قلّ ثمارها لفقدانها تعادل أجزائها الداخلية فهي شجرة ظالمة؛

---

١. الصحيفة السجادية، الدعاء ٤٧.

٢. الصحيفة السجادية، الدعاء ٢٠ (مكارم الأخلاق).

﴿كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ ءاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِنْهُ شَيْئاً﴾[1]. فعبّر في هذه الآية عمّا تُقدّمه الرياض المُشجرة من ثمر وافر في نهاية السنة بعدم الظلم.

و قد سرت العناوين المذكورة ـ الحسنة و السيئة، و الحسن و القبح، و العدل و الظلم ـ من نظام التكوين و الواقع إلى نظام التشريع و الاعتبار. فإن وافق العمل الحكم الشرعي فهو حسنة و إن خالفه فهو سيئة، و قد تم التعبير في الشريعة عن هذه العناوين بتعابير أخرى كالحلال و الحرام و الطاعة و العصيان.

و هذه المسألة جارية في النظام الاجتماعي و الأمور العرفية أيضاً، فإن انسجم عمل مع النظام القانوني الحاكم على المجتمع الذي يهدف إلى تأمين سعادة الجميع فهو حسنة و إن خالفه و لم ينسجم معه فهو سيئة.

ثم إن الحوادث الجارية في عالم الوجود قد تتلاءم مع السعادة الفردية و الاجتماعية للإنسان و تبعث على الرفاه و الصحة و الأمل فيه، فينتزع منها الناس عنوان الخير و الحسنة و قد تكون الحوادث عكس ذلك مريرة و لا تنسجم مع المتطلبات الفردية و الاجتماعية للبشر، ففي هذه الصورة يُنتزع منها عنوان الشرّ و السيئة.

النظام الأحسن

فتحصّل مما تقدّم أن الحسنة و السيئة من العناوين الإضافية و النسبية التي تُستقى من مقارنة الظواهر و الحوادث مع كمال نوع الإنسان أو سعادة أفراده،

---

١. سورة الكهف، الآية ٣٣.

فقد تكون حقيقة سيئة و شراً لجمع و حسنة و خيراً لآخرين كقصاص الجاني الذي هو سيئة للقاتل و متعلقيه و حسنة لأولياء الدم. بيد أن أصل وجود حقائق العالم مع غض النظر عن هذه المقارنة خير و حسن و لا يتصف وجود أي مخلوق بالشرّ المطلق و السيئة لأن كل موجود مخلوق لله؛ ﴿اللَّـهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] و خلق الله كلّ شيء بقدر لازم و هندسة و نظم؛ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شيء فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾[2] فوهبت هذه الهندسة و النظم لمخلوقات العالم جمالاً و حُسناً؛ ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شيء خَلَقَهُ﴾[3]، فكل شيء من حقائق العالم له حظّ من الحسن على قدر حظّه من الخلقة و الوجود و كلها تسير في نظام متناسق هادف باتجاه مقصد واحد؛ ﴿ربُّنَا الذي أَعْطَى كُلَّ شيء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[4].

فتبين من خلال هذه الرؤية القرآنية التي استخرجت من آيات عديدة أن عالم الخلق بأسره خير و جمال و حسن و مخلوقات الله بأجمعها آيات و علامات تدل على جلال و جمال خالقها و لا يوجد في نظام العالم الأحسن أي موجود باطل و شرّ و زائد.

فكما أن الجنة من آيات الله الجميلة كذلك جهنم في النظام العام جميلة و مناسبة و قد عدّ القرآن الكريم جهنم من النعم؛ ﴿هذِهِ جَهَنَّمُ التي يُكَذِّبُ بِهَا

---

١. سورة الزمر، الآية ٦٢.

٢. سورة الفرقان، الآية ٢.

٣. سورة السجدة، الآية ٧.

٤. سورة طه، الآية ٥٠.

الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءان * فَبِأَىِّ ءالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان﴾[1]، و حتى الشيطان و وساسه المؤذية ضرورية و جميلة في مجموع نظام الاختيار و التكامل لوصول الإنسان إلى المقامات الإنسانية الرفيعة، و إن كانت المقارنة بين النار و الجنة و بين الشيطان و المَلَك تُسبّب اعتبار القبح في أحدهما و الحسن في الآخر.

نسبيّة الشرّ

و أما كون بعض الموجودات شرّ كالنار و الشيطان فهو أمر نسبي و إضافي؛ أي أن شرّها ناجم من سوء اختيار الظالم الذي أوقع بنفسه في النار باتّباعه الشيطان و أما بالنسبة للمؤمن الصالح الذي نال عالي الدرجات في الجنة عبر اختياره طريق الأنبياء عليهم السلام و الصمود أمام وساوس الشيطان، فهي ليست بشرّ له بل تُعدّ خيراً.

و كذا الحيوانات المفترسة و الثعبان و العقرب فإن كلّ واحد منها في أصل وجوده خير و نسبة إلى الإنسان الذي يوقع الضرر فيه فهو شرّ و معنى ذلك أن شرّها نسبي.

و كذلك الحال بالنسبة للحوادث المؤلمة كالزلزال و السيل التي تقع إثر علل و أسباب طبيعية فهي شرّ لمن ابتعد عن تعاليم الأنبياء عليهم السلام النافعة و الناهضة عن عقل و تدبير و إلا فالمجتمع المتدين و المتحضر بمعناه الحقيقي قادر على أن

---

١. سورة الرحمن، الآية ٤٣-٤٥.

يستبدل السيل المدمّر بقوة مفيدة و مولّدة للطاقة و ألا يعيش في مواضع صدع الأراضي المعرضة للزلازل أو أن يقوم لمجابهة الزلزال ببناء بيوت لا تُهدّم.

و بناء على هذا فإن كل المخلوقات الإلهية مع غض النظر عن مقارنتها و ملاحظتها مع سائر الأشخاص و الأشياء خير و لا يوجد موجود في حدّ ذاته شرّ محض، و إن عُدّت بعض الموجودات من خلال مقارنتها مع الإنسان شرّ لبعض الأشخاص فهو ناجم من سوء اختيارهم و إلا فذلك الموجود الضارّ كالثعبان خير و جميل في حدّ ذاته.

عدمية الشرّ

هناك بيان آخر للشرور و هو أن مفهوم الشرّ منتزع من «عدم التحقّق» و «زوال الفعلية»، فإن لم يتحقق شيء بتاتاً أو كان مستعداً لتلقي كمال و لم يتحقق ذلك الكمال، سيكون عدم تحقق أصل الوجود (ليس التامة) أو فقدان كمال الوجود (ليس الناقصة) هو المنشأ لانتزاع مفهوم الشرّ، و كذلك الحال فيما لو ارتفع أصل الوجود أو كماله عن شيء فإن زوال فعلية الوجود أو كماله هو المنشأ لانتزاع معنى الشرّ.

و إن ملاحظة مصاديق الشرّ الخارجية أيضاً يؤيّد هذا التحليل المفهومي، لأن الشرّ لا يكون له مصداق إلا في حالة فقدان أصل الوجود ـ معنى «ليس» التامة ـ أو فقدان كماله ـ معنى «ليس» الناقصة ـ و أما إذا تحقق أصل الوجود و كماله لشيء فلا يبقى للشرّ مصداق.

و على هذا الأساس قالوا: الشرّ معدوم بالذات و موجود بالعرض، و أيضاً: الشرّ معلول بالعرض لا بالذات. و الحاصل أن الشرّ لا يحتاج إلى مبدأ فاعلي بالذات و ليس له غاية بالذات.

فلا يبقى مجال لهذا السؤال و هو أن مبدأ الشرّ الفاعلي هل هو الله أم غير الله، و لا يمكن القول أنه لو كان الفاعل للشرّ هو الله، فهذا لا ينسجم مع حكمته و عدله و مع النظام الإلهي الأحسن و لو كان غير الله فهو يتنافى مع التوحيد الأفعالي و عموم خالقية الله، إذ ثبت أن الشرّ معدوم بالذات و حقيقته فقدان الوجود أو فقدان الكمال.

العالم العاري من الشرّ

قد يطرح هذا السؤال نفسه و هو أنّ الشرّ و إن كان معدوماً بالذات و لكن لماذا تتم تركيبة العالم بصورة يكون متضمناً لأشياء فاقدة للوجود أو الكمال حتى تكون سبباً لظهور الشرّ و انتزاع مفهومه؟ و لماذا لم يُخلق العالم بصورة تكون فيه جميع الموجودات كاملة و لا يصاب أي مخلوق بالضرر في وجوده و كماله لتقتلع جذور الشرّ من العالم و لا يقع أي موجود مصداقاً لمعنى الشرّ بالعرض؟

و الجواب أنه قد تبيّن في فنّ الحكمة أن كلّ موجود وفق الاحتمال الأول لا يخرج عن أحد خمسة أقسام لا تقلّ و لا تزيد، لأن هذا الحصر عقلي و الحصر العقلي يبتني على نقيضين يستحيل ارتفاعهما كاجتماعهما، و الأسلوب المنطقي لبيان هذه الأقسام الخمسة هو أن الموجود إما خير محض أم لا، و في

الحالة الثانية إما شرّ محض أم لا و في حالة كونه لا خير محض و لا شرّ محض إما خيره غالب أم لا و في الحالة الثانية إما خيره و شرّه متساويان أم لا.

و النتيجة المنطقية لهذه القضايا المنفصلة الحقيقية هي أن كلّ موجود إما خير محض أم شرّ محض و إما خيره غالب و شرّه مغلوب أم شرّه غالب و خيره مغلوب و إما خيره و شرّه متساويان.

و لا يمكن أن يتحقق إلا قسمين من بين هذه الأقسام الخمسة لأن القسم الثاني و هو الشرّ المحض محال ذاتاً، إذ يستحيل أن يكون شيء شراً لنفسه و لسائر الأمور و حتى لعلته و معلوله و لا ينسجم معها، لأن وجود الشيء لا هو عين عدمه و لا مقتضٍ لعدمه.

و تحقق القسمين الأخيرين ممتنع أيضاً لمنافاته مع حكمة الله سبحانه المنزّه فعله عن اللغو و العبث، لأن تحقق موجود يكون شرّه غالباً على خيره ترجيح المرجوح على الراجح و تحقق موجود يكون الخير و الشرّ فيه متساويان ترجيح بلا مرجّح و كلاهما باطل.

و بناء على هذا التحليل لا يتحقق من بين هذه الأقسام الخمسة إلا قسمين: أحدهما الخير المحض و الآخر الغالب خيره.

و لكي يتضح أن النظام الموجود هو النظام الأحسن رغم اختلاطه بالشرّ و لا يمكن لعالم الإمكان أن يكون خيراً محضاً لابد من التعرض إلى أمرين آخرين.

أحدهما أنه لماذا لا يستطيع الموجود الغالب خيره أن يكون كالقسم الأول خيراً محضاً و كذا لا يمكن لكلّ الموجودات أن تتصف بالخير المحض و أن تخلو من الشرّ؟

و الآخر أنه لو ثبت عدم إمكان اتصاف كلّ موجودات عالم الخلق بالخير المحض، فما هي الضرورة التي تقتضي تحقق موجود متصف بالشرّ؟ و لم يكن بالمقدور أن يكون هذا القسم أيضاً كالأقسام الثلاث الأخر معدوماً ليرتفع الشرّ عن العالم؟

جواب السؤال الأول هو أن الموجود لو كانً مجرّداً محضاً فهو خير محض لنزاهته عن المادة و صيانته عن الحركة و بالتالي لا يتضرر و لا يُلحق الضرر بالآخرين لأن المجرّد مصون من الطوارق الداخلية كالموت و المرض و مأمون من التزاحم و التعارض الخارجي مع باقي الموجودات؛ (لا تزاحم في المجرّدات).

و أما لو كان الموجود مادياً و سعة وجوده و قدرته لا تجتاز دائرة الحركة من القوة إلى الفعل فإن التزاحم و التصادم و بالتالي الشرّ القليل له ضروريّ و حتمي.

و جواب السؤال الثاني القائل بأنه ما هي الضرورة لتحقق موجود مادي ملازم للشرّ، هو أنه لو تم بسبب الابتعاد عن الشرّ القليل للوجود المادي الإعراض عن خيره الكثير و عدم تحقق مثل هذا الموجود لاستلزم ترجيح المرجوح على الراجح و هو بنفسه شرّ غالب، لأن تفويت الخير الكثير للصون من الشرّ القليل يستلزم مزيداً من الشرّ.

و قد أضاف شيخ الإشراق (رحمه الله) هنا نقطة أخرى و هي أنه لو انزاح التضادّ و التزاحم عن عالم الوجود لما استدام الفيض الإلهي؛ «لولا التضادّ ما صحّ دوام الفيض على التجدّد المستمر»[1]، لأن التزاحم و الاصطكاك سبب لنزول

---

١. مطارحات، ص ٤٦٦-٤٦٧.

فيض جديد. إذ لو لم تتّخذ الموجودات المادية صورة جديدة لنفسها إثر التناقض و التضادّ لما تحقق التحوّل و التكامل و بالتالي لما تجدّد الفيض الإلهي و هو مخالف مع دوام فيض الله؛ «دائم الفضل على البريّة»[١].

و إن سبب حدوث التصادم و الوقائع الأليمة في حياة الإنسان الفردية و الاجتماعية تارة يكون ناجماً من سوء اختيار الإنسان و أخرى من حركة المجتمع السيئة و أحياناً لابتلاء الفرد أو المجتمع و امتحانهم أو لأسباب أخرى مخفية على البشر. فإن الله سبحانه قطعاً لا يريد أن تصيب الموجودات بأسرها و منها الإنسان أدنى سيئة و ظلم؛ ﴿وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾[٢].

علاقة الإنسان مع الطبيعة و علاقتهما مع الله

بما إن للإنسان علاقة خاصة مع الطبيعة و لمجموع الإنسان و الطبيعة أيضاً علاقة مع الله نبدأ أولاً بالبحث في علاقة الإنسان مع الطبيعة ثم نتعرض لعلاقة الإنسان و موجودات عالم الإمكان مع الله.

أ- علاقة الإنسان مع الطبيعة

علاقة الإنسان مع الطبيعة علاقة تسخيرية لا علاقة «قهر و قسر». و لتوضيح هذه المسألة نقوم في بادئ الأمر بتعريف القسر و القهر من جانب و التسخير من جانب آخر و نُبيّن الفرق بينهما.

---

١. مفاتيح الجنان، أعمال ليلة الجمعة.

٢. سورة آل عمران، الآية ١٠٨.

القسر و القهر هو الضغط و السرعة المفروضة من الخارج و «الفاعل بالقسر» هو الذي يصدر عنه الفعل بضغط و فرض من قبل مبدأ خارجي. و بعبارة أخرى الفاعل الذي يصدر فعله من دون علم و اختيار و على خلاف مقتضى طبيعته فهو فاعل بالقسر، كحركة الحجر إلى الأعلى بالمقلاع حيث تصدر منه بالضغط و الفرض بواسطة مبدأ خارجي و من دون علمه و اختياره و على خلاف مقتضى طبيعته.

و التسخير في موطن يكون فيه الفعل متلائماً مع طبع الفاعل و قد خُلق الفاعل مفروضاً للقيام بهذا العمل و العامل الخارجي يطلب منه منطقياً ما تقتضيه طبيعته. و يُطلق «الفاعل بالتسخير» على الفاعل الذي يعمل تحت تسخير مبدأ آخر حيث يقوم هذا المبدأ بهداية الفاعل المُسخّر إلى ما يمكن الانتفاع به على النحو الأمثل، كعمل المزارع الذي يسوق الماء الجاري طبيعياً من الجبل إلى الأرض إلى حيث الأشجار لتستقي منه، و في الحقيقة فإن المزارع قد سّخر ماء المزرعة، و أما إن تصاعد الماء على نحو فوّارة و بالضغط إلى الأعلى يكون فعله «بالقسر» لأن الماء المفروض عليه يتّجه بالضغط إلى الأعلى على خلاف طبيعته.

و إن الله تقدّست أسماؤه يعتبر علاقة الإنسان مع عالم الخلق علاقة تسخيرية و يقول بأن لكل موجود صفة و أثر خاص به فلو عرف الإنسان هذه الصفة و نظّمها و قادها بشكل صحيح فقد سخّر ذلك الموجود، علماً بأن المُسخّر بالذات و الأصيل هو الله الذي جعل عالم الطبيعة طيّعاً و ذلولاً للمجتمع البشري و سخّره للإنسان: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّماوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[1].

---

١. سورة لقمان، الآية ٢٠.

و إن موجودات عالم الخلق كما أنها تحت تسخير الله سبحانه فهي مُسلمة و ساجدة و مُسبّحة له أيضاً: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[١]، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[٢]، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[٣]، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[٤].

فإن الله الذي خلق الإنسان قد خلق السماء و الأرض كذلك و أمر مجموعة نظام الكون بطاعة الإمام و الإنسان الكامل، فمن كان سالكاً سبيل الله و عبداً صالحاً له و أميناً عرف أمانته و حملها و لم ينقض عهده فيها يكون عالم الخلق تحت تسخيره، و أما إذا خان الأمانة الإلهية فإن نظام الكون لا يخضع لطاعته بل يكون أفضل منه قدراً و منزلة. و من هنا فإن انحرف الإنسان عن الطريق سيقف نفس هذا العالم بوجهه معادياً له و يسوقه إلى هاوية الموت، و نفس هذا الماء قد يبتلع الإنسان المجرم كما حدّثنا الله سبحانه عن قضية فرعون قائلاً: ﴿فَغَشِيَهُم مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[٥]، ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾[٦]، و قد يكون هذا الماء أيضاً تحت تسخير الإنسان العاقل و سبباً لتربية الأشياء الحية: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[٧]، و تارة تتغلب الرياح على قوم و تبيدهم

---

١. سورة آل عمران، الآية ٨٣

٢. سورة الجمعة، الآية ١.

٣. سورة النحل، الآية ٤٩.

٤. سورة فصّلت، الآية ١١.

٥. سورة طه، الآية ٧٨.

٦. سورة الذاريات، الآية ٤٠.

٧. سورة الأنبياء، الآية ٣٠.

كما قال الله سبحانه: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾[1]، و تارة يقضي عليهم بطرق أخرى.

و بناء على هذا إذا اكتسب الإنسان قيمته الوجودية و حافظ عليها و كان أمين الله تكون علاقته مع الطبيعة علاقة تسخيرية، و يكون قادراً على إخضاع السماء فتعمل الغيوم و الرياح و الشمس و القمر و الفلك من أجل أن يحصل الإنسان على لقمة العيش و لا يصرفها في غير محلها، و أما إذا خان الأمانة فستجابهه جميع ظواهر نظام الوجود و يكون لها ردود فعل أمامه، لأنها بأسرها خاضعة لإرادة الله لا غير و تعمل بأمره و بطلبه تحفظ حرمة المتقي و تنتقم من المجرم.

ب- علاقة الإنسان و الطبيعة مع الله

إن الإنسان و الطبيعة بل و كلّ موجودات عالم الإمكان متعلقة و مرتبطة بالله و مملوكة له و هناك ثمة أدلة عقلية و نقلية كثيرة في هذا المجال.

و بالاستناد إلى البراهين العقلية و الفلسفية المتقنة لا يتأتى للموجودات الممكنة لكون وجودها «ربط» أن يكون لها ظهور و بروز في أي آن من الآنات و في أي شأن من شؤون عيشها و لا يمكنها مواصلة حياتها من دون فيض الله المطلق. إذ لا يمتلكون من أنفسهم أية استقلالية بل مرتبطون بالله ارتباطاً محضاً. و إن هذا الربط و التعلق الناجم من علية الله و خلقته لهم ينتهي

---

١. سورة الحاقة، الآية ٧.

إلى مالكية الله التامة لأن تعلق المخلوقات المحض بذات الله القدسية يؤدي إلى أن ينفرد في تدبير العالم و تقديره و هذا هو معنى المالكية التامة.

و من جانب آخر فإن الأدلة النقلية و القرآنية أيضاً تأكد على هذه المسألة على نحو العموم و الخصوص، فعلى سبيل المثال يقول الله سبحانه فيما يخص التأكيدات العامة: ﴿وَلِلّهِ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شيء قَدِيرٌ﴾[1] و ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾[2].

و يقول حول الإنسان فيما يتعلق بالتأكيدات الخاصة بأنا وهبنا له نعمة الأعضاء و الجوارح: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ﴾[3]، و يستطيع الإنسان أن يستفيد منها لحياته. و يقول أيضاً بأنا أعطيناه الأعضاء للانتفاع بها فصار إثر ذلك يتمتع بالسمع و البصر: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[4]، و لكن يقول بعد ذلك: كن حذراً و لا يخاتلك هذا التوهمّ بأنك المالك الحقيقي لأعضائك لما تتمتع به من إمكانية استخدامها و الانتفاع بها على النحو المطلوب.

فإن زعم الاستقلال تصوّر فارغ و سطحي ليس إلا. و إن الإنسان أمين الله لا غير و أعضاء بدنه أمانة بيده. فقد قال الله في هذا الشأن: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾[5]، هذه الآية بالنظر إلى أنّ «أم» منقطعة تدلّ بالصراحة على

---

١. سورة آل عمران، الآية ١٨٩.

٢. سورة البقرة، الآية ١١٦.

٣. سورة البلد، الآية ٨-٩.

٤. سورة الإنسان، الآية ٢.

٥. سورة يونس، الآية ٣١.

مالكية الله سبحانه لسمع الإنسان و بصره. و من المسلّم به أن الله إن كان مالكاً للسمع و البصر التـي هي من منافع الأعضاء فهو مالك للسامعة و الباصرة أيضاً بل إن باقي الأعضاء و كل وجود الإنسان ملك لله و متعلق به.

و قد تمّ التأكيد فـي آيات أخرى على أن المذنب يظلم نفسه فـي الحقيقـة؛ ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1]، و قد نُهي فـي آيات أخـرى عن ظلم النفس؛ ﴿فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾[2].

و من الواضح أن هوية الإنسان و نفسه لو كانت من ملكه فلا معنى حينئـذ لظلم النفس، لأن عنوانـي الظالم و المظلوم غير متّحدان كالعالم و المعلوم بل لابد أن تختلف مصاديقهما.

و الحاصل أن الإنسان لو كان مالكاً لوجوده لما صدق على التـصرف فـي شؤون ذاته و فرض أي رذيلة على نفسه و إيداع أي ملكـة قبيحـة كـالكبر و العجب و الحسد و الرياء و أمثالها فـي هويتـه عنـوان الظلـم. فـالظلم هـو أن يتصرّف الإنسان فـي حق غيره من تلقاء نفسه و يتعدى على حقوق الآخـرين و أموالهم من دون إذنهم، لا أن يتصرّف فـي ماله و حقه.

فاتضح أن الهوية الموضوعة تحت تصرّف البشر متعلقة بالله و ملك له و أمانة إلهية و الإنسان أمين الله. و لذا يصدق عنوان الظلم على التصرّف السيء فيها.

ضرورة وجود الإذن الإلهي للتصرّف فـي المخلوقات

لو كانت هوية المرء و نفسه بهذه الصورة و كان الإنسان لا يملك ما هو تحت اختياره بالكامل و كان لا يؤدي بشأن الأعضاء التي يمكنه التصرف فيها بسهولة و يُعبّؤها لاستخدامه خلال لحظة إلا دور الإنسان الأمين و كان لا يملك ما بين يديه، فإن حاله بالنسبة لسائر الموجودات و الأشياء معلوم من باب أولى و لا يمكنه بتاتاً شعور الملكية بالنسبة لها و اعتبارها من ملكه. و أن يعمد لمزيد الانتفاع بها إلى تلويث الطبيعة و يتصرف فـي البيئة بما يضرّها.

هناك قاعدة عقلية يؤيّدها العرف الدارج بين العقلاء و هي أنّ على من أراد التصرف فـي ملك الآخرين أن يستأذن المالك حتى لو كان أمانة فـي يده فلابد أن يستأذن المستأمن و إلا فليس له حقّ التصرّف فـي ماله.

فلو ثبت أن الإنسان أمين هويته و مالكها الحقيقي هو الله، لابد أن تقترن كل تصرفاته و علاقته بالنفس و أبعاض وجوده و الاستفادة من شؤونه العلمية و العملية برضا الله الذي هو المالك المطلق للوجود.

و تجري هذه المسألة وفق قاعدة الأولوية على سائر الموجودات أيضاً من الجبال و البحار و الغابات و المراعي و الثروات الطبيعية و غيرها و الإنسان بحاجة إلى إذن الله لإيجاد الارتباط معها أيضاً، ففي باقي الأمور على خلاف هوية الإنسان لا يوجد حتى توهم الملكية أيضاً و لا سبيل للزعم الباطل من استقلالية التصرف فيها.

و من هنا لابد للإنسان من أجل إيجاد الارتباط مع نفسه و الآخرين و باقي الموجودات و الأشياء أن يأخذ مملوكيته و سائر موجودات العالم نسبة إلى الله سبحانه بنظر الاعتبار و أن يسعى لاستجازة المالك المطلق لعالم الوجود. و إن استجازة الله مرهونة باتباع الأوامر و النواهي التي جاء بها أنبياء الله و رسله في قالب «الدين». و لذا فعلى من أراد اكتساب إذن الله أن يخضع لتعاليم الشرع و أن يجعلها نبراساً لأعماله.

وظيفة الإنسان إزاء النعم الإلهية

واحدة من مباني حقوق الإنسان في الفكر الإسلامي، علاقة الإنسان الخاصة بالعالم و وظيفته إزاء النعم الإلهية في هذا العالم. و المحور الرئيسي لهذا الفكر هو أن لعمل الإنسان الحسن أو السيء دور مهم في ظهور أو نقيصة نعم العالم. فإن بإمكان الإنسان في أي إقليم و منطقة و بأي خصوصية جغرافية أن يبلور العالم من خلال عمله و أن يعيّن دائرة نعم الوجود. و بالطبع لا ينبغي إغفال هذه المسألة و هي أن الله قد يغمر المجرمين بنعمه استدراجاً و ذلك من باب ابتلاء الناس و امتحانهم: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِن كُلِّ مَكَان﴾[1].

يظهر من هذا التمثيل القرآني أن الله قد يغمر قوماً بكلتا النعمتين الرئيسيتين و هما الاقتصاد السالم و الأمن ليبلوهم أنهم هل يستفيدون من هذه

---

١. سورة النحل، الآية ١١٢.

النعم للوصول إلى السعادة أم لا: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[١].

و نجد اليوم الكثير من بلدان العالم كأغلب الدول الأوروبية يسودهم هذا الوضع و لو لم يستيقظوا و لم يشكروا نعم الله لتورطوا بمثل هذا المصير.

و هناك آيات أخرى تشير إلى هذه الفكرة أيضاً فيحدّثنا القرآن مثلاً عن أرض الحجاز و يقول بأن هذه المنطقة و إن لم تتمتع بموقع جغرافي مناسب و حالة اجتماعية مستقرة و لكنها و لوجود الكعبة فيها ـ و هي المركز المهم للدين الإلهي ـ حظيت بكلتا نعمتي الاقتصاد السالم و الأمن: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ * الذي أَطْعَمَهُم مِن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِنْ خَوْفٍ﴾[٢].

فيتضح بالنظر إلى هذه المسألة أن بيان وظائف الإنسان الحقوقية بحاجة إلى التعرف على علاقة الإنسان مع العالم و وظيفته إزاء نعم الوجود. و يتسنى التعرف على هذه العلاقة و الوظيفة من خلال رؤيتين متمايزتين بالكامل.

فالرؤية الأولى التي علمها القرآن الكريم للبشر هي أن السبب لجعل العالم طيّعاً للإنسان و مُسخّراً له وصوله إلى الصلاح و الفلاح و هما عبارة عن تزكية النفس و تطهيرها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾[٣].

---

١. سورة النحل، الآية ١١٢.

٢. سورة قريش، الآية ١-٤.

٣. سورة الأعلى، الآية ١٤.

و الرؤية الثانية كذلك من أن السبب لجعل العالم طيعاً للإنسان وصوله إلى الفلاح، و لكن الفلاح هنا هو عبارة عن منطق القوة و الاستعلاء: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾[1].

و من الواضح أن علاقة الإنسان بنعم العالم تتحدّد على سبيل التناقض بالاستناد إلى أي واحد من هاتين الرؤيتين. فقد قام القرآن الكريم وفق تعريفه للصلاح و الفلاح بالدلالة على الهدف و تبيان الأصول و المباني و المسير و عبّر عن هذا الإرشاد بـ«الربوبية». و من أشمل الآيات في هذا المجال القصيرة في عباراتها العالية في مضامينها هي: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

و قد جعل هذا الربّ الإنسان خليفة له ليستفيد من أي نعمة في الوجود في سبيل صلاحه و لذا سخّر له العالم بأسره. و من هنا فحريّ بالإنسان حين استثمار النعم أن يتذكر الحقيقة و ألا ينسى بعد الاعتراف بعجزه حمد ربّه. فقد علّم القرآن الإنسان على سبيل المثال حين ركوب المركب أن يقول: ﴿سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هَذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[3].

فتشاهدون في هذا الكلام أن هناك اعتراف بضعف البشر و عجزهم و كذا تذكيرهم باليوم الذي يساقون على المركب (التابوت) إلى حيث الديار الموحشة.

---

١. سورة طه، الآية ٦٤.

٢. سورة الجاثية، الآية ٣٦.

٣. سورة الزخرف، الآية ١٣-١٤.

فإن تعليم القرآن للبشر من أنّ تطويع هذا المركب مسبوق بإرادة الله لا يقتصر على المركب بل يشمل جميع المصاديق و ذلك لـ «عموم التعليل»، فعلى المزارع أيضاً معرفة أن تسخير المطر و التراب و الشمس له بأمر من الله. و على الناس جميعاً الوقوف على هذه الحقيقة و الاعتراف بها لأن كلّ هذه العمليات إنما يتم إنجازها لئلا ينسى الإنسان أنه عائد إلى ربّه. و إن كان لابدّ من ذلك فعلى الإنسان أن يعدّ زاد الطريق و خير الزاد هو التقوى؛ ﴿تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[1].

و أما بالاستناد إلى الرؤية الثانية فلا يدور الكلام عن ربوبية الله الشاملة. و إن الإنسان يرى بأن العالم كله طيّع أمامه و لكنه لا يعرف لماذا و كيف! و لذلك ينسى تسبيح الله و الاعتراف بعجزه و تذكّر الرجوع إلى الله، و بالتالي ينسى البحث عن الزاد و اكتساب التقوى أيضاً.

و من نتائج الرؤية القرآنية هي أن الإنسان لا يمكنه حين استثمار العالم و نعمه القيام بما لا يلائم الصلح و السِلم. و قد أشار القرآن إلى بعض الصالحين الذين لم تختلج أذهانهم فكرة الهجوم و التخريب قطّ رغم ما كانوا يتمتعون به من مواهب كثيرة و عظيمة كـ «سليمان» و «داود»عليهما السلام و «ذو القرنين». فداودعليه السلام مثلاً كان يمتلك قوة كبيرة لما كان يتحلى به من السيطرة على الحديد و من شخصية ثورية و من قيادة الشعب و لكنه لم يستخدم هذه القوة في

١. سورة البقرة، الآية ١٩٧.

طريق الهجوم و التخريب و صناعة الأسلحة الهجومية بل استخدمها في صناعة الدروع: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾[1].

فاستعمل هذه القوة الفريدة الإلهية في طريق الدفاع لا في مسير الهجوم. و كان قائد ثورة منتصرة و خرج من الحرب مع «طالوت» منتصراً، و لكنه لم يسلك سبيل الهجوم و التخريب. و كان «ذو القرنين» أيضاً على هذا المنوال، حيث حدّثنا القرآن الكريم بأنه قد توافرت له جميع إمكانيات عصره بإفاضة الله؛ ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شيء سَبَباً﴾[2].

و لكنه رغم ذلك قَبِل اقتراح صناعة السدّ لمواجهة «يأجوج» و «مأجوج» المُفسدَين و لم ينتهج نهج التخريب و الهجوم. و بعد الانتهاء من صناعة السدّ أيضاً لم يغفل عن قدرة الله و إرادته و لم يسلك سبيل نكران الجميل بل قال: ﴿هذَا رَحْمَةٌ مِن رَبِّى﴾[3].

فعلّم القرآن البشر أن يختار الطريق الصحيح للاستفادة من نعم الوجود و أن يبحث في تحقيقاته و دراساته عن الإصلاح و النجاة كما لابدّ أن يكون هدفنا من تصنيع السلاح هو الدفاع و إحلال الأمن أيضاً.

ثم إن التوجه إلى هذه الرؤية القرآنية له آثار قيمة في تربية الناس أيضاً. فعلى أساس الرؤية المادية مثلاً نجد إمكانية الانتفاع بوسائل اللهو و التسلية

---

١. سورة الأنبياء، الآية ١-٤.

٢. سورة الكهف، الآية ٨٤.

٣. سورة الكهف، الآية ٩٨.

فـي تطور يتناسب و تقدّم الإمكانيات الصناعية. فقد صـنع البـشر اليـوم لكـل طبقة من أفراد المجتمع ألعوبة و تجد لكلّ مـن الـصغار و الأطفـال و الناشـئين و الشباب و الكبار و الشيوخ وسائل للتسلية و من هنا فقد أصـبح العـالم عالمـاً يسوده اللهو و اللعب. و لكن بالاستناد إلى الرؤية القرآنية حول علاقة الإنـسان بالعالم فإن المرء بعد مرحلة النشوء يضع خطاه فـي عالم البحث و طلب الحـق و يجتاز حدود اللهو و اللعب.

ففي رواية سُئل الإمام «الصادق»عليه‌السلام عن صاحب هذا الأمـر، فقـال: «إنّ صاحب هذا الأمر لا يلهو و لا يلعب» و أقبل أبو الحسن «موسى»عليه‌السلام و معـه عناق مكية و هو يقول لها: «اسجدي لربّك» فأخذه أبو عبد الله‌عليه‌السلام و ضمّه إليه و قال: «بأبـي و أمي من لا يلهو و لا يلعب»[1].

إذن فكيفية الرؤية إلى علاقة الإنسان بالعالم يعدّ أساساً مهماً لتعيين حقوقـه و تكاليفه. و لابد فـي هذا الخضمّ من التوجّه إلى الفـارق الكـبير بـين الرؤيـة القرآنية و الرؤية المادية.

الترابط بين العمل و العامل

لكل عمل صلة تكوينية و ضرورية مع عامله و لذا فإن بينهما ترابط مباشر متواصل و من هنا فلا يمكن ألا يرى الإنسان أثر عمله و جزاءه كمـا يـستحيل أن يرى الإنسان أثر عمل لم يفعله.

---

١. الكافـي، ج ١، ص ٣١١.

و إن لكل عمل على أساس البرهان العقلي نية و حركة و النية مختصة بروح العامل و الحركة ببدنه و لذا لا تكون للعمل صلة تكوينية إلا مع عامله لا مع الغير و هي صلة لا تنقطع.

و قد صادق البرهان النقلي (الآيات و الروايات) على هذا الأصل العقلي العام و هو أن من أحسن فلنفسه و من أساء فلها أيضاً: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1].

و إن «اللام» في «لأنفسكم» ليست لام المنفعة حتى تكون «اللام» في «فلها» لام المشاكلة و موضوعة موضع «على»، بل «اللام» تفيد الارتباط و الاختصاص، بمعنى أنّ العمل الحسن للمحسن مختص به فقط و العمل السيء للمسيء مرتبط به لا بالغير لأن الإحسان مختص بالمحسن و الإساءة بالمسيء[2].

و قد أشار القرآن الكريم إلى هذه المسألة على نحو أصلين كليين قد وردا في كتب الأنبياء السابقين. فعلى أساس الأصل الأول المتعلق بالسيئات لا يحمل امرؤ على عاتقه وزر غيره و إنما يحمل وزره على ظهره كما و لا يستطيع وضعه على كاهل الآخرين أيضاً: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الذي وَفَّى * أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[3]، لأن الوزر لا يترك صاحبه بل هو مرهون بوزره و عمله على الدوام[4].

١. سورة الإسراء، الآية ٧.

٢. مجمع البيان، ج ٥-٦، ص ٦١٥.

٣. سورة النجم، الآية ٣٦-٣٨. «الوازرة» هي النفس التي تحمل العبء، كما يُعبّر عمن يحمل عبء الحكومة الثقيل بـ «الوزير».

٤. المفردات، ص ٨٦٧-٨٦٨، «وزر».

و على أساس الأصل الثاني المرتبط بالحسنات، لا نصيب للإنسان إلا سعيه: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى﴾[١]، و لا يطلب الله أكثر من ذلك و لكنه سبحانه بفضله يجازيه بأكثر من عمله و إن كان جزاؤه بالنسبة للسيئات جزاء يوافق الأعمال: ﴿جزاء وفاقاً﴾[٢]، بيد أن الحديث في الأعمال الصالحة عن الجزاء الأوفى: ﴿ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾[٣]، نظير ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾[٤]، ﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾[٥]، إذن فالحسنات و السيئات تنضوي تحت شعاع عمل الإنسان و لها صلة تكوينية مع العامل كما روي عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: «من سنّ سنة حسنة فله أجرها و أجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيء»[٦].

العامل مرهون بالعمل

كلّ عمل قبل تحققه تحت تصرّف العامل و بعده على نحوين: إن كان حسنة فهو تحت تصرفه أيضاً بحيث أنه لا يحدّ من حريته، و إن كان سيئة يأخذ العامل رهينة له لأن الذنب تضييع حقّ الله أو الناس فيكون فاعله حينئذ مديناً و على المدين أن يدفع رهناً. و الرهن في المسائل الاعتبارية للدائن يمكن أن يكون

١. سورة النجم، الآية ٣٩-٤٠.
٢. سورة النبأ، الآية ٢٦.
٣. سورة النجم، الآية ٤١.
٤. سورة القصص، الآية ٥٤.
٥. سورة الحديد، الآية ٢٨.
٦. بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ٢٣.

سجّاداً و عقاراً، و أما في الأمور التكوينية و الحقيقية كالذنب فهو نفس الإنسان و لا يستطيع فكّها من سلاسل الرهن إلا بالاستغفار و أداء الحق كما ورد عن الرسول الأكرم ﷺ أنه قال: «أيها الناس! إن أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكّوها باستغفاركم»[1].

و قال الله سبحانه في هذا المجال: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[2]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾[3]. ظاهر الآيتين الإطلاق، أي أن الإنسان مرهون بأعماله الحسنة و السيئة، و لكن الرهن بالاستناد إلى القرينة الداخلية و الخارجية مختص بالمسيئين لا المتقين. القرينة الأولى خصوصية المحمول التي تدلّ على أن الموضوع مقيّد لا مطلق كما أن ظاهر العبارة العرفية «كلّ من قام بفعل فاعتقلوه» مطلقة و لكن المراد بقرينة المحمول (الاعتقال) هو خصوص المسيء و العمل السيء لا كلّ إنسان و كلّ فعل. و القرينة الثانية قرينة ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ المتصلة، فلو لم تكن نفوس أصحاب اليمين رهينة لا تكون نفوس المقربين مرهونة على اليقين، كما أن عبارة ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ مُصدّرة بآية تدلّ على التأثير الإيجابي للحسنات. و السرّ في أن «أصحاب المشئمة» مرهونون بأعمالهم السيئة و أصحاب الميمنة و المقربون متحررون من أغلال أعمالهم هو أن «أصحاب المشئمة» متصفون بالشؤم و سوء

١. عيون أخبار الرضا (عليه السلام)، ج ١، ص ٢٩٦؛ بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٣٥٧.

٢. سورة الطور، الآية ٢١.

٣. سورة المدثّر، الآية ٣٨-٣٩.

العمل و العمل السيء و المشؤوم دَين و صاحبه مدين و على كل مدين دفع رهن و الرهن في المعصية نفس العاصي حيث لا يستطيع التحرر منه إلا بالاستغفار، و أما «أصحاب الميمنة» فإن عملهم متصف دوماً بـ«اليُمن» و البركة و هي تستجلب الحرية.

تأثير الأعمال على الآخرين

إن لأعمال الإنسان آثار و نتائج حسنة و سيئة تترك أثرها تارة على آباء العامل أو أبنائه و أخرى على المجتمع البشري أعم من الجيرة و غيرهم لأن الله بفضله يغمر الآخرين برحمته بسبب عمل المحسن كما أن عكسه محتمل أيضاً. و ذلك بالنظر إلى هذا الأصل العام و هو أن خلف الوعد قبيح لا خلف الوعيد.

و قد قال الله سبحانه حول تأثير السيئات التي دائرتها أضيق بقليل: ﴿**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً**﴾[1].

و مثال تأثير الحسنات مشهود في قصة الخضر و موسى عليهما السلام حيث قال الخضر عليه السلام للنبي موسى عليه السلام في تأويل أعماله: ﴿**وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَبِّك**﴾[2]، و المراد من الأب هو الجدّ

---

١. سورة النساء، الآية ٩.

٢. سورة الكهف، الآية ٨٢

السبعون على ما فـي بعض الروايات[١]، إذن فالله لا ينسى العمل الصالح للإنسان و يوصل ثوابه إلى الأجيال اللاحقة لأن العمل حيّ.

و المثال الثانـي الآية التالية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـانٍ أَلْحَقْنَـا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِم مِن شيء كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِـينٌ﴾[٢]، أي أن المؤمنين إن اتبعتهم ذريتهم فـي إيمانهم ـ و لكن لم يصلوا إلى درجتهم فـي الإيمان ـ فإن الله سبحانه سيلحقهم بآبائهم فـي الجنة مـن دون أن يـنقص مـن أعمال الآباء شيئاً. فلو كانت درجتهم الإيمانية كدرجة آبائهم لجازاهم الله علـى حسب أعمالهم و لا حاجة عندئذ للإلحاق، بيد أن مسألة الإلحاق تدلّ على أنهم أدنى مرتبة من آبائهم فيفيض الله عليهم بفضله و ببركـة الآبـاء. كمـا أن عـدم نقصان شيء من أعمال الآباء و المربين أيضاً يدلّ على أن إلحاق الأبناء بالآبـاء من فضل الله و لا يتنافى مع آية ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾[٣]، لأن هـذه الآية تدل على أن استحقاق الفيض مختص بسعي الإنسان و جهـده و لا تتنـافى مع الفضل الإلهي قطّ.

ثم إن الأواصر النسبية تتقطّع بين الأشخاص فـي يوم القيامة: ﴿فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾[٤]، و لا يتأتى لأحد حـلّ مـشكلة الآخـر علـى أسـاس النـسب الدنيوي، و لكن إن اتّبع الأبناء فـي الدنيا منهج آبائهم المؤمنين فإن الله سـبحانه

---

١. علل الشرائع، ج ١-٢، ص ١٨٠؛ البرهان، ج ٥، ص ٤٨.

٢. سورة الطور، الآية ٢١.

٣. سورة النجم، الآية ٣٩.

٤. سورة المؤمنون، الآية ١٠١.

و بسبب التربية الصحيحة سيمتعهم بالجزاء الأمثل و المواهب الأخروية كالشفاعة. هذا بالإضافة إلى ما ستغمر الآباء من لذة لقاء ذريتهم في الجنة، فباستطاعة الإنسان أن يوصل أبناءه إلى درجات رفيعة عبر أعماله الصالحة و أن يوقعهم في العذاب و المشقة عبر أعماله الطالحة.

و قد ورد في الروايات أيضاً نقل حسنات المذنب (القاتل و المستغيب) و سيئات المحسن (المقتول و المغتاب) إلى شخص آخر[1]، و لكن هذا في الواقع هو حصيلة عمله، لأن القاتل أو المستغيب قد قام في الظاهر بالقتل أو الاغتياب و لكنه في الواقع أثر عمله حيث تظهر سيئات المقتول و المغتاب في صحيفة أعماله، لا أنها تنتقل إلى صحيفة عمله حتى لا تنسجم مع بعض الآيات أو ترد بعض الأبحاث من قبيل أن عمل الإنسان عرض أم جوهر و هل هو قابل للنقل و الانتقال أم لا[2]. فإن تعبير «النقل و الانتقال» تعبير ناهض عن التسامح و إلا فإن القاتل في الواقع يرى في صحيفة أعماله عصارة سيئات المقتول التي هي وليدة عمله، كما أن ظهور حسنات المستغيب في صحيفة المغتاب في الواقع هو إعادة ماء وجهه المراق إليه من قبل الله.

علاقة العمل بالعالم الخارجي

إن لنيات الناس و أعمالهم الصالحة و الطالحة سهم في حوادث العالم الحسنة و السيئة لأن بين هذه الأعمال و الحوادث صلة متصلة. و هذا ما يسانده البرهان العقلي و النقلي.

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٥٩؛ وسائل الشيعة، ج ٢٩، ص ١٥.

٢. راجع: الميزان، ج ٢، ص ١٧٩-١٨٠.

الأول- البرهان العقلي: يمثل الإنسان بكل شؤونه حلقة من سلسلة عالم الوجود، فلا يستطيع الانفصال عن سائر الحلقات لأنه معلول للكثير من العلل و علة للكثير من المعاليل بحيث أنه يتأثر من الموجودات البحرية و الصحراوية و البرية و الجوية و يؤثر فيها كذلك، إذن فأعمال الإنسان تضع أثرها على الأحداث المفرحة و المؤلمة و تتأثر منها. و إن هذا التأثير و التأثّر المتبادل لا يختص بنطاق جسم الإنسان بل يشمل عقائده و أخلاقه و سلوكه و أقواله و أفعاله أيضاً. و قد لا نستطيع البرهنة على تفاصيل هذه المسألة و لكن هناك برهان عقلي على علاقة الإنسان المباشرة مع الطبيعة و إن كانت تفاصيلها لا تثبت إلا بالنقل، إذن فكون الحسنة الفلانية تسبب هطول المطر المناسب أو نزول البركات الإلهية و الذنب الفلاني يؤدي إلى الزلزال و موت الفجأة أمر مقبول وفق شروط معينة.

الثاني- البرهان النقلي: لقد بيّن القرآن الكريم العلاقة المباشرة لأعمال الإنسان مع الطبيعة في آيات مختلفة و أيّد البرهان العقلي المذكور. و المراد بالتأييد إثبات أصل التعامل بين الإنسان و الطبيعة الذي يعدّ أمراً كلياً قابلاً للتعليل العقلي، لا بيان حدث خاص جزئي كالزلزال في المنطقة الفلانية بهذا المقياس من الريختر لأن الحدث الجزئي لا يقبل البرهنة العقلية و بما أن العقل لا يحمل ادعاء في الأمور الجزئية فلا يصح تأييده بالنقل أيضاً. و المراد بالعمل هنا عنوان الحسنة و السيئة التي هي وصف للحركات الخارجية لا نفس الحركات و السكنات المنبثقة من الآثار الطبيعية للأجسام و المشتركة بين السيء و الحسن. و إن الآيات القرآنية في هذا المجال تنقسم إلى عدة أقسام أصلية و فرعية:

الآيات الناظرة إلى أصل العلاقة المتبادلة بين أعمال الإنسان و حوادث العالم في الجملة أو بالجملة.

الآيات الدالة على علاقة الأعمال الحسنة بأحداث العالم الجيدة.

الآيات الناظرة إلى علاقة الأعمال السيئة بأحداث العالم المريرة.

و كلّ من القسمين الثاني و الثالث ينقسم إلى أقسام فرعية: التأثير المتقابل بين الأعمال الفردية الصالحة و الطالحة و حوادث العالم الحسنة و السيئة و التأثير المتبادل بين الأعمال الجماعية في المجتمع و حوادث العالم الجيدة و الأليمة.

الآيات الناظرة إلى أصل العلاقة المتقابلة بين عمل الإنسان و الطبيعة

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾[1]، تبين هذه الآية من خلال المدلول المطابقي علاقة أعمال الإنسان مع حوادث العالم و إن يظهر من مدلولها الالتزامي ضرب من الإنذار للناس. و هذه الآية عامة و تشمل النعمة و النقمة و الحسنة و السيئة. و بالاستناد إلى ذيل الآية فإن الله إذا أراد تغيير مصير قوم لا يستطيع أحد الوقوف أمام هذه الإرادة الإلهية لأنهم لا وليّ لهم سوى الله.

و الحاصل أن هناك سلسلة من الأعمال السياسية و الاجتماعية والاقتصادية و الثقافية و أمثالها يحيط بها الإنسان و يُقرّر فيها و يؤديها بالاستشارة و بعد النظر. و هذه الأمور المقررة و المنفذة إما أن تكون مطابقة للشريعة أو مخالفة لها، و في كلتا الحالتين فإن الله سبحانه يقدّر و يقرّر طائفة من الأحداث الخارجة عن نطاق التقدير و التفكير و الاستشارة و التصميم لذلك المجتمع الحسن أو السيء و هي تمثل الرسالة العذبة أو المرّة للآية المشار إليها إلى هذا التعامل المذكور. و لابد من الالتفات إلى أن المقصود من الاستدلال بالآيات لا يعني بأن جميع الآيات المذكورة تدلّ على نحو القضية الموجبة الكلية على وجود ارتباط وثيق بين جميع أعمال البشر بأبعادها المختلفة و بين كل الحوادث الكلية و الجزئية في العالم.

﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَابِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]. تتحدث هذه الآية عن نعم الله التي هي كلها ابتداء: «كلّ نعمك ابتداء»[2] و لا يطلب الإنسان الله شيئاً قطّ. و إن سنة الله وفق هذه الآية قد استقرت على ألا تغيّر نعمة فرد أو جماعة بتاتاً، إلا أن يغيروا منهجهم و يحرموا أنفسهم من هذه النعمة.

لقد جرى الحديث في الآيتين السابقتين عن تغيير النعمة و تبديلها لا عن سلبها و هذا ما يدعو إلى التأمل. فالعلم على سبيل المثال مدعاة لجمال الإنسان

---

۱. سورة الأنفال، الآية ۵۳.

۲. الصحيفة السجادية، الدعاء ۱۲.

و كماله و في برهة من الزمن سبب لسلب كرامته و إراقة ماء وجهه و ذلك بأن عدم العمل به يهيء الأرضية للفهم و الاستنباطات الخاطئة و يسوقه إلى درجة من الخزي و الفضيحة لم يصل إليها أي جاهل.

فإن استعمل فرد أو جماعة أموالهم في طريق غير شرعي و صرفوها في الحرام سيوقعون أنفسهم في عذاب القهر الإلهي في الدنيا و الآخرة و يعبّدون الطريق لسقوطهم في الهاوية.

و السرّ الكامن في ارتباط تغيير النعمة بتغيير النفس هو أن لنفسيات الإنسان صلة مباشرة مع الأحداث الخارجية.

الآيات الدالة على العلاقة بين الأعمال الحسنة و الأحداث الجيدة

﴿وَأَن لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقاً﴾[1]. تدلّ هذه الآية على أن الثبات على الطريق الصحيح يسبب التمتع بالماء الكثير الذي يروي عطش المزارع و المراعي و الغابات و الحيوانات و الناس. و هي وثيقة حية على كون صلاة الاستسقاء أمر منطقي و معقول، لأن الصلاة عمود الدين و الأمر بصلاة الاستسقاء أمر خاص يعتبر امتثاله من المصاديق البارزة للاستقامة على الطريق. و إن كان «الماء الغدق» لا يختص بالمطر بل يعد من مصاديق امتلاء العيون و القنوات و الآبار من الماء أيضاً. فإن الله سبحانه و من خلال الأعمال الصالحة يغمر قوماً بالبركات و النعم المادية، كما أن الكثير من الذنوب قد تؤدي

---

١. سورة الجن، الآية ١٦.

بأمر الله إلى غور الماء بحيث لا تصل إليه يد الحفّار و الصانع: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾[1]، و «الماء المعين» هو الماء الذي «تناله الدلاء و تراه العيون»[2].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِن رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾[3]. فكما أن الإيمان و التقوى و غفران الذنوب متعلق بدخول الجنة، كذلك الإيمان و العمل بأوامر التوراة و الإنجيل و القرآن مرتبط بالتمتع بنعم السماء و الأرض.

﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ هي النعم السماوية التي تظهر على نحو نزول الثلوج و الأمطار أو سطوع الشمس و ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ هي النعم الأرضية من جعل الأراضي صالحة للزراعة و نبوع المياه الجوفية (العيون و القنوات).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[4]. تشير هذه الآية إلى أن إيمان و تقوى أهل المدن و القرى[5] تؤدي إلى فتح أبواب بركات السماء و الأرض عليهم و تبيّن بوضوح العلاقة بين أعمال الإنسان و حوادث العالم.

---

١. سورة الملك، الآية ٣٠.

٢. مجمع البيان، ج ٩-١٠، ص ٤٩٥.

٣. سورة المائدة، الآية ٦٦.

٤. سورة الأعراف، الآية ٩٦.

٥. لأن الألف و اللام في ﴿أهل القُرى﴾ ليست عهدية بل تفيد الجنس و تشمل كلّ المناطق.

يمكن تفسير عبارة ﴿بَرَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ﴾ بعدة صور:
أ- البركات السماوية نزول الثلج و المطر و سطوح الشمس و البركات الأرضية صلاح الأرض و نبوع العيون و القنوات و خروج النبات و الثمار.
ب- البركات السماوية العلوم و المعارف و البركات الأرضية النعم المادية.
ج- البركات السماوية العلوم الكشفية و الشهودية و البركات الأرضية العلوم الحصولية[1].

و لكن لا ينحصر معنى الآية في هذه الاحتمالات الثلاث و بالإمكان أن يكون له مصاديق أخرى. و ترد هذه الاحتمالات الثلاث في الآية السابقة أيضاً. و على أي حال فسواء كان المراد من الآية المسائل العلمية أو العملية و من المسائل العملية العلم الحصولي أم الحضوري، كلها من مصاديق الأمور الخارجية و تنبؤ عن علاقة أعمال الإنسان الصالحة (الإيمان و التقوى) بأحداث العالم الحسنة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللّهَ يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾[2]. تدلّ هذه الآية على العلاقة بين التقوى و بين اكتساب الطرق الباطنية أو الحركات الخارجية.

و كذلك آية ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] التي تبين العلاقة بين التقوى و الصبر و بين الأجر و الوصول إلى المقصد. فإن هذين الآيتين تبينان على نحو أصل كلّي علاقة عمل الإنسان الصالح بنتائجه الجيدة.

---

١. راجع: مجمع البيان، ج ٣-٤، ص ٦٩٧-٦٩٨؛ روح المعاني، ج ٦ و ٩، ص ١٦-١٧.

٢. سورة الأنفال، الآية ٢٩.

إن آية ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ﴾[٢] تعني أن التقوى تجلب الفرقان بحيث يستطيع الإنسان من خلاله الفصل بين الحق و الباطل و الغثّ و السمين و الطريق القويم و المنحرف، لأنه إذا تغلّب الهوى على الإنسان سيحول بينه و بين مشاهدة الحقائق الباطنية و الظاهرية كما هي عليه و بالجملة فالمراد بالآية هو أن تقوى الإنسان المتقي تمثل المبدأ القابلي و الإفاضة الإلهية المبدأ الفاعلي و هذه الإفاضة أولاً خارجة عن دائرة وجود الإنسان و عن حدود قدرته و ثانياً موجود عيني من أعيان العالم الخارجي زمامه بيد الله سبحانه و ثالثاً إيجادها له ارتباط مباشر بالعمل الصالح للإنسان و هذا هو نفس ادّعاء ارتباط عمل الإنسان بعالم الخلق. و الحاصل أنه ليس المراد بالآية هي أنكم إن تتقوا سترون الحقائق، بل معناها هي أنكم إن تتقوا يجعل الله لكم فرقاناً تشاهدون الحقائق من خلاله.

سرّ تمتع الكافرين بالنعم الإلهية

واحدة من الشبهات المطروحة على الاستدلال بهذا القسم من الآيات هي: أن هذا الاستدلال و هو أن الإيمان و التقوى يسبّبان نزول البركات السماوية و الأرضية استدلال ناقص لأن الكفار و غير المؤمنين و المتقين أيضاً يتمتعون بالبركات السماوية و الأرضية و لا توجد لديهم أية مشكلة اقتصادية.

---

١. سورة يوسف، الآية ٩٠.

٢. سورة الأنفال، الآية ٢٩.

و فـي الجواب لابد من القول أن هذه الآيات تتحدث عن البركـة و المـال المتصف بالبركة لابد أولاً أن يكـون حـلالاً و ثانيـاً أن يُـستخدم فـي مـسير السعادة و الكمال، لا مطلق المال.

و لابد هنا من الالتفات إلى النقاط التالية:

أولاً: يظهر من خلال تبيان الآيات القرآنية بعضها مع بعض أن المراد بآية ﴿**لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ ...**﴾[١] هو البركة لا مطلق التنعم لأن آية ﴿**وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ القُـرَى آمَنُـوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ ...**﴾[٢] جعلـت فـتح البركـة هـو المعيار.

ثانياً: «البركة» فـي الثقافة القرآنية هي النعمة الخاصة لا كـل نعمـة. يقـول الراغب: «البركة ثبوت الخير الإلهي فـي الشيء»[٣].

ثالثاً: قد يكون فتح أبواب النعمة للتعذيب العاجـل نظـير ﴿**... وَلكِـن قَـسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شيءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُبْلِسُونَ**﴾[٤].

رابعاً: ليس المدّعى فـي البحث حصر العلة بتاتاً، بل هو إثبات العلاقـة بـين عمل الإنسان و حوادث العالم.

---

١. سورة المائدة، الآية ٦٦.

٢. سورة الأعراف، الآية ٩٦.

٣. المفردات، ص ١١٩، «ب ر ك».

٤. سورة الأنعام، الآية ٤٣-٤٤.

و بيان ما قيل في الفرق بين البركة و غيرها هو أن ثروة الثريّ و قدرة المقتدر قد تكون من حبائل الله. و من أجل دفع مثل هذه الشبهة اعتبر الله الوصول إلى بركات السماء و الأرض منوطاً بالإيمان و التقوى و أنذر إلى جانب ذلك الكفار المتنعمون برفاهية العيش أن امتلاك المال و الإمكانيات الرفاهية لا يدل على عناية الله بهم و إنما هي سنة الإمهال و الاستدراج، بمعنى أنه يُمهلهم لتزداد ذنوبهم و يقعون في عذاب مهين و لكنهم في غفلة عن ذلك: ﴿ولاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[1]. و إن المال و القدرة و الإمكانيات الرفاهية هي نقمة لهم في الحقيقة لا نعمة: ﴿أَيَحْسَبُونَ أنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾[2].

و قد أشار الله سبحانه لتبيين أصل المسألة إلى سنّة الإمهال و الاستدراج قائلاً: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لاَيَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾[3]. و كما أنّ حبل الله المتين «لا انفصام له» فإن كيد الله المتين أيضاً كذلك.

إضافة إلى ذلك فقد قال الله في آيات كثيرة مخاطباً نبيّه ﷺ من حيث أنه قائد الأمة الإسلامية: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي البِلاَدِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ

١. سورة آل عمران، الآية ١٧٨.

٢. سورة المؤمنون، الآية ٥٥-٥۶.

٣. سورة الأعراف، الآية ١٨٢-١٨٣.

﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[1]، و قال أيضاً مع اختلاف قليل: ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[2]. فقد دفعت هذه الآيات الشبهة المذكورة بشكل جيد.

جدير بالذكر أن سنة الله في الدنيا هي ألا يهب الرزق و الدنيا العامرة لأحد مجّاناً بل لابد من السعي الحثيث للوصول إلى هذا الهدف علماً بأن مسألة الإعجاز و الكرامة و الإمداد الغيبي أمر آخر.

فقد قال الله سبحانه بعد أن أقسم بعدة أقسام: بأن هذا الإنسان الذي جعلنا خلقته ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[3] خلقناه في شدّة و عذاب: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[4]، فلا يصل إلى الجنة و الثروة و الإمكانيات الرفاهية مجاناً، بل عليه كالراكب على الفرس الوحشي الركوب على مناكب الأرض (الجبال) و الاستفادة من ثرواتها و ذخائرها. فقد جعل الله الأرض ذلولاً و لكن لا يسهل السيطرة عليها: ﴿هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[5]. فقد تكون تطوّرات الكفار الاقتصادية و إمكانياتهم الرفاهية ثمرة جهودهم و حرمان بعض المسلمين من هذه المواهب المادية نتيجة وهنهم و تقاعسهم، و لكن أولاً لا ينبغي للمتنعمين بنعم الدنيا المادية اعتبارها

١. سورة آل عمران، الآية ١٩٦-١٩٧.

٢. سورة التوبة، الآية ٥٥.

٣. سورة التين، الآية ٤.

٤. سورة البلد، الآية ٤.

٥. سورة الملك، الآية ١٥.

سعادة لهم و عناية ربانية و الاغترار بها فقد تكون الثروة وبالاً لا رفاهاً و نقمة لا نعمة. و ثانياً لا ينبغي أن يُعجب و يغترّ بها المؤمنون لأنها متاع قليل و زائل في الدنيا و قيمة المرء بإيمانه و تقواه لا بالجمال الظاهري و الإمكانيات الرفاهية التي هي أكبر همة الحيوانات.

تأثير الصلاة في نزول المطر

لقد بني عالم الوجود على أساس نظام العلة و المعلول. و لا يوجد أي موجود من دون وجود علته و من تلقاء نفسه كما يلزم في نزول المطر تحقق سيره الطبيعي من سطوع الشمس على البحر و تبديل الماء إلى بخار و ظهور السحاب بواسطة الريح و حملها حتى البرد و الهطول. و لكن لابد من الالتفات إلى أن نظامه بيد الله سبحانه و لا ينحصر طريق نزول المطر بالطريق الذي عرفه الإنسان فقد ورد في التعاليم الدينية الحديث عن تأثير الصلاة و الدعاء في نزول المطر أيضاً. و إن المرحوم ابن سينا أحد كبار حكماء الإسلام قد أفرد رسالة في هذه المسألة و تعرض لها أيضاً في كتابه إلهيات الشفاء الذي يعد أهم كتبه الفلسفية قائلاً: «و اعلم أن أكثر ما يُقرّ به الجمهور و يفزع إليه و يقول به فهو حقّ و إنما يدفعه هؤلاء المتشبّهة بالفلاسفة جهلاً منهم بعلله و أسبابه و قد عملنا في هذا الباب كتاب البرّ و الإثم فتأمّل شرح هذه الأمور من هناك و صدّق»[1].

---

١. إلهيات الشفاء، ٤٣٩.

فمن لا يستطيع بيان العلاقة بين صلاة الاستسقاء و الدعاء و بين نزول المطر ليس بفيلسوف و إنما هو متفلسف يدّعي ادّعاء باطلاً لأن للدعاء أثر على كلّ نظام التكوين.

و إن من الأصول الكلية التي أشار إليها القرآن الكريم هي أن الإنسان كما يتأثر من الحوادث يُؤثّر فيها أيضاً، لأنه ليس مبتوراً و بعيداً عن حوادث العالم حتى لا يكون له دور المتأثر منها و المؤثر فيها. إذن فالحوادث الخارجية تضع آثارها في الإنسان على اليقين و لا شكّ أن الذين يعيشون في منطقة يكون تفكيرهم و طلباتهم مناسبة مع تلك المنطقة و بالاستناد إلى ما يحدث فيها، بيد أن المسألة التي أماط القرآن اللثام عنها هي أن لأعمال الإنسان أيضاً أثر في الحوادث الخارجية، فلو اتّجه المجتمع إلى حيث الصلاح و السعادة ستتغير الحوادث الخارجية أيضاً و لو سار باتجاه الطلاح[1] و الطغيان و التعدي سيكون تغيير الأحداث الخارجية مبتنياً على هذا الأساس.

و من هنا وعد القرآن الكريم بأن المطر ينزل في موعده على الصالحين: ﴿وَأَن لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقاً﴾[2]، كما و أمر بصلاة الاستسقاء أيضاً. فقد وعد القرآن الكريم بأن المجتمع لو سار باتجاه الصلاح و السعادة لأنزلنا عليه المطر في موعده علماً بأن هذا الوعد لا يختص بالمطر بل ذكر المطر من باب التمثيل لا التعيين و هو جارٍ على سائر النعم أيضاً فالنباتات

---

١. الطلاح نقيض الصلاح، كتاب العين، ج ٣، ص ١٦٩، ذيل كلمة «ط ل ح».

٢. سورة الجن، الآية ١٦.

تخرج في موعدها و المناجم تتكوّن في موعدها و الإشارة إلى المطر من باب أن الماء أصل و عنصر محدِّد في الحياة و لذا قال في آية أخرى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شيء حَيٍّ﴾[1]، فالأمر إذن لا يختص بالمطر.

دور الطهارة في استدامة الرزق

شكا إلى النبي الأكرم ﷺ رجل قلة الرزق فقال ﷺ: «أدم الطهارة يدم عليك الرزق» ففعل الرجل ذلك فوسع عليه الرزق[2].

إن الله الرازق يقدّر الرزق الكثير للبعض و القليل للبعض الآخر وفق المصلحة سوي أنه لا يترك الإنسان الطاهر العفيف صفر اليدين و يؤمّن رزقه. و لكن كما أن للدنس «دركات» للطهارة أيضاً «درجات» و بالتالي فإن للرزق أقسام كذلك.

لقد تضمن هذا الحديث معارف كثيرة فلا ينحصر دوام الطهارة على أن يكون الإنسان دوماً على وضوء، و إن الوضوء الدائم أحد أقسام الطهارة، و على سبيل المثال من لم يكن من أهل التكسّب و العمل فليس بطاهر لأن التكسّب واجب على من يريد تأمين المعيشة لنفسه و لعائلته و مثل هذا لا يستطيع ترميم دنس ترك التكسّب بالوضوء الدائم بتاتاً لأن التوضؤ المستمر عمل مستحب و ترك التكسب عمل حرام و لا يُجبر الحرام بالمستحب. فالمداوم

---

١. سورة الأنبياء، الآية ٣٠.

٢. بحار الأنوار، ج ١٠٥، ص ١٦؛ مستدرك الوسائل، ج ١، ص ٣٠٠.

على الطهارة يعرف أولاً تكاليفه الفقهية ثم يعمل بها. و الكاسب الطاهر يأكل الحلال و يبيع الحلال و لا يحتكر و لا يتلاعب بالأسعار و لا يُطفّف: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[1].

و النقطة المهمة هي أنه لا يسوغ للإنسان الطاهر أن تكون نيته من الطهارة الوصول إلى الرزق الكثير لأنه يجعل طهارة الروح وسيلة لرفاهية البدن. و بعبارة أخرى من كان هدفه من محاولة ترك الذنوب و إخراج الروح من الدنس ازدياد الرزق المادى، فقد جعل الهدف الرفيع وسيلة لشيء وضيع و هذا كأن يؤمر حكيم كبير بتنظيف غرفة. فعلي الإنسان أن يسعي لئلا يجعل الطهارة القربية وسيلة للرزق المادى.

و كذلك الحال في صلاة «الاستقساء»: فمن يصاب بالجفاف و يصليها يستجاب دعاؤه و لكن لا ينبغي له القيام بذلك لنزول المطر. و إن كانت مثل هذه الصلاة صحيحة و تلبي حاجته إلا أن هذا هو مرحلة نازلة من الأخلاق. فقد كان المعصومون عليهم السلام أيضاً يصلون صلاة الاستسقاء، و لكن هناك فرق بين من يصليها لنزول المطر و بين من يصليها لا لهذا الهدف و لا يتعبد كالمتسوّل بشرط الأجرة و لكن يعلم بأن الله يفي بوعده و يقضي حاجة المصلين بنزول المطر فيقوم عندها بشكر الله و لكنه سيكون عند عدم نزول المطر شاكراً صابراً و

١. سورة المطففين، الآية ١-٣.

هي مرحلة لا تتيسر لأي أحد و لكنها يسيرة لسلاك طريق الحق الذين سلكوا الطريق منذ مدة.

و المرحلة الأسمى هي أن الإنسان بالإضافة إلى كونه لا يجعل صلاة الاستسقاء و دوام الطهارة وسيلة للرزق المادي ينسى كونها وسيلة، و في الواقع فهو غافل من الأساس عن هدف هذه الصلاة و هو نزول المطر و إنما يؤديها عبادة و قربة ليس إلا.

تأثير إحياء البيئة على سعادة الآخرة

إن جميع الأعمال الحسنة ثابتة في نظام الإسلام المبتني على أساس القيم و المبادئ إلا أن بعض الأعمال قد ذكرت بوصفها أعمال خالدة باقية. فإن كتابة القرآن الكريم أو تأليف الكتب العلمية المستقاة من العلوم القرآنية في روايات أهل البيت عليهم السلام عمل خالد تبقى آثاره الحسنة للإنسان بعد موته أيضاً.

و من جملة هذه الأعمال الحسنة الثابتة إحياء البيئة كغرس الأشجار و حفر القنوات و الآبار و صناعة السدود و سائر النشاطات التي توفّر أرضية مناسبة لحياة البشر. فقد ورد في التعاليم الدينية أن من غرس شجرة أو قام بما ينتفع به الناس، سيُكتب الأجر و الثواب في صحيفة أعماله ما دام هذا العمل باقياً. فإن هذه الرؤية إلى الأعمال التي يعمّ نفعها تسبب اشتياق الإنسان لإحياء البيئة.

فالعمل الذي يقوم به الإنسان المادي إنما هو من أجل تأمين مصالحه القصيرة الأمد و لكن إذا نظر المرء إلى الأعمال بوصفها سنة حسنة و عمل خالد ستتسع دائرة رؤيته و يشهد ما وراء الحياة المادية و يسعى من أجلها.

و قد جاء في تعاليم الإسلام السماوية أن سقي الشجرة له من الأجر و الثواب كسقي المؤمن. حيث ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «من سقى طلحة أو سدرة فكأنما سقى مؤمناً من الظمأ»[1]. ففي الوقت الذي يكون أجر سقي الشجرة كسقي المؤمن فإن غرس الأشجار و إيجاد رحاب خضراء كذلك يدخلان في عداد السنن الدينية الحسنة المؤثرة في سعادة الإنسان الأخروية.

الآيات الناظرة إلى العلاقة بين الأعمال السيئة و الأحداث المريرة

﴿قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾[2]، هذه الآية تنذر الكافرين و تعتبر عذابهم ناجم من الآثار السيئة لكفرهم.

و قال أيضاً في موضع آخر: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾[3]، ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾[4]. تبيّن هاتين الآيتين العلاقة بين الأعمال السيئة و الأحداث المؤلمة في الدنيا، لأن عودهم إلى السيئات يهيء أرضية عود السنة الإلهية للانتقام، فالقهر الإلهي الذي يظهر بمظاهر طبيعية مختلفة مرتبط بحقد المجرمين على مظاهر الله الدينية و هذا الارتباط هو نفس العلاقة بين عقائد البشر و أخلاقهم و أعمالهم و بين أحداث

---

١. بحار الأنوار، ج ٩، ص ٢١٢.

٢. سورة الأنفال، الآية ٣٨.

٣. سورة الإسراء، الآية ٨.

٤. سورة الأنفال، الآية ١٩.

العالم المتنوعة التي تتحقق بالإبداع الإلهي. لأن هذا الترابط لا ينبثق من ضرورة ذاتية حتى يكون غنياً عن مبدأ الإيجاد.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾[1]، فإن أئمة الفجور يفسقون و الناس بدلاً من النهي عن المنكر ما بين تابع لهم و ما بين ساكت يشهد معاصيهم فيحلّ بأجمعهم غضب الله لما كانوا يظلمون به أنفسهم.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2]، قد تستفاد من هذه الآية و من آية ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾[3] العلاقة الطبيعية بين أعمال الإنسان القبيحة و ظهور الفساد في البرّ و البحر و اعتبار هذه الآية بياناً لسائر الآيات القائلة بان هناك علاقة تكوينية بين فجور المجتمع و حوادث العالم المرّة و هي كباقى الأعمال التكوينية خاضعة لتدبير الربوبية الإلهية.

تبين هذه الآية نقطتين: العلاقة بين أعمال الناس السيئة و الأحداث المؤلمة و أنه قد يكون الجزاء أقلّ من العمل، كما قال: ﴿يَغْفِرَ لَكُم مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[4]، و قال أيضاً: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾[5].

---

۱. سورة الإسراء، الآية ١٦.

۲. سورة الروم، الآية ٤١.

۳. سورة الشوري، الآية ٣٠.

٤. سورة نوح، الآية ٤.

٥. سورة المائدة، الآية ٤٩.

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾[١].

ففي ظلّ السير في التاريخ و مشاهدة الأحداث التاريخية و دراسة الوقائع الماضية و تحليلها، نرى أصحاب القدرة أمثال فرعون لم يبق منهم اليوم إلى اسمهم في الكتب التاريخية فأهلكهم الله بذنوبهم و لم يكن لهم أمام الله ناصر و معين. و قد وردت آيات كثيرة في قارون[٢] و قوم سبأ[٣] و سائر المجرمين و أئمة الجور تدلّ على أنهم قد سقطوا في شراك الأحداث المريرة و حرموا من النعم و البركات الإلهية بسبب ذنوبهم الفردية أو الجماعية.

فهناك بالاستناد إلى هذه الآيات علاقة بين الأعمال السيئة من جانب و الحوادث المؤلمة في عالم الطبيعة من جانب آخر، و لكن كما أن الله سبحانه و تعالى قد يعفو عن أصل السيئة و يغض الطرف عنها، فإنه في التأديب بالأحداث المرّة أيضاً قد يتعامل بالإمهال و لا يأخذ المجرم على الفور بل يمهله للتوبة أو يؤاخذه بأقل من سيئته و يعفو عن كثير من أخطائه: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾[٤]، و معنى ذلك أن أي مصيبة تصيب الإنسان فهي وليدة أعماله لا أنه يرى المصيبة إزاء كلّ عمل اقترفه ثم إن

---

١. سورة غافر، الآية ٢١.

٢. سورة القصص، الآية ٧٦-٨٢.

٣. سورة سبأ، الآية ١٥-١٩.

٤. سورة الشوري، الآية ٣٠.

الله يعفو عن كثير[1] من ذنوبه و يؤاخذه بالقليل منها. إذن فأحداث العالم تتبع أعمال الإنسان إلى حدّ ما، فلو أن الناس أطاعوا الله و سلكوا طريق العبودية تتفتح عليهم أبواب رحمة الله و بركاته و لو انحرفوا عن جادّة العبودية و ساروا في وادي الضلالة و بطلت أفكارهم و فسدت نياتهم، يظهر الفساد في المجتمع و تشمل دائرته البرّ و البحر و يسوق الشعوب إلى الهلاك بسبب الظلم و الحرب و الاضطراب و سائر الشرور و يجرّ عليهم البلايا و المصائب المدمّرة كالسيل و الزلزال و الصاعقة، و قد عدّ القرآن الكريم السيل العرم[2] و طوفان نوح[3] و صاعقة ثمود[4] و صرصر عاد[5] من هذه الحوادث.

إن الذي تقدّم هو بيان «المجتمع الطالح و المجتمع الصالح». و في الرؤية القرآنية فإن «الفرد» أيضاً حكمه حكم المجتمع، بمعنى أنه يرى أثر أعماله الحسنة و جزاء أعماله السيئة و لكنه تارة يتمتع بنعم الماضين و أخرى يتورط بأثر مظالم أجداده السالفين، علماً بأن التلازم المذكور في عمل المجتمع لا يمكن تبيانه بسهولة حول عمل الفرد أيضاً.

و إن النعم التي يهبها الله للفرد أو المجتمع الصالح هي من باب الإحسان و الامتحان نظير قوله تعالى حول النبي سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هذَا مِن فَضْلِ رَبِّى

---

۱. قوله «كثير» و عدم قوله «أكثر» دلالة على رأفة الله و رحمته لأن الكثير يقابل القليل و الأكثر يقابل الكثير.

۲. سورة سبأ، الآية ۱۶.

۳. سورة العنكبوت، الآية ۱٤.

٤. سورة فصّلت، الآية ۱۷.

٥. سورة الحاقة، الآية ٦.

﴿لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[1]. فإن الشكر من الأعمال الحسنة للبشر التي تسبب ازدياد النعمة: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2]، و الإنعام لأهل الفساد من باب المكر و الاستدراج و هي ظاهرها الجمال بيد أنها نقمة لهم و باطنها الجلال.

كما أن نزول البلاء و المصيبة على الفرد أو المجتمع الصالح أيضاً قد يكون للامتحان من أجل فصلهم و فرزهم عن الفسق أو الفاسقين كما يوضع الذهب في موقد الصائغ لفرزه عن الشوائب أو اختباره لظهور مقياس عياره: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾[3].

و إن نزول البلاء على أهل الفسق و الفجور عقوبة و جزاء لأعمالهم السيئة كما يُوفَّر لهم مجال التوبة و الإنابة ليستيقظ المذنب المعاقب على الفور و يعود إلى الصراط.

فإن ما ذكر هي نتيجة الأعمال التي تظهر في هذا العالم و تصيب صاحبها، إلا أن القرآن في مقام ذمّ الدنيا و ضئالة متاعها عند الله يقول: ﴿وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[4]، و من هنا لا

---

١. سورة النمل، الآية ٤٠.

٢. سورة إبراهيم، الآية ٧.

٣. سورة العنكبوت، الآية ٣.

٤. سورة الزخرف، الآية ٣٣-٣٥.

تتنافى هذه الآية مع الآيات المبينة لتأثير الأعمال على مصير الإنسان في هذا العالم[1].

و بالإضافة إلى آيات القرآن الكريم الدالة على تأثير الأعمال الطالحة في إيجاد الحوادث السيئة هناك روايات عدة تبين هذا التأثير أيضاً.

فقد روي عن الإمام الباقر(عليه السلام) أنه قال: «أما إنه ليست سنة أمطر من سنة و لكن يصفه (يضعه) حيث يشاء إن الله عز و جل إذا عمل قوم بالمعاصي صرف عنهم ما كان قدّر لهم من المطر في تلك السنة إلى غيرها من الفيافي و البحار و الجبال و إن الله عز و جل ليعذب الجعل في جحرها بحبس المطر عن الأرض لخطأ من بحضرته و قد جعل الله له السبيل و المسلك إلى محل أهل الطاعة. ثم قال أبو جعفر(عليه السلام): فاعتبروا يا أولي الأبصار و الألباب. ثم قال: وجدنا في كتاب أمير المؤمنين(عليه السلام) قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): إذا ظهر الزناء كثر موت الفجأة و إذا طفف المكيال أخذهم الله بالسنين و النقص و إذا منعوا الزكاة منعت الأرض بركتها من الزرع و الثمار و المعادن و إذا جاروا في الأحكام و تعاونوا على الظلم و العدوان و إذا نقضوا العهود سلّط الله عليهم عدوّهم و إذا قطعوا الأرحام جعلت الأموال في أيدي أشرارهم و إذا لم يأمروا بمعروف و لم ينهوا عن منكر و لم يتبعوا الأخيار من أهل بيتي سلّط الله عليهم أشرارهم فيدعوا أخيارهم فلا يستجاب لهم»[2].

---

۱. راجع: الميزان، ج ۲، ص ۱۸۱–۱۸۳.

۲. ثواب الأعمال و عقاب الأعمال، ص ۲۵۲.

و علاوة على تأثير الأعمال السيئة في الحوادث المؤلمة، فإن لنية الذنب أيضاً أثر سوء. فقد ورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال: «إن المؤمن لينوي الذنب فيحرم رزقه»[1].

الانسجام بين تأثير الأعمال و نظام العلة و المعلول

إشكال: بما أن عالم الطبيعة تتم إدارته على أساس نظام العلة و المعلول، فإن جميع الحوادث العامة و الخاصة و السيئة و الحسنة (كالسيل و البركات السماوية و الأرضية) معلولة لعلل طبيعية بحيث أن وجود هذه الحوادث و عدمها منوط بوجود و عدم عللها الطبيعية. و إن كل مؤمن أو كافر يستفيد أو يتضرر من الطبيعية بمقدار ما يتمتع به من علل طبيعية بشكل صحيح أو غير صحيح، و لذا فإن إسناد الحوادث المؤلمة و المفرحة إلى أعمال الإنسان الصالحة و الطالحة غير صحيح بل فرضية لا تمت إلى الواقع بصلة.

الجواب: هذا الإشكال إشكال أساسي و ينفي علاقة الأعمال بحوادث العالم بل و أيّ ضرب من الارتباط بين الإنسان و عالم الطبيعة عبر طرق ما وراء الطبيعة و ما وراء المادة، سواء كان من باب تأثير الأعمال الحسنة و السيئة أو تأثير الدعاء و الصدقة و صلة الرحم أو تأثير معاجز الأنبياء، بيد أن منشأ هذا الإشكال يعود إلى الفهم الخاطئ لآيات القرآن و كلمات أهل البيتعليهم السلام لأن أتباع نظرية العلاقة بين الأعمال الصالحة و الطالحة و حوادث العصر المتعة و

---

١. ثواب الأعمال و عقاب الأعمال، ص ٢٤١.

المريرة ليسوا بصدد إنكار و نفي قدرة العلل الطبيعية أو إشراك الأعمال مع العلل الطبيعية في التأثير، كما أنه لم يكن مرادهم إشراك الله مع العلل الطبيعية أو نسبة بعض الأحداث إلى الله و بعضها الآخر إلى العلل المادية، بل مرادهم إثبات علل أسمى تُدعى بالعوامل المعنوية و هي في طول العوامل المادية، بمعنى أن الحوادث تُنسب من جانب إلى العلل المادية و من جانب أسمى إلى العلل المعنوية، كالكتابة التي تُسند إلى اليد و إلى الكاتب أيضاً[1]. و هذه العلل المجهولة تدرج تارة في عداد العلل الفاعلية و أخرى في سلسلة العلل القابلية. و إن نظام العلة و المعلول بسبب حقانيته يوكل زمام الأحداث إلى العلل الغيبية و يحيل عالم الطبيعة إلى نشأة ما وراء الطبيعة.

و بيان ذلك أن كلّ موجود لا يكون وجوده عين ذاته لا يستطيع الاعتماد على نفسه و الاستناد إلى موجود يماثله و لا محيص له من الاتّكاء على شيء يكون وجوده عين ذاته. و إن «قانون العلية» الممهّد لإيراد هذا الإشكال يرشدنا إلى الله الذي هو «علة العلل» و «مبدأ الكلّ» و من هنا فيكون للأشياء ارتباط غيبي مع علتها الأولى (علة العلل).

فلو اقترب الإنسان من الله عبر الحسن الفعلي و الفاعلي ستغمره رحمة الله و فيضه و عندها ستحلّ الخيرات و البركات بهذا الإنسان الصالح أو تُرفع من الإنسان الطالح من قبل الله الذي بيده الملك و الملكوت و تحت تدبيره العلل و الأسباب الطبيعية حيث يقوم بذلك مع حفظ كلّ مظاهر العلية، فإن الله على

---

١. راجع: الميزان، ج ٢، ص ١٨٣.

سبيل المثال و إن كان لا يُخرج الأشجار من دون الأمطار، إلا أنه وضع لـنزول المطر علل و أسباب كثيرة بعضها مجهول، و بتحقق أي واحد منها و كلّها تحت تدبير الله ينزل المطر و استقامة المجتمع و استسقاؤهم في الصلاة الخاصة من جملة هذه العلل غير الطبيعية و المجهولة: ﴿وَأَن لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقاً﴾[1].

و إن للإنسان الصالح ارتباط بالمبدأ الذي زمام المياه بيده فيهدي الله سبحانه الرياح ليحمل الزرع و يسوق السحاب إلى حيث الأراضي الجرداء القاحلة ثم يأمر السحاب أن ترسل أمطارها على الأرض الفلانية: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً﴾[2]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾[3]. إذن فمدبّر العالم بأسره في نظام العلة و المعلول هو الله و نظام العالم يدور بأمره و إن سار الناس في الصراط المستقيم سيرسل الله عليهم الأمطار في الوقت المناسب و إلا فسيُحرمون من فيض الله و رحمته. و من هنا فإن مناط الإشكال و الجواب واحد، بمعنى أن ارتباط الأعمال الحسنة و السيئة مع حوادث العصر لا ينفي قانون العلية لأن الله الذي هو «علة العلل» و «مسبّب الأسباب» يُوفّق الصالحين و يهدي الأحداث وفق مرادهم و يأخذ بيدهم إلى المقصد و من لم يكن صالحاً سيُحرم من هذا التوفيق فيما بينه و بين أحداث العالم.

---

١. سورة الجنّ، الآية ١٦.

٢. سورة السجدة، الآية ٢٧.

٣. سورة النور، الآية ٤٣.

ملاحظتان:

١- تقدّم أن الله قد يختبر قوماً على أساس الاختبار الحكيم بالإمكانيات المادية أو يجعل حصيلة أعمالهم الجيدة التوصّلية (لا التعبّدية) سبباً لتأمين رفاههم في الدنيا فإن هذا كله لا يتنافى مع البحوث السابقة.

٢- التجربة تبعث على الطمأنينة و هي معتبرة بالنسبة إلى المسائل التي تم اختبارها و لكن لا تدلّ على الحصر بتاتاً، بمعنى أنه لا يمكن قطّ نفي ما لم يوضع في حلبة الاختبار من خلال علم التجربة كالدعاء و الصدقة و صلة الرحم و صلاة الاستسقاء لأن التجربة تسير في دائرة الإثبات لا النفي.

علاقة البلايا الطبيعية بالامتحان الإلهي

واحدة من أسباب الحوادث الطبيعية المُدمّرة كالزلزال و السيل و الطوفان و تسونامي و انهيار الجبل و الهزة الأرضية و غيرها من الكوارث الفادحة التي تخلّف خسائر بشرية و مالية هي الامتحان الإلهي.

و قد تعرض القرآن الكريم لهذه المسألة و أوصى بالصبر أمام المصائب: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[1]، و السرّ من هذا الامتحان و تنوعه هو أن الناس خُلقوا بمواهب مختلفة و الباعث على ازدهار هذه المواهب هي الامتحانات المتنوعة.

---

١. سورة البقرة، الآية ١٥٥-١٥٧.

و إن الصبر و الشكر من كمالات الإنسان و لا ينتقل هذا الكمال من القوة إلى الفعل من دون الابتلاءات المختلفة، و من هنا فتارة يختبر الله سبحانه الإنسان بالنعمة و المنحة[١] و العزّة و أخرى بالنقمة و المحنة و المهنة ليظهر شكره و صبره الباطني، و يُعرف الإنسان الصابر في الابتلاء بالضرّاء و النوائب و الظروف العصيبة و المرّة، و الإنسان الشاكر في الامتحان بالسرّاء و رفاهية العيش و الدعة، و على هذا الأساس يرد الابتلاء بالشدائد و الصعوبات و الصبر عند الحرب و تجييش الجيوش و الامتحان بالمسائل الرفاهية بعد الانتصار و اكتساب غنائم الحرب.

و يظهر من التأكيد الوارد في هذه الآية و في آيات أخرى في قوله ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ أن الابتلاء قضاء إلهي حتمي و لا مفرّ منه لأي أحد فمن طلب من الله قائلاً: اللهم ارفع عني الابتلاء، لا يستجاب دعاؤه و عليه أن يقول: اللهم اجعل إيماني راسخاً و وفقني لأن أخرج من ابتلائك مرفوع الرأس[٢].

الابتلاء بعدم استقرار الأمن و الفقر الاقتصادي

المقصود من الابتلاء بـ«الجوع» و «الخوف» في الآية السابقة هو الابتلاء بعدم استقرار الأمن و الفقر الاقتصادي، و بعبارة أخرى ليس المراد بالجوع هو خصوص الجوع الذي يقابل العطش بل المراد به أعم من الجوع و العطش و

---

١. المنحة: العطاء و الهبة (قاموس دهخدا، ذيل كلمة منحة).

٢. راجع: وسائل الشيعة، ج ٧، ص ١٣٧، «باب أنه يكره أن يقال اللهم إني أعوذ بك من الفتنة بل يقال من مضلات الفتن».

سائر الأضرار و المصائب البدنية، كما ذكر العطش و التعب في بعض الآيات إلى جانب الجوع بالصراحة: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١].

فإن التعبير عن النقص في المسائل المالية و الاقتصادية بـ«الجوع» كالتعبير عن التصرّف في مال الغير بـ«الأكل» أو التعبير عن اقتراف الذنوب بمختلف أعضاء البدن بـ«اقترافه باليد»، فالمراد بالأكل في بعض التعبيرات نظير ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾[٢]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾[٣] هو مطلق التصرّف، و قد تم التعبير عن التصرف في أموال الآخرين بالأكل لأنه أبرز مصاديق التصرف، و المقصود أيضاً من ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[٤] هو جميع الذنوب لا خصوص التي تُقترف بواسطة اليد، و قد عُبّر بذلك لأن أكثر الأعمال يتم إنجازها عبر اليد، و كذلك الحال في الآية التي نبحث فيها لأن الجوع هو المثال البارز للفقر و الضعف و لذا فقد تم التعبير به عن الجوع و الفقر في الملبس و المسكن و نظائرها، كما هو

---

١. سورة التوبة، الآية ١٢٠. ينبغي الالتفات هنا إلى أن التفصيل قاطع للشركة، ففي المواطن الذي يُذكر الجوع إلى جانب سائر

٢. سورة البقرة، الآية ١٨٨.

٣. سورة النساء، الآية ١٠.

٤. سورة الشوري، الآية ٣٠.

الحال في آية ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِنْ خَوْفٍ﴾[1] حيث عبّر عن الازدهار الاقتصادى بالإطعام من الجوع.

النقص في المال و النفس و الثمر

تارة يتحقق الابتلاء و الامتحان الإلهي بالفقر: ﴿بِشَيْءٍ مِنَ ... وَالْجُوعِ﴾ فإن الإنسان في هذه الحالة و لو لمدة قصيرة يفتقر وجود أي شيء للأكل و أخرى بنقص المال: ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾[2] و «النقص» غير الزوال، و الإنسان المبتلى بنقص المال ليس جائعاً أو عرياناً أو متشرّداً بل عليه أن يعيش حياة بسيطة. و بالنظر إلى هذا التنوع في الابتلاءات تبدّل سياق الآية من ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ إلى ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾، لأن المراد من ﴿وَنَقْصٍ ...﴾ هو «و بنقص» لا «و بشيء من النقص». علماً بأن عبارة ﴿بِشَيْءٍ﴾ تشير إلى قلة الابتلاءات المذكورة و محدوديتها زمنياً و يكون معناها «بشيء قليل». و الحاصل أن الإنسان المبتلى في هذه الحالة إما أنه لا يحصل على شيء أو إن حصل عليه يُؤخذ منه و كلها من باب الامتحان.

و المراد بـ«نقص الأنفس» الذي يعدّ من الابتلاءات الإلهية هو القتل في سبيل الله أو أعم منه و من الموت الطبيعي لأنها بأجمعها من مصاديق «نقص النفس»، كما أن المقصود من «نقص الثمرات» إما أن يكون الثمر الاقتصادي و

---

١. سورة قريش، الآية ٤.

٢. سورة البقرة، الآية ١٥٥.

لاسيما المحاصيل الزراعية و ثمار الأشجار، أو الأولاد نظراً إلى ما يقال من أن الأولاد ثمار القلوب و بالإمكان أن يشمل الجميع.

و لعل في ذكر الثمر بعد المال إشارة إلى أن الثمر ليس مالاً باستمرار لأن ثمار أشجار الأراضي التي لا مالك لها ليست من الأموال الشخصية.

عظمة أجر الصابرين

إن الذين يخرجون من الابتلاء الإلهي المذكور في الآية التي نبحث فيها منتصرين يدخلون في عداد الصابرين و تشملهم البشارة الإلهية و لذا قال: **﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾**[1]، و إن عدم ذكر البشرى و متعلق التبشير إنما هو لإلفات الأنظار إلى أهميتها و سعتها. فلو كانت البشارة بأمر جزئي لقال: بشّرهم بالأمر الفلاني، و أما إن كان لأجر الصبر من الأهمية بمكان لا تحدّه حدود فهو خارج عن نطاق الذكر، و أجر الصابرين كذلك لا يُحدّ و لا يُعدّ: **﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾**[2].

و إن حذف متعلق التبشير علاوة على الإرشاد إلى عظمته يدلّ على شموليته أيضاً. فهذه البشارة تشمل نعم الدنيا و الآخرة و لا تختص بالنعم الأخروية. فإن الله سبحانه يهب للصابرين في الدنيا من باب البشارة الكثير من النعم و الفضائل و الملكات الحميدة ـ التي يتعلق بعضها بالآخرة ـ و السرّ في

---

١. سورة البقرة، الآية ١٥٥.

٢. سورة الزمر، الآية ١٠.

ذلك هو أن الصبر من عزم الأمور: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[1].

و بيان ذلك أنه لا يتم أي عمل من دون تصميم و عزم و إرادة و كلّ عمل إرادي و إن كان بسيطاً مسبوق بالإرادة بيد أن بعض الأعمال من عزائم الأمور، أي أنها «مما ينبغي أو يجب أن يُعزم عليه» و لا تحقق بإرادة اعتيادية. و على الإنسان لتحقق مثل الأمور أن يفكر في عاقبتها و يتدبّر و يستشير فيها للوصول إلى الجزم حتى لا يتغلغل إلى إرادته الوهن و فتور الهمة و الكراهة و التردد و الشك و الانزجار و يكون مصمّماً على القيام به. أما الإرادة التي تتزلزل بأدنى حدث فهي ليست من الصميم الخالص و ما دامت غير خالصة لا يطلق عليها التصميم لأن «الصميم» هو الشيء المحض الخالص و لذا يُطلق على الصخرة المستحكمة التي لا يوجد فيها شقّ و لا فطور «صخرة صمّاء» و على الصديق الذي لا خلل في صداقته «صديق صميم» و على الرجل الفاقد لسمعه الذي امتلأت أذنيه و لا سبيل لنفوذ الصوت إليها «أصمّ».

و الصبر ليس بعمل طبيعي حتى يستطيع الإنسان أن يصبر من دون تصميم، إذ لابد أن يأخذ زمام نفسه بيده في كل لحظة لئلا يجرّ التردد و الكراهة و أشباهها مركز عزمه و تصميمه إلى الوهن و يسوقه إلى الجزع. فالإنسان الصابر قد حقق عبر صبره واحدة من عزائم الأمور. علماً بأن «الصابر» يطلق على من

١. سورة لقمان، الآية ١٧.

يحمل ملكة الصبر في جميع الحوادث و تكون هذه الصفة بالنسبة له ثابتة مستمرة و من هنا فإن «الصابر» صفة مشبهة، لأن للصفة المشبهة الدالة على الثبات و الاستمرار أوزان مختلفة، و إنّ وزن الفاعل و المفعول أيضاً إن دلّ على الملكة و الاستمرار كالصابر و المحمود فهو صفة مشبهة لا اسم فاعل أو اسم مفعول. و من يصبر في حادثة واحدة لا يدعى بالصابر أو «الصبور» بل يقال فيه بأنه «صَبَرَ»، أو من يجزع في حادثة واحدة لا يوصف بـ«الجزوع» بل يقال فيه بأنه «جَزَعَ».

و على أي تقدير فإن الذي يُبشّر بالنعم الإلهية دنيوية كانت أو أخروية هو من يحمل «ملكة الصبر»، و «الصابرون» المتمتعون بالبشارة الإلهية هم أصحاب الملكة و المقام لا المستودع و الحال.

عالم الطبيعة نشأة الامتحان

إن حدود عالم الطبيعة بأسرها تدخل في دائرة الامتحان الإلهي و كلّ ما يحدق بالإنسان في هذا العالم من ألم و مشقة أو رفاهية و دعة و من نوائب الدهر الحلوة و المّرة هو ابتلاء إلهي و كما أنه لا يحصل الإنسان على شيء مجاناً فإن أعطي أجراً بسبب نجاحه في الامتحان السابق فهو بداية امتحان جديد لأن الدنيا دار ابتلاء لا دار جزاء و الجزاء المحض الذي لا يرافقه التكليف و الابتلاء مختص بيوم القيامة.

و قد قال الله سبحانه في بيان أن عالم الطبيعة كله نشأة الامتحان: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[1]، فإن كلّ ما على الأرض زينة لها و وسيلة لامتحان أهلها لا زينة للإنسان. و إن نعمة الأرض و غضارتها لابتلاء الشكر، و نقمتها و ضمورها لابتلاء الصبر. أما زينة الإنسان فهو الكمال المودع في قلبه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[2]، و ما هو خارج عن نطاق نفس الإنسان و مفصول عن حقيقته لا يعدّ زينة للإنسان و إن الحُليّ و اللباس الفاخر و ما إلى ذلك زينة اليد و الجسم لا زينة النفس. فمن اكتسب العلم و التقوى و جعلهما نبراساً لحياته فقد زيّن نفسه و أما من أحيا أرضاً ميتة بالزراعة أو بنا بيتاً فقد زيّن الأرض لا نفسه. إذ ليس من المعقول أن يزدان الإنسان بازدهار الأرض و زهائها و أمثال ذلك، لأن الإنسان موجود خالد و هذه الأمور زائلة و عن قريب أو بعيد ستؤول نضارة الأرض و طراوتها إلى الأفول و الخمول: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾[3]. فمن اشتغل و التهى بما هو خارج عن ذاته فقد أضاع رأس ماله لأنه يأتي زمان يرحل عنه ما هو خارج عن هويته و يبقى ما في باطنه خالياً فارغاً.

---

١. سورة الكهف، الآية ٧.

٢. سورة الحجرات، الآية ٧.

٣. سورة الكهف، الآية ٨

و الحال كذلك حتى لو سافر الإنسان إلى الكرات الأخرى و أصبح مالكاً للمنظومة الشمسية و سائر الكواكب، إذ كما أن المزرعة و البيت و ما شابههما زينة الأرض لا الإنسان، كذلك الكواكب فإنها زينة السماء لا الإنسان: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ﴾[١]، فعلى الإنسان سواء كان أرضياً أم سماوياً أن يبحث عن الكمال في أعماق وجوده.

و قد صرّح القرآن الكريم بأن «المال» و «البنين» اللذان عبّر عنهما بالزينة: ﴿المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٢] ليسا إلا امتحان و فتنة: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[٣]، فكما أن الفقر أو نقص المال فتنة و ابتلاء: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ وَالجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ﴾[٤]، كذلك الغنى و كثرة الأموال فتنة أيضاً.

الابتلاء بالمصائب

إن وقوع أي حدث سواء كان مفرحاً أم مؤلماً هو من أجل الامتحان، بيد أن الإنسان المتوسط و الضعيف لا يتعامل مع الأحداث المفرحة على أنها امتحان و هو غافل عن هذا الجانب. و إن أغلب عباداته أيضاً تبتني على أساس العادة لا شكر الله. فمثله الغارق في عالم الطبيعة و المنافع المادية لا يؤدي شكر الحق

---

١. سورة الصافات، الآية ٦.

٢. سورة الكهف، الآية ٤٦.

٣. سورة الأنفال، الآية ٢٨.

٤. سورة البقرة، الآية ١٥٥.

بتاتاً. و من أجل أن يتوجّه مثل هذا الإنسان إلى ما وراء عالم الطبيعة يبتليه الله سبحانه بالآلام و المصائب.

ثم إن الله لا يريد تعجيل العذاب لأي أحد حتى الفراعنة، و لكن حينما لم يعد لنصيحة موسى و هارون عليهما السلام و هدايتهم و دعوتهم و تذكرتهم من قبل الله: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[1] أثر في قلوبهم القاسية أخذهم الله و لسنين متمادية بالمشقة و الجفاف و قلة المنافع الزراعية و الحيوانات و ابتلاهم بها لعلهم يتذكّرون: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[2]، و السرّ في قوله «لعلّ» هو أن التذكرة على حدّ التمهيد و لعلّ خبر عن مقام فعل الله و ذلك التمهيد لا أنها خبر عن مقام الذات الواجبة، فالترديد ناجم من إمكانية تأثير هذه التذكرة و بالتالي تذكّرهم، و إلا فإن الله سبحانه و تعالى في مقام الذات عالم بتأثير التذكرة أو عدمه و كذا بتأثرهم منها أو عدمه.

إن المشاكل الفردية و الجماعية امتحان إلهي و للامتحان الإلهي مراتب و درجات و كما ورد في الآية التي نبحث فيها فقد كان الابتلاء أولاً شيء من الخوف و الجوع و قد يصل في مرتبته العالية إلى درجة من القوة و الشدة يصاب المؤمنون فيه بزلزال شديد. حيث يقول الله في القرآن الكريم بهذا الشأن: ﴿إِذْ جَآءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ

---

١. سورة طه، الآية ٤٤.

٢. سورة الأعراف، الآية ١٣٠.

الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾[1]. ففي هذا الابتلاء الذي يزلزل الإنسان حتى آل بالمنافقين و ضعاف الإيمان أن يتركوا الساحة: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾[2]، تجد المؤمنين أهل استقامة و صبر و ثبات: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[3].

و إن مثل هذا الابتلاء لا يختص بأمة و فئة كما يقول الله سبحانه مخاطباً المؤمنين في المدينة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾[4]. و إن هذه الآيات تحتاج إلى مزيد من التدبّر لأن عبارة ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ...﴾ تخاطب من كانوا يصلّون الصلوات الخمس في أشرف المساجد بعد المسجد الحرام و هو مسجد النبي و بإمامة أفضل إمام في العالم و هو الرسول الأكرمﷺ و يسمعون حديثه و مواعظه و يصافحونه. فيقول لهؤلاء: حسبتم أن تدخلوا الجنة بأعمالكم هذه من دون ابتلاء و امتحان.

---

١. سورة الأحزاب، الآية ١٠-١١.

٢. سورة الأحزاب، الآية ١٢.

٣. سورة الأحزاب، الآية ٢٣.

٤. سورة البقرة، الآية ٢١٤.

و هناك آيات أخرى تدلّ على أن المصائب من وسائل الامتحان الإلهي و هي التي تتحدّث عن مسائل الحرب و صعابه قائلة: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾[1].

ملاحظة: الابتلاء بالخوف و الجوع غير الجزاء و العقوبة بهما و هذا ما هو مشهود بالكامل من قولة تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾[2]، و هناك فرق كبير بين هاتين الآيتين، ففي إحداهما ابتلاء و في الأخرى جزاء، و في إحداهما ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ و ...﴾[3] و في الأخرى عنوان الخوف و الجوع، و في إحداهما إشارة إلى اللباس و إحاطة العذاب و اشتماله و في الأخرى التي هي موطن البحث إشارة إلى غير ذلك[4].

الابتلاء بالنعمة

إن الله سبحانه كما يبتلي الإنسان بالفقر و الأخذ و نقص النعمة يبتليه أيضاً بإعطاء النعمة كالمقامات الظاهرية و الباطنية و الانتصار و التمكّن و المال و الأولاد و كثرة الثمرات، علماً بأن الحياة الدنيا على حدّ البرعمة و لا تثمر أبداً، لأن شجرة الدنيا قد غُرست في مكان بارد و براعمها قبل أن تتحول إلى ثمرة تصاب ببرد قبل أوانه و تسقط، و لذا لا تجد أحداً قطف ثمرة من شجرة الدنيا،

---

١. سورة محمد، الآية ٣١.

٢. سورة النحل، الآية ١١٢.

٣. سورة البقرة، الآية ١٥٥.

٤. تفسير التحرير و التنوير، ج ٢، ص ٥٣، مع شيء من التغيير.

سوى أن هذه البرعمة أيضاً وسيلة للامتحان كما قال الله سبحانه: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[١].

فإن التمتع بالأموال و الأولاد و وفرتها و كثرتها للكفار و المنافقين ضرب من العذاب: ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[٢] و لغيرهم ابتلاء ليس إلا و إن كانوا لا يشعرون بذلك و يحسبونه خيراً لهم: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾[٣]، و الحال أن الخير هو الخشية و الإيمان و الابتعاد عن الشرك و عبادة الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[٤].

و الحاصل أن الدنيا قد امتزج فيها الحقّ و التكليف و كلها ابتلاء سواء كانت من السرّاء أو الضرّاء، و حتى لو استجيب دعاء امرئ و حلّ به الخير و البركة فهو له ابتلاء لأن الخير و البركة تستجلب المسؤولية، و على هذا الأساس و إلى جانب بيان تمتع أهل الاستقامة بالرزق الكثير، ذكر الله سبحانه بأنه ابتلاء و فتنة

---

١. سورة طه، الآية ١٣١.

٢. سورة التوبة، الآية ٥٥.

٣. سورة المؤمنون، الآية ٥٥-٥٦.

٤. سورة المؤمنون، الآية ٥٧-٦١.

قائلاً: ﴿وأَن لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[1]. و لذا لا تجد شخصاً حتى المستجاب دعاؤه في الدنيا و نشأة التكليف خارجاً عن دائرة الامتحان الإلهي، لأن هناك بإزاء كل نعمة مسؤولية تدل على أنها ابتلاء، و على هذا الأساس فإن تنعّم المتقين أيضاً لا يخلو بتاتاً عن وقوع المسؤولية على عاقتهم.

و من هنا فإن البركات السماوية و الأرضية و إن كانت وليدة التقوى ـ علماً بأن النعم و الرفاهية التي غمرت الكفار و الفاسقين إنما هي تمهيد لعذابهم ـ و لكنها ليست عارية عن المسؤولية و من باب الأجر الأبدي. و البركات السماوية تشمل نزول المطر في أوانه و سطوع الشمس و أمثالهما و كذا العلوم و المعارف الغيبية التي يُلقيها الله على قلوب المؤمنين: ﴿هُوَ الذي يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[2]، كما يمكن أن تشمل البركات الأرضية صلاحية الأرض للزراعة و كذا العلوم المدرسية التي يُستعان في تعلّمها من الكتاب و الأستاذ و البصر و السمع.

الابتلاء بالخير و الشرّ

إن الحوادث بأسرها امتحان إلهي سواء كانت مفرحة أو مؤلمة. فيبتلي الله سبحانه البعض بالرفاه و البعض الآخر بالمشقة كما يقول: ﴿وبَلَوْنَاهُم بِالحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3]، و يقول أيضاً: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنَةً﴾[1].

---

١. سورة الجن، الآية ١٦-١٧.

٢. سورة الأحزاب، الآية ٤٣.

٣. سورة الأعراف، الآية ١٦٨.

و السرّ في تقديم ذكر الخير على الشرّ في هذه الآية هو أن امتحان الشدة لدى أكثر الناس أهم من امتحان الرخاء، و الحال أن امتحان الرخاء إن لم يكن أقوى و أشدّ من امتحان الشدة فهو ليس بأسهل منه على اليقين لأن الشكر يساوي الصبر إن لم يكن أشدّ منه، و سبب ذلك هو أن الغنيّ المرفّه غالباً ما تراه يطغى و يمتنع عن أداء الحقوق الإلهية إلى بيت المال و المبتلى بالشدة و البلاء بدلالة الكثير من الآيات و الروايات يعلم أنه في حال الامتحان، أما المرفّه المتنعّم لا يعلم أنه في موضع الابتلاء الإلهي و لذا يكون غافلاً. و قد روي في هذا الشأن عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «من وسّع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مُكر به فهو مخدوع عن عقله»[2]، «... من وسّع عليه في ذات يده فلم يَرَ ذلك استدراجاً فقد آمن مخوفاً»[3].

ثم إن الله لا يهب أي نعمة لأحد من دون مسؤولية و ابتلاء بيد أن الإنسان الساذج الفكر حينما يُبتلى بالشباب و السلامة و القدرة يقول: إن الله أكرمني، و عندما يُبتلى بالمرض و الشدّة يقول: إنّ الله أهانني، و الحال أن كلا الحدثين ابتلاء كما أن الله سبحانه قد عبّر عن كلتا الحادثتين بـ«الابتلاء»: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ * كَلَّا﴾[4]. فلا يوجد فرق بين الإنسان السالم و المريض

---

۱. سورة الأنبياء، الآية ۳۵.

۲. المفردات، ص ۱٤٥-۱٤٦، «ب ل ى»؛ بحار الأنوار، ج. ۷۲، ص ۲۸٦.

۳. نهج البلاغة، الحكمة ۳۵۷.

٤. سورة الفجر، الآية ۱۵-۱۷.

من منظار المعارف القرآنية، فمن ابتُلي بالسلامة عليه أن يكون شاكراً و من ابتُلي بالمرض عليه أن يكون صابراً و صعوبة الشكر لا تقلّ عن مشقة الصبر لأن الشكر الحقيقي هو صرف كلّ نعمة في موضعها المناسب و يمكن معرفة هذه المناسبة من خلال الدليل العقلي أو النقلي.

و الشاهد الآخر على هذا المعنى و هو أن كلا الحالتين المذكورتين امتحان إلهي، الآية التالية: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾[1]، فإن الله يطلب من الإنسان ألا يُعرض عنه في حال الرخاء و الدعة و ألا يكفر و ينكر الجميل في حال الشدة و إلحاق الضرر به. فإن هذا المضمون الشامل شاهد على أن كلتا الحالتين ابتلاء، فإن غمرت الإنسان رحمة لا ينبغي أن يعتبر نفسه مستحقاً لها، لأن الحسنة أو دعاء الخير السابق لها و المزعوم أنه الأساس لهذا الاستحقاق أيضاً نعمة من الله و مشمول لهذا الأصل العام و هو ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّـهِ﴾[2]، كما قال الإمام السجاد﴿ع﴾: «كلّ نعمك ابتداء»[3].

و يقول القرآن الكريم في الاستنتاج من المباحث المذكورة: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[4].

---

١. سورة الشوري، الآية ٤٨.

٢. سورة النحل، الآية ٥٣.

٣. الصحيفة السجادية، الدعاء ١٢.

٤. سورة الحديد، الآية ٢٢-٢٣.

هذه الرؤية التوحيدية تبعث على راحة الإنسان و استقراره في الحياة لأنه يعلم أن الدهر يظهر في كلّ يوم بلون و مظهر خاص، يوم له و يوم عليه و كلاهما امتحان و لذا لا يرى نفسه مستحقاً في حال الرفاه و التمكّن و لا يتفاخر بذلك كما و لا يغتمّ في حال زوال المكنة أيضاً و لا يُهزم و لا يوقع نفسه في التعب و المشقة.

خطر الغفلة عن الامتحان الإلهي

تقدّم أن الامتحان في حالة الشدة سهل و قابل للتحمّل لعلم الإنسان بأنه مبتلى، بخلاف حالة الرخاء التي تحول المتمتع بها عن إدراك كونها ابتلاء و تؤول به إلى الغفلة، و من هنا فإن أولياء الله لا يطلبون المسائل الرفاهية في الأغلب و إنما يطلبون من الله الحسنة في الدنيا و الآخرة: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً**﴾[1]، و حسنة الدنيا هي الرفاه المقرون بالشكر لا الرفاه المقترن بالغفلة و الطغيان.

و قد أشار القرآن الكريم في تبيانه لإحدى السنن الإلهية إلى هذه المسألة قائلاً: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شيء حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُبْلِسُونَ**﴾[2].

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٠١.

٢. سورة الأنعام، الآية ٤٢-٤٤.

إشارة: إن السبب فـي التعرض لمثل هذه المعارف الإسلامية فـي بحث البيئة هو أن سلامة البيئة منوطة بسلامة المجتمع الذي يعـيش فيهـا و سـلامة المجتمـع مرهونة بسلامة ثقافته و آدابه و سننه و القانون المتداول فيه و سلامة كـل هـذه الأمور مربوطة بالإيمان بكرامة الإنسان و كرامة الإنسان مدينة لخلافتـه لله. لأن خليفة الله الكريم يتصف بالكرامة و خلافة الإنسان فـي صيانة روحه المجـردة و الملكوتية التـي نُفخت فيه من قبل المستخلف عنه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[1] و سلامة كيان الروح المجردة فـي الاعتقاد الراسخ بالأصـول و المعـارف الدينيـة و فـي التخلّق بأخلاق الشرع المبين و فــي الالتـزام و التـديّن العملـي بالفقـه و الحقوق الإلهية و فـي مثل هذه الظروف تتكـوّن بيئـة سـالمة مـن أي ضـرر و مصونة من أي خطر لا محالة.

---

١. سورة الحجر، الآية ٢٩.

الفصل الرابع

العمل فــي الطبيعة

و تأثيرها فــي سلامة البيئة

دور العمل فـي سلامة البيئة

واحدة من أبعاد سلامة البيئـة هـي حركـة و نـشاط أفـراد المجتمـع، و إنّ السكون و الركود من الآفات التـي قد يكون لها أثر سوء علـى الفـرد و علـى المجتمع كذلك.

فعلى الإنسان أن يكون دوماً فـي جهد و سـعي للوصـول إلى التعالـي و التكامل:

و مـا نيـل المـطالب بالتـمنى	و لكـن تؤخـذ الـدنيا غلابـا
و ما استعـصى علـى قـوم منـال	إذا الإقـدام كـان لهـم ركابـا[1]

و إن قيمة العمل لا تقتصر على تحصيل الأموال بل تتبعها آثـار كاكتـساب الشخصية و الشعور بالاستقرار النفسي و أن يكون مفيداً للمجتمع بالإضـافة إلى أنه يمتثل تكليفه الإلهي، لأن الإنسان العاطل عن العمل من جانب يصاب بالكآبة لما يرى من نفسه أنه عالة علـى أفـراد الأسـرة و المجتمـع و يُبتلـى بـالأمراض النفسية و الأمراض الجسدية كذلك و من جانب آخـر يقـع مـورداً لغـضب الله

١. أصل البيت بالفارسية للشاعر سعدي فـي كتابه كليات سعدي، قسم القصائد، و هذان البيتان لأحمد شوقي تشبهان البيت

أيضاً: «إن الله ليبغض العبد الفارغ»[1]، و من هنا لابدّ من تبيان أهمية العمل و الكدّ و دوره في سلامة البيئة أيضاً.

أهمية العمل في الإسلام

يُذكر العمل في نظام الإسلام القائم على أساس القيم و المبادئ بوصفه سرّ الخلقة و حكمة الوجود. و إن الإنسان ليُظهر جوهرته الوجودية من خلال الجدّ و الجهد و يحدّد قيمته الحقيقية عبر العمل.

فقد خلق الله سبحانه الإنسان و أودع فيه الروح المنسوبة إليه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[2] و سخّر له كلّ ما هو ضروري لاكتساب الكمالات الروحية و المادية: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّماوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[3] و وصفه بالكرامة و الفضل على الكثير من المخلوقات: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[4]. كما و أنشأه من الأرض ليقوم عبر الجدّ و الكدّ بإعمارها: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فيها﴾[5] و يتعرّف عبر أعماله الصالحة على حكمته الوجودية و يتصدي لاكتساب كرامته النفسانية. من أجل أن تتحقق سلامة البيئة و تكاملها في ضوء العمل لإعمار الأرض و معرفة النفس.

---

١. وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٥٨.

٢. سورة الحجر، الآية ٢٩.

٣. سورة لقمان، الآية ٢٠.

٤. سورة الإسراء، الآية ٧٠.

٥. سورة هود، الآية ٦١.

فإن عزة أي شعب و كرامته و استقلاله و سلامته و أمنه مرهون بهمته و جهده، كما و أن ذلة كلّ شعب و دناءته و خموله و عدم استقرار الأمن فيه وليد كسله و ركونه إلى الراحة و الدعة و بطالته.

و يمكن استنباط أهمية العمل و قيمة الاشتغال في إسناد العمل إلى الله. فإن القرآن الكريم يُسند القيام بأعمال مختلفة إلى الله في مواطن كثيرة و يقول في بعض الآيات على نحو جامع و شامل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[1]، فإن الله في كلّ يوم بل و في كلّ ظهور و تجلّ يظهر بعمل جديد. و إن أفعاله غير مكررة و لا يشابه أحدها الآخر، لأنه في حال الإيجاد على الدوام و لكلّ موجود ميزة خاصة يمتاز بها عن غيره و لذا فإن تجلي الله لا يقبل التكرار و كلّ المخلوقات لا تعرض احتياجاتها إلا عليه: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2]، و إن تلبية الطلبات بأجمعها مختصة بالله و فكّ العقد بأسرها منوط بإرادته: ﴿وَآتَاكُم مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[3].

العلاقة بين العمل و الرؤية الكونية

إن رؤية الإنسان للعمل تضاهي رؤيته لعالم الوجود، فمن يعتبر أن جميع المخلوقات منحصرة في النطاق المادي و لا يتعرف رسمياً في مجال علم المعرفة إلا بطريق الحسّ و التجربة، يزعم أن العمل محدود بالإنتاج المادي و الاستهلاك

---

١. سورة الرحمن، الآية ٢٩.

٢. سورة الرحمن، الآية ٢٩.

٣. سورة إبراهيم، الآية ٣٤.

المادي، و أما العارف بالثقافة القرآنية يعلم أن القرآن قد قسّم الوجود إلى غيب و شهادة و تبعاً لذلك تنقسم المعرفة إلى هذين القسمين و العمل أيضاً كذلك. و على هذا الأساس فمن يرى الوجود أكبر من المادة ينظر إلى العمل أيضاً بنظرة أكثر شمولية و سعة و يوسّع دائرة نشاطاته عبر تقديسه بالرؤية المعنوية.

سعة دائرة العمل

إن من التكاليف المستمرة في كلّ يوم هي النشاط الإنتاجي و التكسّب و العمل من خلال السيطرة على الطبيعة و استخدامها. يقول الله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً﴾[1]، و يقول أيضاً: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾[2].

و إن دائرة عمل البشر لا تتحدد بنقطة خاصة بل يمتدّ ميدان الجهد و الجدّ من أعماق البحار إلى أوج السماء و سعة البراري و الصحاري: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ﴾[3]، ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[4].

و لابد من الالتفات هنا إلى أن العمل لا يقتصر على النشاط البدني، بل إن العالم الذي يسعى عبر علمه و بحثه لحلّ مشاكل المجتمع العلمية أو الطبيب الذي

---

١. سورة النبأ، الآية ١١.

٢. سورة المزمل، الآية ٧.

٣. سورة الملك، الآية ١٥.

٤. سورة النحل، الآية ١٤.

يداوي المرضى أو المهندس الذي يُخطّط المشاريع الفنية أو طالب العلم الذي يجتهد في سبيل اكتساب العلم و ....، كلّ واحد من هذه الجهود العلمية و الأبحاث الدراسية مصداق بارز للعمل مع اختلاف في قيمتها و أهميتها.

الجهد الجادّ و المستمر

إن من تأكيدات الإسلام المهمة إلى الناس هي ألا يتوقفوا عن الاجتهاد و العمل في أي زمن من حياتهم. و على الإنسان دوماً خوض ميدان الجهد و الجهاد بصورة جادّة و مستمرة في مختلف عرصات حياته ـ و منها العمل لتأمين متطلباته الاقتصادية و المعيشية ـ ليتأتى للمجتمع الديني في ضوء هذه الجهود و المساعي الوصول إلى الصلاح من الناحية الفردية و نيل الأهداف السامية من الناحية الاجتماعية.

و قد ورد في بيان نوراني للرسول الأكرم ﷺ تبيين ميزان عمل المسلم في حياته جلياً حيث يقول: «إن قامت الساعة و في يد أحدكم الفسيلة فإن استطاع أن لا تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها»[1].

فبالاستناد إلى هذا البيان ينبغي على الإنسان أن يعمل مادام على قيد الحياة و على كلّ فرد في المجتمع الإسلامي أن يبذل جهده و سعيه بمقدار استعداده و استطاعته.

---

١. مستدرك الوسائل، ج ١٣، ص ٤٦٠؛ كنز العمال، ج ٣، ص ٨٩٢.

فالمزارع فـي إنتاج المحاصيل الزراعية و الصانع فـي الإنتاجات الصناعية و المعلّم فـي التعليم و المحقق فـي التأليف و التدوين، و على الجميع أن يبذل كـلّ ما بوسعه للقيام بتكاليفه كمّياً و كيفيّاً و أن يعملوا حقيقة بمقدار استطاعتهم.

و من جانب آخر فكما أُمر الناس ـ طبق التعاليم الإلهية ـ بالجهد فـي مجال الإنتاج و رُغّبوا على ذلك، مُنعوا أيضاً من الكسل و التقاعس عن العمل بحيث أن الشخص العاطل عن العمل و بواسطة ابتعاده عن الجدّ و الكـدّ فـي المجتمع الإسلامي إضافة إلى أن له تأثير سيء فـي سلامة العائلة نفسياً و سلامة البيئة، قد استجلب لنفسه أكبر تهديد و شقاء فـي نظام الخلق و هو غضب الله كما قال الإمام الكاظم عليه السلام: «إن الله ليبغض العبد الفارغ»[۱].

و قد عُدّ التكاسل و التقاعس فـي روايات أهـل البيت عليهم السلام مـن أبغـض الخصائص الأخلاقية التـي تضيع دنيا الفرد و تفسد آخرته، فقد ورد عن الإمـام موسى بن جعفر عليه السلام فـي هذا الشأن أنه قال: «إياك و الكسل و الضجر فإنهمـا يمنعانك من حظّك من الدنيا و الآخرة»[۲].

فعلى الإنسان أن يكون مفيداً للمجتمع عبر الكدّ و العمل ما دام علـى قيـد الحياة و أن يقوم بالعمل الـذي فـي عُهدتـه و بمقـدار اسـتطاعته علـى النحـو الأحسن سواء كان فـي مجال الزراعة أو تربية الحيوانات أو الصناعة أو الأعمال الثقافية و العلمية. و أما البطالة فهي مرفوضة من قبل المجتمع و مبغوضة من قبل

---

۱. وسائل الشيعة، ج ۵، ص ۸۵

۲. الكافـي، ج ۵، ص ۸۵

الله، و من هنا فإن دعـاء الإنـسان العاطـل لا يـستجاب. إذن فجميـع الأفـراد مكلّفون بالعمل كلّ بمقدار قدرته الجسدية و الفكرية و بالطبع فإن مقدار العمـل المُتوقّع من الشاب لا يُنتظر من الشيخ الكبير.

علماً بأن هناك روايات كثيرة فـي هذا المجال تبيّن من خلال الرؤية الشاملة لها قيمة الجهد و العمل البالغة فـي المدرسة الإسلامية، و لكـن رغـم كـلّ هـذه التأكيدات يسعى البعض لإنكار نظـرة الـدين الإيجابيـة إلى الجهـود الفرديـة و الجماعية المبذولة لاكتساب أمور الحياة المادية. و يتمسّكون لـذلك بالتأكيـدات القرآنية و الروائية على منع المؤمنين من «طلب الدنيا» و أمرهم بالابتعـاد عـن المظاهر الدنيوية و عدم التعلّق بها.

و إن الرواية التالية على ما يبدو تبيّن جلياً بطلان التوهّم المذكور أعلاه فـي قالب التغاير بين طلب الدنيا ـ المذموم حقيقة ـ و السعي لتحصيل أمـور الحيـاة المادية ـ المحمود حقيقية ـ قال محمد بن المنكـدر: خرجـت إلى بعـض نـواحي المدينة فـي ساعة حارة فلقيت محمد بن علي ... و هو متكئ علـى غلامـين لـه أسودين أو موليين، فقلت فـي نفسي شيخ من شيوخ قريش فـي هـذه الـساعة على هذه الحال فـي طلب الدنيا أشهد لأعظنّه فدنوت منه فسلّمت عليه فـسلم على ببهر و قد تصبّب عرقاً فقلت: أصلحك الله شيخ من أشـياخ قـريش فـي هذه الساعة على هذه الحال فـي طلب الدنيا لو جاءك الموت و أنت على هـذه الحال ... قال: «لو جاءنـي و الله الموت و أنا فـي هذه الحال جاءنـي و أنا فـي طاعة من طاعات الله تعالى»[1].

---

١. بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٨٧.

فكم هناك فرق بين هذا الزعم و هو أن توفير مستلزمات الحياة المادية ضرب من التخلّف عن الأوامر الإلهية و التخطي عن طلب الآخرة و الإيمان الحقيقي بالمعاد و بين هذه المعرفة الحكيمة و هي أن مثل هذا السعي يعدّ طاعة من طاعات الله و قد وردت تأكيدات كثيرة على ترغيب آحاد المجتمع عليه، و لاسيما الأمور التي يؤدي تركها إلى عواقب جسيمة في دنيا الفرد و آخرته.

عظمة الخلقة و الدنيا المذمومة في ثقافة الوحى

إن الذي يُبعد الإنسان عن ذكر الله و يظهر بمظهر الذنب و تتصاعد منه رائحة المصيبة المتعفنة هو الدنيا، و من هنا فإن الدنيا المذمومة في ثقافة الوحي غير السماء و الأرض و البحار و القفار التي هي مخلوقات و آيات إلهية و قد تحدّث عنها القرآن بعظمة قائلاً: ﴿إِنَّ فِي السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1]، ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾[2]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الالبَابِ﴾[3].

فقد تحدّث القرآن الكريم كراراً عن جمال السماء و الأرض، و إن البحار و القفار و سلسلة الجبال و الأشجار و سمك البحر و كواكب السماء و ... في ثقافة الوحي آيات إلهية و ليست من الدنيا. ثم إن الحياة الدنيا في قبال الحياة

---

١. سورة الجاثية، الآية ٣-٤.

٢. سورة الذاريات، الآية ٢١.

٣. سورة آل عمران، الآية ١٩٠.

الآخرة و إن تُطلق على هذه الأمور و لكن لم يرد الذمّ في أي واحد منها. فالدنيا هي التعلّقات و الاعتبارات و الأنانيات التي تسوق الإنسان إلى اقتراف الذنوب. و الدنيا هي عبارة عن اللهو و اللعب و الزينة و التفاخر و التكاثر في الأموال و الأولاد: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ﴾[1]. فالدنيا تتلخّص في هذه المراحل الخمس و تخدع كلّ إنسان و بأيّ مستوى من العمر عبر وسيلة خاصة و هذا الخداع سمّ للروح و الروح المسمومة في عذاب إلى الأبد و قد أرسل الله سبحانه و تعالى لكونه «أرحم الراحمين» أطهر الناس و أصلحهم بوصفهم أطباء للروح.

إذن فإن الله سبحانه قد اعتبر الحياة الدنيا لعب و لهو و زينة و تفاخر بين الناس و تكاثر في الأموال و الأولاد. فـ«اللعب» و «اللهو» و «الزينة» و «التفاخر» و «التكاثر» هي الأدوار الخمسة التي تمرّ على عمر الإنسان. و لا ينبغي لتأمين البيئة الاقتصار على هذه الحقول الخمسة و الغفلة عمّا وراء الطبيعة.

و فيما يلى شرح للأدوار المذكورة:

الأول: مرحلة «الطفولة» التي يقضى الفرد فيها حياته باللعب.

الثاني: مرحلة «النشوء» التي يتم فيها استبدال اللعب باللهو فيبحث الإنسان عن ما يُلهيه و يغفل عن المسائل الجادّة.

---

١. سورة الحديد، الآية ٢٠.

الثالث: مرحلة «الشباب» و هي فصل الهياج و الحبّ و الميل إلى الزينة و المسائل الكمالية. فالإنسان في مرحلة الشباب يهتمّ كثيراً بالزينة و الترتيب الظاهري و ارتداء الثياب الفاخرة و المظاهر الباهرة.

الرابع: مرحلة «الكهولة». فالإنسان بعد مضيّ مرحلة الشباب و العبور من سنّ الأربعين لا يهتم كثيراً باللباس الجيّد الفاخر بل يلتهي بالتفاخر و ينشغل بالمناصب و المقامات و الألقاب.

الخامس: مرحلة «الشيخوخة». و في هذه الفترة غالباً ما لا يكون للشخص منصب في المجتمع و لا يوصف بالألقاب، و لذا يتّجه صوب التكاثر و يخادع نفسه بكثرة الأولاد و الأحفاد و جمع الأموال.

جدير بالذكر أن شخصية بعض الناس قد تتوقف في المرحلة الأولى و الثانية و يبقى في شيخوخته أيضاً مشتغلاً باللهو و اللعب. و البعض الآخر يبقي في مرحلة الزينة و التجمّل و يضلّ مأنوساً إلى آخر عمره بالكماليات و اللهو و اللعب و تبقى روحهم و طلباتهم طفولية.

و إن الدنيا التي طلّقها أمير المؤمنين علي عليه السلام ثلاثاً هي هذه الخيالات و الأوهام و التفاخر و التكاثر التي باطنها بمثابة الميتة المنتنة التي يتكالب عليها الظالمون كالكلاب كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «يتنافسون في دنيا دنية و يتكالبون على جيفة مريحة»[١].

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٥١.

فمن يشهد باطن الدنيا لا يتعلق بهذه الميتة بل و يُطلّقها ثلاثاً لا رجعة فيها. و لأن يفتح الإنسان عين قلبه و يشهد ميتة الدنيا عليه السعي لأن لا يصبح ميتة بنفسه، فالإنسان المغترّ بالدنيا الذي يُشبع بطنه بالأكل و يكثر نومه لا يتيسّر له الوقوف على أسرار العالم و باطنه لأن مصير البدن إلى الميتة: «فصار جيفة بين أهله»[1] و كلّ أفراد العائلة يضعون أيديهم على أنفهم من ريح الشخص الميت المتعفنة و يفرّون منه و يسعون لدفنه في أسرع فرصة.

فمن المؤسف أن يتبدّل الإنسان إلى ميتة قبل أن يفهم بأن الطبيعة ميتة في حقيقتها، كما يقول الإمام علي عليه السلام: «إنه يموت من مات منا و ليس بميّت و يبلى من بلي منا و ليس ببال»[2]. فإن الإنسان يستطيع عبر الابتعاد عن الدنيا أن ينجو من التبدّل إلى ميتة و أن يبقى بعد الموت أيضاً حياً نورانياً.

و قد عرّف الله الدنيا المذمومة قائلاً: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً﴾[3].

و بما أن المَثَل غير المُمثّل، يتضح أن الأمور الطبيعية لا تماثل فصول الدنيا الأربعة، فإنها آيات الله المنتظمة و الحسنة، أي أنّ الخريف في موضعه يتصف بالحسن و الجمال كالربيع في موضعه، إذ لو لم يكن الخريف و الشتاء لما كان الربيع، بيد أن الأنانيات التي تبعث على النشوة أياماً قليلة ثم تؤول إلى الأفول و الخمول هي الدنيا التي لها جاذبية كاذبة.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٠٩.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٨٧

٣. سورة الحديد، الآية ٢٠.

إصلاح و إعمار الدنيا و الآخرة

يزعم البعض أن فلسفة التكليف الإلهي للعباد ليست إلا إعمار الآخرة. فمن كان من أهل الصلاة و الصوم و الحج و الزكاة عليه أن يُفكّر بإصلاح آخرته و لا ينبغي أن يشغله أي شاغل في الأمور الدنيوية لأنه يتخلّف عن العمل للآخرة، فقاموا بتعزيز هذا التصور الآفل و الزعم الفائل و تبليغه من أن أهل الدين لابد و أن يتركوا الدنيا إلى غيرهم و يحافظوا على الآخرة بشكل جيد، و كأنّ رحى التكليف تدور حول الآخرة لا غير و الدنيا خارجة عن نطاقه. ثم وسّعوا دائرة زعمهم و قالوا: الهدف من الدين و بعثة الأنبياء هو الدعوة إلى الآخرة و عبادة الله فقط لا إصلاح الدنيا و إعمارها، و فوائد التكاليف تظهر و تتجلى في الآخرة لا في الدنيا. و على الديانين أن يبرمجوا لآخرتهم و أن يتركوا الدنيا بيد العقلاء في المجتمع.

إن هذا التحليل ناهض من فكرة فصل الدنيا عن الآخرة و يحتاج في موضعه إلى جواب مستدلّ. و إن من أهداف الدين المهمة هي الإجابة على إشكال فصل الدنيا عن الآخرة و زعم اختصاص دور الدين بإصلاح الآخرة، و قد توصّل هؤلاء إلى هذه النتيجة الباطلة عبر توهّم الفصل بين العقل و الدين و هو ناتج من مقدمات وضعوها خاطئة و باطلة. فإن العقل غير مفصول عن مصادر معرفة الدين، بل هو جزء رسمي من تلك المصادر و منشأ للتعاليم الإلهية و التكاليف الدينية. و إن العقل و النقل المعتبر يشكّلان أساس معرفة الدين و المتعبّدون بالتكاليف الإلهية هم من العقلاء بل من أعقل أفراد المجتمع.

و لا يصحّ أن يقال بأن إصلاح الدنيا على عاتق المثقفين و أهل الدين لابد و أن يفكّروا بإعمار آخرتهم و يشهدون آثار تديّنهم هناك، أو أن يقال بأن التكليف للمكلفين يبعث على الجمود و الركود و السكون و الحال أن إصلاح الدنيا بحاجة إلى حركة و نهضة و ثورة.

و إن مثل هذا الحكم على أهل الدين من قبل طائفة خاصة بإمكانه أن يكون وليد التجاهل عن عمد أو الغفلة أو النظرة السطحية للدين و ما إلى ذلك و عبر مزيد من التدقيق و التعمّق في النصوص الدينية يمكن الاستنتاج بأن الهدف من التكليف هو إصلاح و إعمار الدنيا و الآخرة. فإن السير في مسير الدين و إجراء أحكامه بالإمكان أن يُؤمّن المنافع الدنيوية و أن يضمن المنافع الأخروية أيضاً، و لكن لابد من الالتفات إلى هذه المسألة و هي أن منافع الدنيا لا تتحدّد باللذات الصورية و التصنعية، و إن كان هناك اختلاف و صراع في هذا الشأن فهو لا يرتبط بأصل المسألة بل لعله يعود إلى مفهوم المنافع.

التأكيد على الدافع الإلهي عند العمل في الطبيعة

يتعامل الإسلام مع حسّ المنفعية لدى الناس تعاملاً إيجابياً و لكنه يرفض الإفراط و التطرّف فيه. و ينبغي لتبيين رأى الإسلام الدقيق في حسّ المنفعية الإشارة إلى معلم آخر في هذا المجال. فإن مدرسة الإسلام الإلهية لا تُحبّذ التوقّف عند مثل هذا الحسّ و لاسيما للذي يطلب كمالاته الإنسانية و الروحية، و ترى ضرورة ارتقاء الهدف لدى الأشخاص من الأمور المادية و المنافع

الشخصية إلى الدوافع الإلهية السامية، لأن الإنسان في تعاليم الإسلام الإلهية لا يتقرّب إلى الله من خلال الدعاء و الصلاة و الصيام و أداء مناسك الحجّ فحسب، بل قد تكون شؤون حياته العرفية و الطبيعية ـ كالمعاملات و تأمين المعاش و ... ـ سلّماً للتقرب إلى الله و سبباً لتكامله الروحي و المعنوي.

و هناك ثمة روايات في هذا المجال تنبأ عن وجود العلاقة بين الأمور المعيشية و المعنوية كالتي تقول بأن الكادّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله[1] أو أنه طلب الآخرة[2].

تؤكّد هذه الإشارات و التنبيهات على إمكانية تقرّب الإنسان إلى الله في ضوء التمتّع بالأمور الظاهرية و الدنيوية فيتعلّم الناس القيام بسدّ احتياجاتهم المادية و تدبير أعمالهم الاقتصادية و المعيشية و عدم التغافل أيضاً عن تعزيز الجانب الإنساني و القرب إلى الله، و قد قال الله واصفاً هؤلاء: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[3]، إذ لا يوجد من الأساس تناف و تناقض بين مقولة التجارة و النشاط الاقتصادي و بين ذكر الله و بالإمكان أن تسير بأجمعها صوب اتّجاه واحد و نحو هدف واحد.

و ترد هنا مسألتان مزعومتان لابد من إماطة اللثام عنهما:

١- يتصوّر البعض أنّ دين الله الذي يُرغّب الناس على مراتب أسمى من الدوافع و النيات و يطلب منهم ألا يعطفوا تمام همتهم إلى الأمور المادية و

---

١. راجع: وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٦٧.

٢. راجع: وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٣٤.

٣. سورة النور، الآية ٣٧.

اكتساب المنافع الفردية فحسب و أن يُفكّروا بالكمالات الإنسانية و يعتبروا الدنيا معبراً للتقرب إلى الله، يسبّب بذلك إعراض الناس عن الاهتمام بالمسائل الاقتصادية، و الحال أن التأمل في ما ذكرنا سابقاً قد يؤدى حتى إلى الخروج بما يخالف هذه النتيجة لأن التعاليم الإلهية لا تدعوا الإنسان إلى إزالة و تضعيف دافعه في إنجاز الأعمال الاقتصادية بل تحرّضه على استبداله بمراتب أسمى و أقوى من دوافعه الخيالية و الطبيعية.

و لا شكّ أنّ الدوافع المادية و الدنيوية لا تصل قطّ إلى قوّة الدوافع الاعتقادية و القلبية و ميزتها و إنّ الأشخاص الذين يحملون دوافع اعتقادية يصلون إلى أهداف أشدّ و أقوى بمراتب من الأمور الدنيوية، و لذا إن كانت النشاطات الاقتصادية تُساندها مسائل اعتقادية و معنوية فلا شك أنها ستتصف بمزيد من القابلية و الجودة، و بما أن الإنسان المعتقد لا يحصر نتيجة أعماله بسدّ احتياجاته المادية و يرى مزيداً من القيمة لثمرات نشاطاته، يبذل سعيه و جهده بهمة و جدّية مضاعفة.

٢- يزعم البعض أن الإسلام الذي أوصى الناس بأن لا يحدّدوا نيتهم بالأمور الدنيوية و حسّ المنفعية و ينظرون إلى مراتب أعلى، لا تتمتع الدنيا في رؤيته بقيمة بالغة و أساساً بما أن الدين ينظر إلى الدنيا نظرة تبعية و عرضية يكون إعمار الأمور الدنيوية و تنظيمها خارج عن نطاق اهتمام الإسلام و الإدلاء برأيه، ثم يستنتجون بأن الإسلام بما أنه لا يعتني بإعمار الدنيا و اهتمامه مختص بإصلاح الأمور الأخروية فمن أراد أن يستفيد من دنيا عامرة و

منتظمة لا يلزمه الرجوع إلى الدين بل يكفيه الرجوع إلى العلوم الدنيوية و التجريبية و يستعين بها لبناء حياة أمثل في الدنيا و من أراد أن يستفيد من آخرة عامرة لابد له من الرجوع إلى الدين و العلوم الدينية.

و الظاهر أن بيان كون الدنيا و الأمور الدنيوية عرضية و تبعية من منظار الدين يزيل هذا الزعم المشار إليه، و لكن للابتعاد عن البحث اللفظي من الأفضل أن نكتفي بهذا المقدار و هو أنه إن كان مراد المستشكل من تبعية الدنيا هو أن الدين لا يعدّ الأهداف المادية الصرفة موقفاً مناسباً للإنسان الطالب للكمال و لا يعتبر الدنيا الوسيلة الوحيدة لنيل الكمالات الإنسانية و يعدّ اعتبار الدنيا هدفاً يتنافى مع فطرة الإنسان الطالبة للحق فقد أشار إلى مسألة صحيحة.

و لكن لا يُعلم كيف قد تمّ الربط بين هذا الكلام و بين عدم اهتمام الدين بإعمار الدنيا. و كأنّ الغايات و الأهداف هي الجديرة بالاهتمام لوحدها و باقي الأمور، حتى الوسائط منها التي تمهدّ السبيل للوصول إلى الأهداف لا تجدر بالعناية و الاهتمام، و لكن بأدنى تأمّل يظهر بطلان هذا الزعم و أنه لا أساس له و يتضح أن عدم كون الشيء هدفاً ذاتياً لا يستلزم سقوطه عن الاعتبار و إغفاله و إهماله.

فإن للدنيا و النعم الدنيوية دور مهم جداً في الالتزام بالدين و نيل الكمالات الإنسانية و المراتب الحقيقية للإنسان ـ التي تتجلى و تظهر في الآخرة ـ بحيث أنه قد تم التعبير في الروايات عن النعم و الإمكانيات المادية

بأنها خير معين لطلب الآخرة فقد ورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال في هذا الشأن: «نعم العون على الآخرة الدنيا»[1].

و من جانب آخر فقد أشير في الروايات إلى أن المشاكل المعيشية و الضيق و الفقر من الموانع الجديّة للعمل بالدين. كما في دعاء مشهور لرسول الله صلى الله عليه وآله حيث أشار فيه إلى الخبز ـ الذي هو رمز للنعم الدنيوية ـ معتبراً فقدانه يسبب تزلزل أركان التديّن في المجتمع حيث يقول: «اللهم بارك لنا في الخبز و لا تُفرّق بيننا و بينه فلو لا الخبز ما صلّينا و لا صُمنا و لا أدّينا فرائض ربّنا»[2].

فمن خلال النظر إلى التأكيدات الكثيرة في متون الإسلام النقلية التي تعتبر الإمكانيات الدنيوية أمراً ضرورياً و لازماً لنيل الأهداف السامية و فقدانها من أشدّ موانع الوصول إلى الكمال، لا يبقى مجال لادّعاء عدم اهتمام الدين بالدنيا و إعمارها و إن للدين عناية خاصة بالنعم و الإمكانيات الدنيوية كما أبان ذلك عملياً أيضاً و قد أكّد بشكل جادّ على تحصيل الإمكانيات المادية و الدنيوية رغم امتناعه عن وضعها في عداد الغايات و الأهداف الذاتية للإنسان و ذلك لما تتمتع به من موقع خاص.

و من جانب آخر حيث اتضح الآن اهتمام الدين الخاص بالدنيا و إعمار الأمور الدنيوية و وصيته للإنسان بالجدّ و الاجتهاد في هذا الطريق لتحصيل الإمكانيات الدنيوية، يُثار هذا السؤال و هو أن الإنسان هل يمكن اعتباره حرّاً

---

١. وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٢٩.

٢. وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٣١.

فـي كيفية تحصيل الإمكانيات بالكامل؟ و هل يتأتى له سلوك أي طريقة لتهيئـة الإمكانيات الدنيوية أو الانتفاع بها؟!

بأدنى مراجعة للعقل و النقل يتضح أن للدين طريقة خاصـة فـي تحـصيل الإمكانيات الدنيوية و استخدامها و الناس لم يُتركوا سدى و أحـراراً فـي هـذا المجال بتاتاً و إن إطار الدين فـي كيفية التعامل مع الدنيا بالإضافة إلى أنه يهيء أرضية التقارب بين اكتساب القيم الإنسانية و الإمكانيات الدنيوية، يُعبّد الطريـق لنيل إعمار الدنيا و تنظيمها على النحو الأمثل و المباحث التـي ترد فـي الحقـل التالـي شاهد على هذا المدّعى إلى حدّ ما.

و لذا فإن الإنسان المتدين لا يتغافل بتاتاً عن طريقة الدين و رؤيته الخاصة فـي التعامل مع الدنيا و الإمكانيات المادية بل و يعتبر أن الوصول إلى دنيا أكثر عمارة و انتظاماً مرهون باستخدام هذه الطريقة. فهو مكلّف بأمر مـن الـدين أن ينتفع من أحدث العلوم و التقنية العصرية و أن يستخدمها فـي حياته، و لكنه لا يحدّد الوصول إلى الدنيا العامرة و يحـصره باسـتخدام هـذه الأمـور بـل يعتـبر الوصول إلى الدنيا العامرة لا يتحقق إلا فـي ضوء التناغم و التلاحم بين النقل و العقل و بتبعه استخدام العلوم العصرية.

و من هنا لا يمكن التذرّع بعدم اعتبار الدين هدفيـة الوصـول إلى الـدنيا و الإمكانيات المادية للخدش فـي اهتمام الـدين بإعمـار الـدنيا و إنّ الأسـلوب الخاص لرؤية الدين إلى الانتفاع بالدنيا ينفـي الاتجـاه المحـض و الحـصري إلى

العلوم الدنيوية و إن التلاؤم و التواؤم بين العقل و العلم و بين النقل يؤول إلى تشكيل دنيا عامرة منتظمة.

الفقه و إصلاح المعيشة

روى عن النبي الأعظم ﷺ أنه قال:

«من فقه الرجل أن يصلح معيشته و ليس من حبّ الدنيا طلب ما يصلحك»[١].

يقتضي فقه الشعب أن يكون له حياة صالحة و ليس المراد بإصلاح المعيشة هو خصوص الإصلاح الأخلاقي بل المراد كلّ ما له دخل في الحياة الأمثل و العيش الأسلم و الأفضل، علماً بأن الإسراف و الترف و أمثالهما لا تسبّب فقدان صلاح العيش فحسب بل تؤدي إلى فساده و تدنّسه. و إن الدنيا التي هي رأس كل خطيئة لا تتجلى في البحث عن المال الحلال و اكتساب مستلزمات الحياة من وسائل الصحة و العلاج و التعليم و التربية و تجهيز القوى العسكرية و رجال الشرطة و نظائرها لأن هذه الأمور بأسرها من الوظائف المحمودة و الممدوحة لدى العقل و النقل.

فإن الفهم الدقيق للدين الذي هو المقصود من الفقه يفصل بين حدّ حبّ الدنيا الباطل و بين إصلاح المعيشة الحق لئلا يذهب الإنسان البعيد عن الفقه الإسلامي العريق المتجذّر جهلاً إلى أن طلب المعاش بمعناه الشامل و الكامل هو حبّ الدنيا.

---

١. نهج الفصاحة، ج ٢، ص ٩٤٢.

الانسجام بين إصلاح الدنيا و العمل بوظائف الآخرة

ورد في حديثين عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«أصلحوا دنياكم و اعملوا لآخرتكم كأنّكم تموتون غداً»[۱]، «اعمل عمل امرئ يظنّ أنّه لن يموت أبداً و احذر حذر امرئ يخشى أن يموت غداً»[۲]، و الرسالة الإجمالية لهذين الحديثين الشريفين هي:

أ: إصلاح الدنيا لا يتنافى و العمل بوظائف الآخرة.

ب: إصلاح الدنيا لابدّ و أن يمرّ من خلال النظر إلى العمر الطويل، فلا يحق لأحد في تدوين البرامج الدنيوية أن يكون قصير النظر و ضيّق الأفق و إلا فلابد أن يجلس بانتظار العناء الشامل و مصيبة الفقر و الفاقة الدائمة و الحرمان و الاضطهاد المستمر.

ج: للتخلّص من العناء الشامل لا مفرّ من الشمولية في الفكر و التنمية الشاملة، فمن له حياة طويلة المدى لابدّ له من بعد النظر و البرمجة الواسعة النطاق.

د: لا ينبغي الخلط بين الطلب المحمود و طول الأمل المذموم، فمن الضروري في جميع المباحث الدينية التدبّر في هذا الكلام العميق للرسول الأكرم ﷺ ــ الذي هو أصل كلي مشرق ـ حيث يقول: «الصراط أدقّ من الشعرة و أحدّ من السيف»[۳]، و معنى ذلك أن للصراط الإلهي المستقيم الذي تُطلب الهداية إليه من

---

۱. نهج الفصاحة، ج ۱، ص ۵۵.

۲. نهج الفصاحة، ج ۲، ص ٦٨١.

۳. بحار الأنوار، ج ۸ ص ٦٥.

الله فـي جميع الفرائض بُعد نظري و معرفـي و بُعد عملـي و عينـــي، فالـصراط المستقيم من حيث العلم و المعرفة صعب جداً و إدراكه أصعب من رؤية الـشعرة الدقيقة للغاية التـي لا تُرى بالعين بسهولة، و بالتأكيد ما كـان أدقّ مـن الـشعرة الضعيفة تكون رؤيته أيضاً أصعب من الشعرة الدقيقة.

و الصراط المستقيم من الجانـب العملـي و العينـــي أيـضاً صـعب للغايـة و اجتيازه أصعب من اجتياز حافة السيف الحادّة.

و الحاصل أن الفرق بين طول الأمل المذموم و البرمجة الموسّعة الاقتصادية و الثقافية و السياسية و العسكرية لشعب هو نفـس الفـرق بـين الحـق و الباطـل المتمثّل بالصراط المستقيم المعرفـي.

و إن المسألة الأساسية فـي معرفة الدين هـي أن الحقـوق و التكـاليف قـد اختلطت فـي المتون الدينية، فإن كانت الأرض الصالحة للزراعة و الهواء الـسالم و الماء الكثير و الصحي و عشرات المزايا الطبيعية الأخرى حـق الإنـسان فهـي بأسرها علاوة على الطابع الحقوقي لها جانب تكليفي أيضاً و يجب على الإنسان أن يتمتع بهذه المواهب، لأن الله خلق كلّ هذه الإمكانيـات و سـخّرها للبـشر و أعلن وجودها و تسخيرها للمجتمع البشري لئلا يقول أحد بأن البحار و القفـار و الفضاء و المنظومة الشمسية و المجرّة و بالتالـي مجموعة نظام الكون بعيدة عـن منال البشر. ثم كلّف الناس بالاستفادة منها و استيفاء منافعهـا و أمـرهم بتقـديم المنافع العامة على المـصالح الشخـصية و ذكـر الفاسـدين و المفـسدين بـسوء و

حكمهم بعذاب مرير. فإن آيات تسخير السماء و الأرض و البحر كثيرة في القرآن الكريم و أصل التسخير للعارفين بالقرآن الحكيم أمر قطعي لا شكّ فيه.

و قد تقدّم أن آية ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾[1]، تتحدّث عن ركن الاستعمار الركين و المبارك و المظلوم، فإن الاستعمار في الثقافة القرآنية بمعنى الطلب الجادّ و المؤكّد لعمران الأرض و إعمار المعادن و الجبال و البحار و القفار و الغابات و الضفاف و .... حيث خلق الله هذه الأمور «بكراً» و أعطى للبشر فكرة إعمارها و استغلالها و أمرهم باستيفاء منافعها عن عدل و قال: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾[2]، أي يجب على البشر إعمار ما بين أعماق الأرض و ذروة السماء و كدّ يمينه مختص به لا بغيره و لا فرق في هذا الانتفاع بين المرأة و الرجل.

و إن الذي يُستفاد من آية ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾[3]، هو هذه العناصر المحورية من الاستقلال الاقتصادى للمجتمع البشري، فإن استغلال منابع الأرض و منافعها و مصالحها و كل مواهبها المناسبة حقّ للبشر و تكليف إلهي أيضاً حيث يجب على الناس اكتساب الاستقلالية في الاقتصاد و إن قصّروا في ذلك فهم مسؤولون و يرون جزاءهم يوم القيامة. و

١. سورة هود، الآية ٦١.
٢. سورة النساء، الآية ٣٢.
٣. سورة الأعراف، الآية ١٠.

هذا هو الوجهان لعملة الاستقلال الاقتصادي فالوجه الأول حق البشر و الوجه الآخر التكليف الإلهي.

و إن مثل هذا الدين الذي يعتبر بطانة حُلّة المجتمع البشري و وجهها حق و تكليف و يعدّ الدنيا و الآخرة ظاهراً و باطناً للكسوة الإنسانية و يوصل حرمة البشر إلى أوج عروج الخلافة الإلهية بحيث أن الله يجعله خليفة له في عمران الأرض، لا يُهمل حقوق البشر و لا يغض الطرف عن منافعهم على الإطلاق.

العمل سبب لاكتساب العزة

إنّ العزة و الرفعة لأي أحد من ثمرات إيمانه بالله، فالمؤمن عزيز و عليه الحفاظ دوماً على عزته و تعاليها و العمل هو أحد الطرق لاكتساب العزة و الوصول إلى الاستقلال المادي. و من هنا عبّر أئمتنا العظام عن العمل بـ«العزة».

قال الإمام الصادق عليه السلام لأحد أصحابه: «أُغدُ إلى عزّك»[1].

و روي عن «عبد الأعلى» أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: استقبلت أبا عبد الله عليه السلام في يوم صائف شديد الحرّ فقلت: جعلت فداك حالك عند الله عزّ و جلّ و قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله و أنت تُجهد لنفسك في مثل هذا اليوم، فقال: «يا عبد الأعلى خرجت في طلب الرزق لأستغني عن مثلك»[2].

---

١. وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ١٠.

٢. الكافي، ج ٥، ص ٧٤.

و من جانب آخر فقد وقف الإسلام بشدة أمام الذلة و الدناءة التـي هي من الآثـار الـسيئة للكـسل و البطالـة و اقتلـع جـذورها كمـا ورد فـــي أخبـار المعصومين عليهم السلام: «إياك و الكسل»[١]، «آفة النُجح الكسل»[٢]، «إياك و الكـسل و الضجر فإنهما مفتاح كلّ شرّ»[٣].

و قال الإمام علي عليه السلام: «من وجد ماء و تراباً ثم افتقـر فأبعـده الله»[٤]، فـإن هذا الكلام يدعو الجميع إلى الإنتاج و الابتعاد عن البطالة.

و روي أيضاً أن رجلاً أتى أبا عبد الله عليه السلام فقال: إنـي لا أحسن أن أعمـل عملاً بيدي و لا أحسن أن أتّجر و أنا محارف محتاج، فقال: «اعمل فاحمل علـى رأسك و استغن عن الناس»[٥].

فقام الإمام الصادق عليه السلام بترغيبه على العمـل و أعطـاه روح الثقـة بالـذات ليقوم بإمرار معاشه و لا يعتمـد علـى الآخـرين لأن الاحتيـاج إلى النـاس لا ينسجم مع عزة الإنسان و كرامته.

فقد روى عن الإمام الـصادق عليه السلام أنـه قـال: «طلـب الحـوائج إلى النـاس استلاب للعزّ، مذهبة للحياء»[٦].

---

١. الكافـي، ج ٥، ص ٨٥

٢. شرح غرر الحكم، ج ٣، ص ١١٢.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٧٥.

٤. بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٦٥.

٥. الكافـي، ج ٥، ص ٧٦.

٦. الكافـي، ج ٢، ص ١٤٨.

أصول و قواعد العمل

إنّ الذوق الفنـي و التأمين الصحيح للنشاط و المتطلبات العاطفية لدى كـلّ مجتمع منوط بعرض أعمال الفنانين الفنية.

و إنّ الاستقلال و التنمية الاقتصادية لكـلّ مجتمـع مرهـون بالرؤيـة التـي يحملها ذلك المجتمع إزاء ظاهرة العمل. و قد عنى الإسلام لتنظيم المجتمع و تكامله و التنمية الاقتصادية فيه بأصول و قواعد للعمل حيث يـتم تـأمين احتياجـات الشعب الجسدية و الروحية فـي ضوء مراعاتها. و فيما يلي نتعـرض إلى جملـة منها:

١- التخصص و الالتزام

لا شك أنّ لأصلي التخصص و الالتزام تأثير فـي تطوّر العمل كمّياً و كيفياً، لأن الإنسان الملتزم و المتخصّص يتصف بالانضباط و الوجـدان المـسلكي فـي حوزة مسؤولية عمله و إنّ الله يحبّ مثل هذا الإنـسان: «إنّ الله يحـبّ المحتـرف الأمين»[١]، و بريء ممن يقترح التصدي لشغل ما و يعلن استعداده لذلك و هـو لا يمتلك جناحي التخصص و الالتزام كما قال النبـي ﷺ: «فمـن دعـا النـاس إلى نفسه و فيهم من هو أعلم منه لم ينظر الله إليه يوم القيامة»[٢]، أي أنه يحـرم فـي المعاد من نظرة عناية الله و رؤية تشريفه.

---

١. الكافـي، ج ٥، ص ١١٣.

٢. بحار الأنوار، ج ٢، ص ١١٠.

و إن المجتمع الذي لا يوكل العمل إلى الخبير يسير دوماً باتجاه التنازل و التسافل فقد روي عن النبي الأكرمﷺ أنه قال: «ما ولّت أمة أمرها رجلاً قطّ و فيهم من هو أعلم منه إلا لم يزل أمرهم يذهب سفالاً حتى يرجعوا إلى ما تركوا»[١].

و إن الالتزام في العمل يؤدي إلى أن ينظر الشخص في اختيار شغله إلى حاجة المجتمع و الربح الاقتصادي العام و يبتعد عن الأشغال الكاذبة التي تتبعها تكاثر و أرباح طائلة للشخص و تخلّف أضراراً على اقتصاد المجتمع.

٢- الإتقان و جمال الأثر

إن الإسلام يهتمّ في جميع شؤون الحياة بعنصرين محوريين و يعتبر الجميع و لاسيما رجال الدولة مسؤولون عن تأمين هذين الركنين الأساسيين: أحدهما الإتقان في العمل و الآخر الفنّ و الجمال فيه، فالعمل الذي لا يطابق الأصول العلمية غير مقبول لكونه خال من الإتقان و الإحكام و العمل الذي لا يتصف بالفنّ و الجمال فهو رغم إتقانه و إحكامه غير مطبوع و مطلوب.

و قد قال رسول اللهﷺ بشأن المحور الأول: «إن الله يحبّ إذا عمل أحدكم عملاً أن يُتقنه»[٢]، و قال حول المحور الثاني: «يحبّ الله العامل إذا عمل أن يُحسن»[٣].

---

١. بحار الأنوار، ج ١٠، ص ١٤٣.

٢. نهج الفصاحة، ج ٢، ص ٦٨٣.

٣. نهج الفصاحة، ج ٢، ص ٦٩١.

و إن الله أيضاً قد خلق العالم على أساس أصلَي الإتقان و الجمال و يُحبّ أن يكون خليفته إنساناً ورعاً تتصف هندسة أعماله بالعلم و جمالها بالفنّ. فإن مراعاة هذين الأصلين المذكورين يحفظ جميع الأصول و المعايير البيئية، لأن الإتقان و الجمال سببان لتنقية فضاء الحياة و الفضاء النقي ثابت و مستقر كما أن المحيط الملوّث زائل و بائد.

و إن آثار العمل الذي يقام من دون النظر إلى قواعده آثار فاشلة جهيضة. و إن كان الهدف من العمل تلبية الحاجة العامة و تعزيز الأسس الاقتصادية للمجتمع لا التكاثر، يكون الإنسان ملزماً بمقتضى وجدانه لإتقان العمل المتصدي له و إنجازه في غاية الدقة و الإحكام.

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال بعد الفراغ من بناء عمله في غاية الدقة و الإتقان: «إني لأعلم أنه سيبلى و يصل البلى إليه و لكن الله يحب عبداً إذا عمل عملاً أحكمه»[1].

و قد ورد الذمّ في الإسلام بشدة حول التقاعس و الخيانة و التزوير و الخداع و إخفاء الحقيقة في العمل و نهى القرآن الكريم عن هذه المسألة بصورة شاملة عامة قائلاً: ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾[2]. فإن رسالة هذه الآية جامعة بحيث تشمل جميع الأشياء و الأمور الخاضعة لقانون العمل سواء كانت من سنخ نقول و انتقالات العمل المادي أو من صنف العمل المعنوي.

---

١. بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٢٠.

٢. سورة الشعراء، الآية ١٣٨.

٣- الثبات فـي العمل

إن الله يدعو النبـي و المسلمين فـي القرآن إلى الاستقامة و الثبـات حيـث يقول: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[١]. فإن الاستقامة فـي العمل تؤدي إلى أن يغضّ العامل الطرف عن المتاعـب المؤقتـة و الحرمـان المـوسمي و يبـذل قصارى جهده للوصول إلى الهدف السامي.

و يُستفاد من القرآن الكريم أن الاستقامة تؤول إلى ثبات القلب و استقراره[٢] و سعة فـي الرزق[٣].

و لا ينبغي أن نعتبر طريق العـلاج مُغلقـاً و المَخلَـص منتفيـاً، لأن البحـث المستمر و السعي الحثيث يوصل بالتالـي إلى النتيجة فقد ورد عن علي‏ عليه السلام أنـه قال: «من طلب شيئاً ناله أو بعضه»[٤].

٤- الإخلاص فـي العمل

إن من مستلزمات العمل تعزيز البنية الاقتصادية و قطع يد الأجانب عـن البلـد الإسلامي و الوصول إلى الاستقلال، بيد أن التعاليم الإسلامية قد أوصت الإنسان إلى جانب ذلك بأن لا يتصدى للعمل إلا طاعة و امتثالاً لأمر الله. فإن الإخـلاص يعـزّز الجانب العبادي فـي العمل و يهب له صبغة قدسية و يعدّ بمثابة زينة العمل و حُليته.

---

١. سورة هود، الآية ١١٢.

٢. سورة فصّلت، الآية ٣٠.

٣. سورة الجنّ، الآية ١٦.

٤. نهج البلاغة، الحكمة ٣٨٦.

فقد روي عن علي عليه السلام أنه قال: «أخلصوا إذا عملتم»[1].

٥- اختيار الشغل المناسب

إن لمهنة كل فرد أثر مباشر في أخلاقه و سلوكه، فمن لا يُدقّق في اختيار العمل و الشغل المناسب لما يحمله من حرص اكتناز الأموال فقد أوقع الضرر بنفسه و حطّم شخصيته الإنسانية أكثر من الآخرين. إذ لا يمكن من خلال العمل الفاقد للشرعية الاتصاف بالروح النجيبة و العالية و حلّ مشكلة من المشاكل. و أما الشغل الجيّد الحسن فهو يحلّ عُقد المجتمع و يؤثّر أيضاً في تعالي الإنسان روحياً و أخلاقياً، كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله يحبّ معالي الأمور و يكره سفسافها»[2]، و قد نقل سيد الشهداء عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله حديثاً بهذا المضمون.

ثم إن الإسلام يرى بعض الأشغال واجبة و بعضها محرمة و بعضها مستحبة و بعضها الآخر مكروهة و يعتبر أن من حقوق الولد على والده وضعه في موضع صالح و شغل مناسب[3].

٦- الإبداع في العمل

إن جوهرة العمل بل العمل الجوهري هو التلاحم الكامل بين القِدَم و الصنعة و التناغم بين الطبيعة و الفنّ. فقد وضع الله سبحانه جميع الموادّ الأولية و

---

١. شرح غرر الحكم، ج ٢، ص ٢٣٩.

٢. وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٧٣.

٣. وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٣٩٠.

الضرورية لأي ضرب من الإبداع في مائدة السنة الإلهية و أودع في سرائر البشر أرضية كلّ ما للصناعات البديعة و الإبداعات من أنواع و أصناف و ذلك لتكامل أساس العمل من بساطة الصدف إلى تعقيد الجوهر و الابتعاد عن التكرار و الاتجاه صوب الإبداع.

و إنّ الأصل الحاكم على العمل هو تزيين الموادّ الأولية القديمة بوجه الصنعة الناصع حيث هيّأ الله الأول بيد الطبيعة في خارج الذهن و أشعل الثاني بيد الصنعة في دائرة فكر البشر لتصل جميع طلبات الإنسان من العلم إلى العين و من السمع إلى العيان، و يُطلق على مثل هذا العمل الجوهري بالكيمياء.

فقد عبّر الإمام الصادق عليه السلام عن صنعة الزراعة بالكيمياء الأكبر قائلاً: «الكيمياء الأكبر الزراعة»[1]، لأن المواد الجامدة الطبيعية في ضوء مثل هذه الصنعة تتمتع بالحياة النباتية و فنّ هذه الصنعة الخاصة هو تهيئة أرضية الحركة من مرحلة الجماد و الموت إلى منطقة النبات و الحياة. فلابد أن يكون أصل العمل بمثابة نفخ روح الفنّ في مادة الطبيعة الفاقدة للروح ظاهراً لتكون صنائع الإنسان تبلوراً لحياة الفن و تجلياً للحياة و الإحياء.

---

١. وسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٣٤.

٧- العمل الهادف

إن العمل يتبلور على نحو الفنّ الحديث إذا نجا من بدعة التساهل و التقاعس و الكسل و الفشل و اتّصف بسنة الإبداع و الهدفية.

لأن استدامة حياة العامل مع تقبل المسؤولية مرهونة بالعمل البديع و القانوني و الإنسان الذي يسعى للخروج من الضمور و الوصول إلى الظهور عليه الالتزام بالنقاط التالية:

ألا يكون عمله لنفس العمل بل يكون لهدف أسمى.

أن يكون هدفه معقولاً و مقبولاً لدى المجتمع الإلهي و الإنساني.

الأعمال المنوعة كالأعضاء و الجوارح و الجوانح للجسم الحيّ النامي يُكمّل بعضها الآخر.

تتبلور الجاذبة الدينية و المدنية لثقافة العمل في تفسير الأعمال المتنوعة مع بعض لتكون الأعمال مُبيّنة و مُكملّة لبعضها الآخر و تُلبّي جميع الطلبات الصادقة للمجتمع البشري بأحسن وجه.

و من هذا المنطلق يُقال: إن العمل لهدف أسمى لا لنفس العمل.

الهمة في الإنتاج و القناعة في الاستهلاك

واحدة من المسائل المؤثرة في سلامة البيئة الروحية لدى كلّ مجتمع هي الهمم العالية للأفراد.

و إن عزة الشعب و كرامته مرهونة بالهمم العالية فيه، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «الشرف بالهمم العالية»[١]، و قال أيضاً: «الفعل الجميل ينبئ عن علو الهمة»[٢]، و قال كذلك: «من شرفت همته عظمت قيمته»[٣].

و إن القناعة في الاستهلاك أيضاً كالهمة في الإنتاج توجب العزة و الرفعة للفرد و المجتمع، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه و آله أنه قال: «من قنع بما رزقه الله فهو من أغنى الناس»[٤]، و روي عن علي عليه السلام أيضاً أنه قال: «بالقناعة يكون العزّ»[٥]، فلا ينبغي أن تحلّ القناعة في الاستهلاك محلّ الهمة في الإنتاج غصباً و أن توضع الهمة في الإنتاج موضع القناعة في الاستهلاك جهلاً لأن ثمرة هذا الانقلاب الباطل هي الخمول و الاستهلاكية و ينتج من اجتماع هذين العنصرين الزائفين الخسة و الانحطاط.

ثم إن الاهتمام بالإنتاج و العمل لازدياد الأرباح و السعي الحثيث لاستخراج حصيلة المعامل و المزارع و المراعي و سائر المنابع المالية من أجل تأمين حاجة المجتمع البشري من جانب، و الزهد و القناعة من جانب آخر، و الإيثار للآخرين من جانب ثالث، تهيؤ أرضية ازدهار الحيثية الملكوتية و السلامة الروحية للإنسان التي تشكّل الجزء الأعظم من رسالة أئمة الحق و قد

---

١. شرح غرر الحكم، ج ٢، ص ١٠٦.

٢. شرح غرر الحكم، ج ١، ص ٣٦٥.

٣. شرح غرر الحكم، ج ٤، ص ٥٠٠.

٤. من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٥٨.

٥. شرح غرر الحكم، ج ٣، ص ٣٢٤.

نزلت بعض الآيات من قبيل ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾[1] و ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾[2] و ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾[3] و ... لذمّ الاهتمام بالنفس النباتية و الحيوانية و آيات أخرى من قبيل ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[4] و ﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾[5] و ... للحثّ على العمل لازدهار النفس الإنسانية.

وصية الإسلام بالنظافة و الطيب للبدن و المنزل و محلّ العمل

تشكّل الخطوط الرئيسية لهندسة الدين الإلهي عناصر خطيرة و مهمة نظير «العدل و الحرية» في المسائل الحقوقية و الأخلاقية و «النظافة و الطيب» في الأمور الصحية. و كما أن غضب الله يسير بإمامة رحمته «تسعى رحمته أمام غضبه»[6]، فإن جميع البرامج الدينية في مختلف شؤون الحياة تُدوّن و تُعرض بزعامة «العدل و الحرية» من جانب و «الطهارة و الطيب» من جانب آخر.

---

١. سورة الفجر، الآية ٢٠.

٢. سورة النساء، الآية ١٢٨.

٣. سورة الهمزة، الآية ٢.

٤. سورة الحشر، الآية ٩.

٥. سورة طه، الآية ١٣١.

٦. الصحيفة السجادية، الدعاء ١٦.

فقد روي عن النبـي الأعظمﷺ أنه قال: «إنّ الله طيّب يحبّ الطيب، نظيف يحبّ النظافة، كريم يحبّ الكرم، جواد يحبّ الجود، فنظفوا أفنيتكم»[1]. و إن الـذي يُستنبط من هذا الحديث الشريف:

أولاً: إن للأصول البيئية من منظار الرسول الأكـرمﷺ صـبغة ملكوتيـة و السبب من مراعاة الطهارة و الطيب فـي البدن و المـنزل و محـلّ العمـل و فنـاء البيت و المكتب و مراكز الأبحاث و ... هو أن الإنسان خليفة الله و على الخليفـة أن يجعل سنة و سيرة المستخلف عنه سريرته و أن يكون محباً للنظافة و الطيـب لكونهما محبوبين عند الله.

ثانياً: إن الطيب و مراعاة النظافة يُلطّفان الـروح، لأن روح الإنـسان بجـوار بدنه و إن التفاعل المتبادل بينهما معقول لدى الحكيم و مقبـول عنـد الطبيـب و فـي ضوء طيب البدن و طهارته تقوى الروح الملكوتية و يتأتى لها الطـيران إلى حيث المحلّ الأسمى.

ثالثاً: يتبين من خلال الغور فـي علم الحديث بـأن الأمـر المـذكور مقتـرن بثلاثة أصول و هي العموم و الدوام و الإطلاق، بمعـنى أنـه أمـر عـام و دائـم و شامل فيتحتم على جميع الناس من النساء و الرجال و الشيوخ و الشبّان و فـي جميع مراحل الحياة و أيام العمر و من جميع الجهات بتطييب و تنظيـف البـدن و المنزل و محلّ العمل و عدم تلويثها و المبادرة إلى تنظيفها إن تلوّثت تلقائياً. و إن

---

۱. نهج الفصاحة، ج ۲، ص ٦٠٦.

مراعاة أصول الحقوق و الوظائف هذه متقابلة بين جميع المواطنين و متبادلة بين الحكومة و الشعب أيضاً.

رابعاً: إن النسيم اللطيف الذي يمرّ على النواحي و الأحياء الطيّبة و المُعطّرة يأخذ بالعطر إلى شامّة المواطنين و يأتي إليهم برسالة الصدق و الصفاء و الوفاء، فإن مثل هذا الجوّ الطاهر العَطِر محبوب عند الله الجميل الذي يحبّ الجمال و الطيب و العطر. و يمكننا أن نترنّم حول هذه الأرض الحية و النشيطة بهذا الشعر:

هبّ ريح الصبا ببشرى حلول موسم الطرب و السرور و الابتهاج
و جاء فصل الربيع بانتشار العطور و اخضرار الأشجار و تغريد الطيور
فعلى المرء أن يستبدل الاضطراب بالسكينة لأن ابتعاد الشيطان يؤول إلى نزول فيض الرحمن[1]

اهتمام الإسلام بالمحيط النظيف و الجوّ الطاهر العَطِر

قال النبي الأكرمﷺ: «إنّ الإسلام نظيف فتنظّفوا فإنه لا يدخل الجنّة إلا نظيف»[2] و «تنظّفوا بكلّ ما استطعتم فإنّ الله تعالى بنى الإسلام على النظافة و لن يدخل الجنّة إلا كلّ نظيف»[3].

---

١. ديوان حافظ، الغزل ١٧٥.

٢. نهج الفصاحة، ج ٢، ص ٩٩٨.

٣. نهج الفصاحة، ج ٢، ص ٩٩٨.

إن تركيبة الإسلام المنتظمة هي عقيدة التوحيد الطاهرة من لـوث الـشرك و الإلحاد و الكفر و الزندقة، و الأخلاق هو الحُسن البعيد عن روث الظلم و الحقد و الحسد و كلّ رذيلة أخرى، و الفقه و الأحكام هي السلوك المـنزه عـن فـرث الانحراف و ضياع العمر و موت السوء.

و حريّ بمثل هذا الدين الإلهي أن يكون أهله طاهرون مـن كـلّ نجاسـة و رجاسة، فإن النبـي الأعظم ﷺ اعتبر النظافة كالتقوى وظيفـة مـستمرة شـاملة للجميع و كما جاء فـي القرآن الكريم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[1] فقـد أوصـى النبـي ﷺ قائلاً: «تنظّفوا مـا اسـتطعم»[2]، ليمكننـا بـشأن هـذه الأمـة العارفـة بالإسلام العاملة بالدين أن نترنم شعراً:

نوّر مجلس الصالحين و عطّر محفلهم

و قل بأن يأخذوا من بركات مجلسهم هذا و يزفوه هدية إلى الجنان[3]

و بما أن الطيب محبوب عند الله و النبـي الأكرم ﷺ حبيبه فمن هنا قال ﷺ: «حبّب إلـيّ من دنياكم ... و الطيب و جعل قرّة عينـي فـي الـصلاة»[4]، و قـال للترغيب على الطيب و الحثّ على التعطّر و تطييب الجوّ: «لو أذن الله تعالى فـي التجارة لأهل الجنة لاتّجروا فـي البرّ و العطر»[5] و الحـال أن جميـع احتياجـات

---

١. سورة التغابن، الآية ١٦.

٢. نهج الفصاحة، ج ٢، ص ٦٠٦.

٣. ديوان حافظ، الغزل ٣٩٧.

٤. بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١٤١.

٥. نهج الفصاحة، ج ٢، ص ٦٠٧.

البدن و الروح مؤمنّة في الجنة من دون عناء التجارة، و هذا إنما ينبأ عن اهتمام الإسلام بخبز الناس الذي يحصل في ضوء الاقتصاد السالم و اهتمامه أيضاً بالمحيط السالم و الجوّ النظيف و المعطّر الذي يتوافر في ظل الأصول البيئية.

إذن فالأمة المتخلّقة بأخلاق أهل الجنّة تسعى للحصول على اقتصاد سالم بعيد عن الفاصلة الطبقية بين الغنيّ و الفقير و كذا الوصول إلى محيط سالم و بحار و قفار و فضاء بعيدة عن السلاح المخرّب الفاقد للصلاح، و أما الدولة الغاشمة المتصفة بصفات أهل النار فهي تجهد عبر الحظر الاقتصادي للبلدان المنادية بالعدالة و الحرية و من خلال تصدير الأسلحة الجرثومية المتدنسّة إلى الشركات المتهوّرة أن تسوق منطقة وسيعة إلى الهاوية للوصول إلى نجاح كاذب غافلين عن تاريخ الدنيا العريق الذي لا تمرّ أيامه مؤاتية للطواغيت و الجبابرة بل تأخذ بهم في المآل إلى حيث الزوال و الاضمحلال:

لا تستجلب المصلحة لنفسك فيكون مصيرك إلى الهلاك[1]

الصدقة الجارية في الطبيعة الخضراء

قال النبي الأكرم ﷺ: «ثلاث يجلين البصر، النظر إلى الخضرة و إلى الماء الجاري و إلى الوجه الحسن»[2]. فلو كان جلاء البصر في النظر إلى الخضرة و الماء الجاري يظهر أن إيجاد و حفظ البساتين و رياض الأزهار و الحدائق و

---

١. حديقة الحقيقة، ص ٤٧٤.

٢. نهج الفصاحة، ج ١، ص ٢٩٢.

جعل الماء الصافي جارياً أمر مطلوب في الإسلام، فلا ينبغي التقصير في اكتسابها و القصور في حراستها و الفتور في صيانة الثروات الطبيعية و المراعي و رياض الزهور و النباتات.

و لو اقترنت الطبيعة الخضراء بزرع الفسيلة أو غرس الغصن المثمر لتضاعف الخير. فقد اعتبر الرسول الأعظم ﷺ غرس الشجرة المثمرة صدقة يُثاب عليها و قال في الحثّ على ذلك: «من غرس غرساً لم يأكل منه آدميّ و لا خلق من خلق الله إلا كان له صدقة»[1]. فإن امتداد فيض الله أدى إلى عدم اختصاص ثواب الصدقة عبر زرع أو غرس الشجرة المثمرة بانتفاع البشر بل ينطبق عنوان الصدقة على استفادة كل مخلوق سواء كان حيواناً أو إنساناً، كما روى أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «من زرع زرعاً فأكل منه الطير كان له صدقة»[2].

وصية الإسلام بإيجاد الرياض الخضراء

لابد من الالتفات إلى هذه المسألة و هي أن قيمة الرياض و تأمينها عبر الزرع أو الغرس لا تختص بوجود الأمل لدى المزارع أو البستاني للانتفاع بها شخصياً، بل إن أمر الإسلام بإيجاد الرياض سارٍ حتى فيما إذا كان المزارع أو البستاني فاقداً أمله في البقاء على قيد الحياة. و فيما يلي نستعرض مثالين من الروايات التي تحثّ على الزرع و الغرس حيث تتعلق الأولى بوجود الأمل و الثانية بفقدانه.

---

۱. نهج الفصاحة، ج ۲، ص ۵۶۳.

۲. نهج الفصاحة، ج ۱، ص ٤٣٥.

الرواية الأولى المتعلقة بوجود الأمل: روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما الأمل رحمة من الله لأمتي، لولا الأمل ما أرضعت أمّ ولداً و لا غرس غارس شجراً»[١]، و ذلك لأن الأم لا علم لها ببقاء ولدها و نشوئه و الغارس أيضاً لا علم له بنموّ الشجرة و الانتفاع بها.

الرواية الثانية المرتبطة بفقدان الأمل: روي عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: «إن قامت الساعة و في يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها»[٢].

غرس الأشجار في عداد أكثر الأعمال قداسة

إن اهتمام الإسلام بالرياض الخضراء و لاسيما بالعنقود أو الغصن المثمر مشهود بالكامل في المتون الدينية بين طيات تعاليم أئمة الحق، بحيث أن غرس الأشجار قد يقع في عداد أفضل أعمال الخير و أكثرها قداسة كما ورد عن الرسول الأكرم ﷺ: «سبع يجري للعبد أجرهنّ و هو في قبره بعد موته: من علّم علماً أو أجرى نهراً أو حفر بئراً أو غرس نخلاً أو بنى مسجداً أو ورث مصحفاً أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته»[٣].

فقد وقع غرس الأشجار في هذا الحديث الشريف إلى جانب تعليم العلم و بناء المسجد و توريث القرآن أو كتاب علمي مفيد و غيرها و إنّ هذه المقارنة

١. نهج الفصاحة، ج ٢، ص ٧١٣.

٢. نهج الفصاحة، ج ٢، ص ٧١٣.

٣. نهج الفصاحة، ج ١، ص ٤٩٧.

تكشف عن النسبة العالية لاهتمام الإسلام بغرس الأشجار. و لذا فقد وردت نصوص في الأمر بحفظ الشجرة و سقيها و في اجتناب قطعها أيضاً، حيث روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من سقى طلحة أو سدرة فكأنما سقى مؤمناً من ظمأ»[١].

و روي أيضاً عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «و أن يُحترز عن قطع الأشجار الرطبة إلا عند الضرورة»[٢].

كما وردت عن الإمام الرضا و الإمام الصادق عليهما السلام أحاديث نافعة في هذا الشأن تقول بكراهة قطع الأشجار في المناطق الصحراوية و البوادي القليلة الأشجار و بكونه لا مانع فيه إذا استبدل بشجر آخر[٣].

ضرورة الحصول و الحفاظ على الماء و الهواء الطيّب و الأرض الصالحة للزراعة

ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «لا يطيب السكنى إلا بثلاث، الهواء الطيّب و الماء الغزير و الأرض الخوارة»[٤].

فقد أمّن الله جميع العناصر المحورية المطلوبة في حياة البشر و جعل استغلالها و استخدامها من حقوقهم و كلّفهم بصيانتها عن الآفة و الانقراض و النقص و أمثالها.

---

١. وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٤٢.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣١٩.

٣. وسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٣٩.

٤. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٣٤.

و من قصّر في معرفة هذه الأصول الرئيسية و فرّط في اكتسابها أو صيانتها من فرد أو مجتمع و من حكومة أو شعب فقد تقاعس عن أداء وظيفته الدينية، و معنى ذلك أنه لابد في أصل الهواء من البحث الدقيق و التحقيق العميق في كيفية استغلال هذه الأمانة الإلهية و معرفة الأمور التي تبعث على تلوثه و مرضه و المسائل التي تؤثر في تطهيره و علاجه و كيفية تنقيته.

كما و لابد من الإبداع الفني في أصل الماء العذب و كيفية الانتفاع بهذه الذخيرة الإلهية و معرفة المسائل التي تسبب تلوثه و مرضه و الأمور التي تؤثر في تطهيره و تنظيفه و كيفية تصفيته.

و لابد أيضاً من الدراسة في أصل الأرض الصالحة للزراعة و كيفية الاستفادة من هذه المائدة الإلهية المنبسطة و معرفة الأمور التي تبعث على دمارها و مرضها و المسائل التي لها أثر بالغ في إحيائها و تسطيحها و تشجيرها و صيانتها من الهزّات و الزلازل و تطبيق ذلك على أرض الواقع بفنّ و مهارة، كلّ ذلك امتثالاً لأمر الإسلام.

وصية الإسلام برعاية حقوق الحيوانات

لقد حثّ الدين الإسلامي المقدس و رغّب على كلّ ما للرياض الخضراء من فوائد و منافع للناس و الحيوانات الرواكض و الزواحف و المواشي و الطيور و أمثالها لأن قادة الحق كانوا يحسنون إلى كل موجود حيّ لا يضرّ بالإنسان أو بأي شيء آخر و كانوا يوصون الآخرين بذلك فقد روي عن

النبـي عيسى عليه السلام أنه لمّا مرّ على شاطئ البحر رمى بقرص من قوته في الماء، فقال له بعض الحواريين: يا روح الله و كلمته لِمَ فعلت هذا و إنما هو من قوتك؟ فقال: «فعلت هذا لدابّة تأكله من دوابّ الماء و ثوابه عند الله عظيم»[1].

و روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إن الله تبارك و تعالى يحبّ إبراد الكبد الحرّاء و من سقى كبداً حرّاء من بهيمة و غيرها أظلّه الله في ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلا ظلّه»[2].

و يتّضح من هذه التعاليم الفعلية و القولية لقادة الدين أنّ هناك علاقة بين الأخلاق و العبادة و بين الرياض الخضراء و مراعاة حقوق الحيوانات و أمثالهما، لأن الجانب الملكوتي لهذه الأعمال و هو التوجه إلى ثواب الله و العناية بالقيامة و الاهتمام بالمُدّخر لما بعد الموت مشهود بالكامل.

---

١. وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٤٠٨.

٢. بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ١٧٠.

الفصل الخامس

تأثير حسن العشرة
فـي سلامة البيئة

إن تأمين سلامة البيئة و طرق الوصول إلى محيط سالم إضافة إلى كونها من حقوق الإنسان الرئيسية تعتبر واحدة من الوظائف البشرية و من هنا و علاوة على العناية بالتركيبة المنتظمة للإنسان و العالم و علاقة الإنسان مع العالم التي مرّت في الأبحاث السابقة و علاقته مع نفسه لابد من الاهتمام بعلاقة الإنسان مع الآخرين أيضاً. فإن واحدة من أبعاد سلامة البيئة هي سلامة السلوك و العلاقة الحسنة بين أفراد المجتمع فيما بينهم و من أجل تحقيق هذا الأمر فقد حظيت الوصية بحسن العشرة و العلاقة الحسنة مع أعضاء العائلة و المجتمع و سائر المجتمعات البشرية في تعاليم الإسلام السماوية بالعناية و الاهتمام لتتوافر في ضوء هذه التعاليم بيئة سالمة لحياة الإنسان.

مدح العلاقات الودية في الإسلام

لقد صيغت النداءات القرآنية في قالب الجمع حيث تدعو الناس إلى الاجتماع و تضع المسؤولية على كاهل المجتمع. و تتصدى في التعاملات الاجتماعية لتعليم آداب و سنن تتلاءم مع كرامة الإنسان و تتناسب مع اتّصاف البشر بأحسن تقويم لتتمتع البيئة البشرية بالسِلم و الأمن و الاستقرار و لذا فقد

ذمّ جميع الأوصاف التـي تبعث على النصب و الفـصال و مـدح جميـع الفـضائل التـي تدعو إلى الودّ و الوصال.

و لا يُؤيّد تأثير الاختلافات العنصرية و الوطنية و الزمنية و الإقليمية و مـا شاكلها إلا فـي إطار أداة التعارف على بعض لا التفاخر على الآخرين و يعتبر الطريق الوحيد للمباهاة هو ترك التفاخر و الابتعاد عن شرّ المباهاة و طرد فساد حبّ الجاه و إزالة غبار الكبر و شقّ ظلمة البيروقراطية و سائر المعاصي.

و إن القرآن لا يخصّ ضرورة أدب التعامل مع الآخرين فـي دائرة الأخـوة المسلمين و يتصدى لإحياء معالم الأُخُوّة و المساواة بين المسلمين عبر قوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، بل و لشموليته يعتبر الودّ و الإخاء الإنسانـي نافعاً فـي جميع المجتمعات البشرية و يدعو إلى التعامل مع الناس بأسرهم علـى أسـاس ميـزان القسط و العدل و يقوم بحفظ الاحترام المتبادل عبر تكـريم العدالـة الـشاملة مـا زالوا مجانبين لشبّ نار الفتنة و مبتعدين عن التربّع على كرسيّ الظلـم و الجـور؛ ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[2]؛ ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[3].

---

١. سورة الحجرات، الآية ١٠.

٢. سورة الممتحنة، الآية ٨.

٣. سورة الممتحنة، الآية ٩.

الوصية بالمعاشرة الأحسن

بما أن الإنسان قد خُلق في ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1] و حريّ بمثل هذا المخلوق أن يتصف بالسلوك الأحسن لذا قال الله تعالى: ﴿قُل لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾[2]؛ ﴿قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[3] و المراد بالقول لا يختص بالتعامل اللفظي بل يشمل مطلق السلوك و المعاشرة.

فإنّ رد الهجوم على الحدود الإسلامية و طرد التخاصم و قمع غزو الأعداء بجميع أنواعها و أصنافها و إن كان أمراً ضرورياً، و لكن إن نشب الاختلاف و العداء في داخل حوزة الإسلام فلا ينبغي القضاء على الأخ المسلم الذي عُدّ عدواً بل لابد في هذه الحالة القضاء على العداء معه لا على العدوّ. فإن ردع العدوّ ليس بالأمر العسير، و أما القضاء على العداء و استعادة الودّ و الإخاء فهو من شأن الحكماء الصلحاء؛ ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[4].

و إن الحوزة الإسلامية كنطاق الأسرة تدور على مدار العطف و محور المحبة حيث تجد نداء ﴿... وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[5] يدوّي دوماً في الأرجاء و فصالهم و وصالهم على أساس الإحسان و اللطف؛ ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ

---

١. سورة التين، الآية ٤.

٢. سورة الإسراء، الآية ٥٣.

٣. سورة البقرة، الآية ٨٣

٤. سورة فصّلت، الآية ٣٤.

٥. سورة النساء، الآية ١٩.

بِإِحْسَانٍ﴾[١] و إكرام الكبار بأمر ﴿وَ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلَا تَقُل لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾[٢] سارية المفعول على الدوام، كما أن حنان الكبار يُخيّم دوماً على حياة الصغار و يغمرهم بعطف عقلائي.

المعاشرة الحقوقية على أساس القسط المتساوي و العدل المتبادل

إن آداب العشرة الحقوقية في المجتمع الإنساني تبتني في الرؤية القرآنية على أساس القسط المتساوي و العدل المتبادل و لذا ففي الوقت الذي يأمر بالعدل ينهى عن تحمّل البغي أيضاً و في غضون النهي عن الظلم ينهى عن الرضوخ إلى الظلم كذلك و هذا ما يتم استنباطه من متون الآيات القرآنية فإن بعض الآيات تعتبر نداء جميع الأنبياء هو القيام بالقسط و العدل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ﴾[٣] و بعضها الآخر تؤكّد على أنّ تطبيق العدل لا يتيسّر من دون التجهيز الشامل و الاستعداد الكامل و لذا لا يكفي أن يكون الإنسان قائماً بل لابد له أن يكون قوّاماً؛ ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ﴾[٤]؛ ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾[٥].

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٢٩.

٢. سورة الإسراء، الآية ٢٣.

٣. سورة الحديد، الآية ٢٥.

٤. سورة المائدة، الآية ٨

٥. سورة النساء، الآية ١٣٥.

و الطائفة الأخرى من الآيات التي تتحدث في الجانب السلبي و في إزاء الأمر بالعدل تنهى عن الظلم، لا تُفرّق بين الاستعمار و قبوله و تذمّ الظلم كما تذمّ الرضوخ للظلم و تنهى عن كلا الأمرين؛ ﴿لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾[1].

تحريم الاستهانة و هتك حرمة و استثمار الآخرين

يعتبر القرآن الكريم أن الاختلاف في القدرات و المواهب مدعاة للابتلاء و وسيلة لتقسيم الأعمال الاجتماعية بالعدالة و تسخير متبادل لأفراد المجتمع و يردع كل ضروب الاستهانة و هتك الحرمة أو الاستفادة المجانية و الانتفاع الشخصي؛ ﴿هُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيم﴾[2]؛ ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[3].

مع ملاحظة الآيات المذكورة يتّضح أن المواهب الإلهية بكل أصنافها إنما هي ابتلاء لعباد الله لا تكريم لواجديها و تحقير لفاقديها و الهدف منها التقسيم العادل للمهام الاجتماعية و إنّ آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عَسَى

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٧٩.

٢. سورة الأنعام، الآية ١٦٥.

٣. سورة الزخرف، الآية ٣٢.

أن يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِن نِسَاءٍ عَسَى أن يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ﴾[1] قد وقفت أمام كل ضروب التحقير و التفاخر و أوجبت حفظ الاحترام المتبادل على الجميع لتهييء معاشرة المجتمع في ضوء تأمين الكرامة أرضية ظهور المدينة الفاضلة و تتحقق سلامة بيئة الإنسان الذي هو خليفة الله.

الوظيفة الأكبر للمسؤولين في حسن العشرة

إن حسن العشرة لكل مواطن في المدينة الفاضلة تتعين إزاء مسؤوليته و لذا فإن للمسؤولين الكبار في المجتمع وظيفة أكبر من سائر الناس في هذا المجال؛ كما أُمر موسى الكليم و هارون عليهما السلام أن يبدءا بتبليغ الدين عبر القول الليّن؛ ﴿فقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[2]، و إن كان مصير فرعون بسوء اختياره و كذا أتباعه المتعصبين هو الغرق في البحر؛ ﴿فَغَشِيَهُم مِنَ اليَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[3]، و كما أُمر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالعطف و التواضع في السلوك و اللين في القول؛ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[4]، و إن مسألة المشورة التي تؤدي إلى احترام آراء الآخرين و تعتبر خير وسيلة لوحدة المجتمع و اجتذاب القوى الفاعلة و إيجاد التلاحم بين المنظّرين و نضج الرأي النهائي هي من هذا الباب حيث أُمر النبي صلى الله عليه وآله بها.

---

١. سورة الحجرات، الآية ١١.

٢. سورة طه، الآية ٤٤.

٣. سورة طه، الآية ٧٨.

٤. سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

كما أنّ سيرته بناء على وصية الله سبحانه هي خفض الجناح و التواضع للمؤمنين؛ ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١]، و إن كانت مواقفه الصارمة أمام الطغاة و إعلان براءته من المجرمين سنة إسلامية لا تُنسى؛ ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٢].

ثم إن خفض الجناح في القرآن قد يكون من باب إظهار الذلّ و الطاعة كما في الولد بالنسبة لأبويه؛ ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾[٣] و قد يكون من باب الرأفة و الترحّم و التلطّف على الصغير كالذي أُمر به القائد الإلهي.

و إنّ من أهم الرسالات القرآنية في تحسين أدب العشرة هي تأسيس المجتمع السامي و المتمدّن و الأمر بحسن الظنّ في مثل هذا المجتمع. بخلاف المجتمع الفاسد حيث لا تكون الوظيفة الأولى فيه حسن الظن و أما في المجتمع الصالح فإن الأمر الأول هو حسن الظنّ بالنسبة للآخرين: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[٤].

فطرية حسن العلاقة مع الآخرين

الإنسان متمدّن على أساس فطرته التي فُطر عليها: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[٥]. فيتعامل مع الآخرين و يحترم حقوقهم على أساس فطرته

١. سورة الشعراء، الآية ٢١٥.

٢. سورة الشعراء، الآية ٢١٦.

٣. سورة الإسراء، الآية ٢٤.

٤. سورة الحجرات، الآية ١٢.

٥. سورة الروم، الآية ٣٠.

الإلهية. و إنّ هذا التعاون و التعامل الذي له جذوره في المدينة المطلوبة لدى الدين موجود في فطرة الإنسان الحقيقية. و في هذا الشأن يقول الشاعر المرحوم «سعدى»:

بنو آدم أعضاء لجسد واحد و قد خلقوا من جوهر واحد
فإذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء[١]

فإن مضمون هذا الشعر بالإضافة إلى كونه عصارة لبعض الأحاديث الدينية الشريفة[٢]، يعتبر من المستلزمات القطعية لفطرة الإنسان، لأن الإنسان بمقتضى فطرته يحزن لحزن الآخرين و يفرح لفرحهم.

و من جانب آخر فإن الإنسان بالاستناد إلى فطرته الإنسانية يحبّ لغيره ما يحبّ لنفسه و يكره لغيره ما يكره لنفسه. و إن هذه الخصيصة كما أنها من مستلزمات الإيمان كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «لا يستكمل المرء الإيمان حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»[٣]، هي من مستلزمات الفطرة أيضاً لأن الإنسان مفطور على الإيمان و هذا ما يتم استظهاره من صدر هذه الآية: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[٤].

و من هنا فإن مدنية الإنسان الفطرية لا تنسجم بتاتاً مع نهب الثروات الطبيعية و تلويث البيئة و التعدي على حقوق الآخرين و إنه و إن كان يسير

---

١. گلستان سعدى.

٢. راجع: الكافي، ج ٢، ص ١٦٦.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٥٧.

٤. سورة الروم، الآية ٣٠.

وراء المنافع الدنيوية حسب متطلباته المادية و لكن لا يتعدى على مصالح الآخرين للوصول إلى مآربه بل يسعى لأن يغض الطرف عن حقوقه أيضاً من أجل مساعدة الآخرين و قضاء حوائجهم ؛ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1]. لأن الإنسان الذي تطابق أعماله الفطرة السليمة لا تكون دوافعه الدنيوية و مطامعه المادية مبرّراً لمعونته و مساعدته للآخرين و بما أن فطرته الإلهية الحنيفة متوجهة صوب المبدأ الأزلي الربوبي على الدوام، لا يُروى غليله بالدوافع و المنافع الدنيوية و المادية الصرفة و لذا تجده في ما وراء أي عمل يقوم به من مساعدة الآخرين يبحث عن ماء الحياة و عن ضالته الحقيقية؛ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾[2].

و إنّ كلّ ما قيل من مفاهيم كالتعاون و التفاهم و المساعدة و المشاركة و الشعور بالتضامن و التضحية و الإيثار و ما إلى ذلك إنما هي من المظاهر الاجتماعية للفطرة السليمة و إنّ المدنية المطلوبة لدى الدين أيضاً تتبلور على أساس مثل هذه الأمور.

صفات الإنسان الفطرية معرّضة للآفة

قد يستنبط البعض من كلمة الفطرة أن مثل هذا الأمر بما أنه مودع في ذات الإنسان فإن كلّ فرد يتمتع به طيلة حياته من دون أي نقص، و الحال أن من خصائص الفطرة البارزة أنها معرضة للآفة و الضرر و ذلك للطافتها و ظرافتها و

---

١. سورة الحشر، الآية ٩.

٢. سورة الإنسان، الآية ٩.

تحتاج إلى مواظبة مستمرة و عن وعي من قبل صاحب هذه الوديعة الإلهية ليكون تأثيرها مطلوباً.

و من هنا فإن الله يوصي الناس بأن لا يُلوّثوا فطرتهم بتراب الطبع و عجاج الهوي و غبار الغريزة فإن ذلك سيؤول إلى سقوطهم في ورطة ضرر كبير و إن تلوّثت الفطرة بمثل هذه الأمور فعليهم عبر الجدّ و السعي الحثيث أن يزيلوا عنها درن هذه الأرجاس ليحصلوا عبر التمتع بفطرة طاهرة على الصلاح و الفلاح؛ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[1].

فقد عبّر الله سبحانه في هذه الآيات عن تلوّث الفطرة بجملة ﴿دَسَّاهَا﴾ و هي فعل ماضٍ من باب التفعيل و أصلها «دسو» و هو يعني إخفاء الشيء في داخل شيء آخر كالتراب (الدفن)، و معنى ذلك أن فطرة الإنسان وديعة إلهيه في ذات جميع الناس و لها آثار مفيدة لا تُحصى، و لكنها تُدفن بالإعراض و الغفلة عنها و تضمحلّ آثارها بالكامل و تكون بحيث لا يبقى من إنسانية الإنسان إلا شكله و صورته أي أن صورته صورة إنسان، و أما سيرته و حقيقته فهي نفس الطباع و الأميال و الغرائز التي تشترك فيها سائر الحيوانات معه؛ «فالصورة صورة إنسان و القلب قلب حيوان»[2].

و إنّ الله سبحانه يعتبر مثل هذا الإنسان كالحيوان أو أدنى منه؛ ﴿أُولئِكَ

---

۱. سورة الشمس، الآية ۹-۱۰.

۲. نهج البلاغة، الخطبة ۸۷.

﴿كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[1]. و السرّ في كون الإنسان العاصي المنحرف أضلّ من الحيوان هو أن الحيوان يتصرّف بمقتضى الوهم و الخيال في الجانب الإدراكي و الشهوة و الغضب في الجهة المحرّكة، و أما الإنسان فهو يتمتع على خلافهم بالعقل النظري و العملي و لكنه لا يتصرّف بمقتضى عقله فيكون في رتبة أدنى و أضلّ من الحيوان.

تعدي الناس على حقوق الآخرين

إذا ألقينا نظرة على أوضاع العالم في الوقت الحاضر ـ كما كان ذلك في الماضي أيضاً إلى حدّ ما ـ لوجدنا و للأسف أن أفراد البشر قد أعرضوا عن التفكير بفطرتهم الإلهية و الإنسانية مبادرين إلى دفن هذه الوديعة الإلهية باتباع أميالهم و احتذاء جهلهم العلمي و جهالتهم العملية. و قد أودعوا أغلب مظاهر فطرتهم و لاسيما التي تخصّ المسائل الاجتماعية في بقعة النسيان بحيث أنهم باتوا يعتقدون أن معونة الآخرين أمر عديم الجدوى بل هو غرامة.

فهم يفكّرون بأنفسهم أكثر من كلّ شيء و يشعرون شعوراً مفرطاً ببعدهم و غرابتهم الكبيرة عن الآخرين و تتلخّص القيم لديهم في الرفاه و مزيد الأرباح و ذلك بصورة فردية على الإطلاق. و إنّ أصل التفاهم و التعاون مع سائر الناس قد مال إلى الأفول و الخمول و لم يبق منه إلا ظاهراً صورياً يتقربون الأشخاص من خلاله إلى مآربهم النفعية.

---

١. سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

و قد أصبح اليوم التفاهم و التعاون بين الناس عرضة لطباع الناس الحيوانية بحيث أن تشكيل أصغر دائرة اجتماعية (العائلة) أصبحت تعوقها مطبات و عثرات كثيرة، بمعنى أن الناس غير قادرين بمقتضى فطرتهم ـ و هذا ما تسانده الأميال الشخصية أيضاً ـ على أن تكون لهم حياة مشتركة مع شخص آخر و تحت سقف واحد.

تفاقم الأزمة في مركز العائلة

إن الأزمة في مركز العائلة ـ الذي يشكّل أسس المدنية في المجتمع ـ قد تجذّر و ترسّخ بحدّ أعيي علماء الاجتماع و القانون في العالم رغم علمهم بأن ضعف هذا المركز قد يوقع المجتمعات في العديد من المهاوي و المهالك. فهم عاجزون عن حلّ هذه الأزمة بل و لا يملكون القدرة لإيقافها عند حدّها و عدم تراجعها بحيث أنه كلما يمضى من عمر التطوّر الصناعي و الرُقيّ العلمي في العالم و كلما تزايدت المراحل المختلفة ـ التي قد سميت بأسماء مختلفة كـ «الحداثة» ـ كلما تضاءلت أهمية العائلة أكثر و تزايدت إحصائيات الطلاق و الإباحية و الأطفال الذين ليس لهم معيل و تصاعدت بالتالي نسبة التعدي و التجاوز و الخشونة.

و من جانب آخر فإن أردنا دراسة آثار تلوثّ الفطرة في مجال أوسع و على الصعيد الدولي لواجهتنا أوضاع أشدّ خطورة بأضعاف المرات بحيث أنّ شدة ظلم الدول الأقوى و جورهم تتزايد يوماً بعد آخر على الدول الأخرى و

إن الدول الضعيفة و إن لم تحمل اسم «المستعمرة» كما في السابق و لكنها تتحمل بالنسبة للعصور الماضية مزيداً من العذاب و الأذي إزاء استعمار الدول القوية و استعبادهم و استثمارهم و استحمارهم بحيث أن العلاقات السياسية و الثقافية و الاقتصادية بين الدول القوية و الضعيفة قد ارتكزت على أساس ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ استعلى﴾[1] أي على أساس قانون الغاب؛ و مثالها البارز و الرسمي هو حق الفيتو للدول الكبري حيث يحق للبلدان القوية من خلاله أن يعرضوا عن مصالح و آراء عشرات الدول لتأمين مطامعهم.

و الحاصل أن الناس رغم أنهم يتمتعون بذات و فطرة طاهرة و قيمة، يقومون في كثير من الأحيان و عبر تلويث فطرتهم الإلهية بالقضاء على مظاهر هذه الوديعة الإلهية ـ و لاسيما في بعدها الاجتماعي ـ و يوقعون أضراراً جسيمة على المجتمع بل و على المحافل الدولية أيضاً و في كلمة واحدة يلوّثون مدنيتهم و هذا ما هو ظاهر في العصر الحاضر أكثر من السابق.

تأثير العلاقات مع الأرحام و المجتمع في سلامة البيئة النفسية

لقد عنى الإسلام لتأمين سلامة البيئة علاوة على أبعادها المادية بالبعد المعنوي أيضاً معتبراً أصل الودّ و الإخاء و العلاقة الحسنة بين جميع أبناء البشر مفيداً في بعد العلاقات الاجتماعية و قد بالغ في الاهتمام لهذا الأمر بإيجاد الأواصر بين أفراد العائلة و الأرحام و المجتمع الإسلامي. فمن جانب وصّى

---

١. سورة طه، الآية ٤٦.

بتعزيز هذه الأواصر و من جانب آخر نهى بشدّة عن قطعها: ﴿الَّـذِينَ يَنْقُـضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّـهُ بِـهِ أَنْ يُوصَـلَ وَيُفْـسِدُونَ فـي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾[١].

فإنّ لـ «القطع» مفهوم شامل تختلف مصاديقه بتعدد مواطنه فقد يرد القطـع بمعنى طيّ الطريق الذي يمهّد السبيل للوصل و هو قطع ممدوح و قد نسبه القـرآن الكريم للمجاهدين حيث يقول: ﴿وَلاَيَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْـزِيَهُمُ اللّـهُ أَحْسَنَ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٢]، و قد يرد القطع بمعنى فصل الشيء عما أمر الله بوصله و هو قطع مذموم.

و قد ربط الله سبحانه العبد بمولاه فإن قطع عبد رابطة العبوديـة هـذه فقـط قطع بهذا العمل ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾[٣] كما أنه مصداق كامل لنقض العهد الإلهي.

و كذلك بما أنّ الله قد جعل الإنسان موجوداً اجتماعياً، فقد أمره بالترابط مع أفراد عائلته و أرحامه و إخوته فـي الدين و جيرته و الأمة الإسلامية و إمـام المسلمين و كذا الترابط الإنسانـي مع المجتمعات غير الإسلامية فـي ضوء الأمـر بالعلاقات الدولية فـي الإسلام و قد تمّ تبيـان جميـع هـذه المـوارد بالإجمـال و التفصيل فـي آيات القرآن الكـريم و سـنة المعـصومين عليهم السلام و مـن قطـع هـذه

١. سورة البقرة، الآية ٢٧.

٢. سورة التوبة، الآية ١٢١.

٣. سورة البقرة، الآية ٢٧.

الأواصر فقد نقض العهد الإلهي و قطع ما أمر الله به أن يوصل. و فيما يلي نقوم بشرح الموارد المذكورة:

١- النهي عن قطيعة الأرحام

إن قطيعة الإنسان لأبيه و أمه و أولاده من المصاديق البارزة لقطع ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾[١]. فإن القرآن الكريم يقول في شأن الوالدين: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾[٢] و يتعرض لاحترام الأم بمزيد من التأكيد قائلاً: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[٣] و لبيان أهمية احترام الأبوين ذكر في بادئ الأمر اسم الله المبارك ثم أردفه باسم الأب و الأم لتظهر أهمية المسألة من خلال وحدة السياق، لأن الوالدين هم مجرى فيض الخالق و عقوقهما من المصاديق البارزة لقطيعة الرحم و من الذنوب الكبيرة.

و إن قطيعة الأرحام و الأقرباء أيضاً من مصاديق قطع ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾[٤] حيث يقول القرآن الكريم: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾[٥]، و المراد بالأرحام هم الأقرباء عبر النسب و السبب حيث ذكر

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٧.

٢. سورة العنكبوت، الآية ٨.

٣. سورة لقمان، الآية ١٤.

٤. سورة البقرة، الآية ٢٧.

٥. سورة النساء، الآية ١.

الأقرباء بالسبب في بعض النصوص و خطب العقد أيضاً في حكم الأرحام بالنسب، فعلى سبيل المثال يظهر من كلام رسول الله ﷺ في مراسيم زواج فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) و علي بن أبي طالب (سلام الله عليه) أو من الخطبة التي تم إيرادها في مراسيم زواج الإمام الجوادعليه السلام بأن الله يعتبر المصاهرة نسباً لاحقاً: «جعل المصاهرة نسباً لاحقاً»[١]، فعلى الإنسان أن لا يقاطع الأرحام بالسبب أيضاً.

إنّ بعض الأحكام التي شُرّعت في الشريعة الإسلامية مشروطة صحتها بالإسلام كالصلاة و الصوم، فإن غير المسلم و إن وجبت عليه الصلاة بيد أنها باطلة من دون اعتناق الإسلام، و بعضها الآخر غير مشروطة صحتها بالإسلام و هي من قوانين الإسلام الدولية و مراعاة حقوق الوالدين من هذا الصنف، فإن كان الأبوان ملحدين أو من أهل الكتاب أيضاً يجب على الولد احترامهما و قضاء حوائجهما؛ ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾[٢].

و إن صلة الرحم لا تقتصر على زيارة الأقرباء و تفقّدهم بل مصداقها الكامل هو قضاء حوائجهم و إدخال السرور عليهم قبل الآخرين.

و إن القرآن الكريم بالنسبة للمرأة و الرجل اللذين يمثلان محور العائلة أيضاً قد أمر بالوصل حيث يقول: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[٣]، فمن لم يتصرف في

---

١. بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١١٩.

٢. سورة لقمان، الآية ١٥.

٣. سورة النساء، الآية ١٩.

البيت مع زوجته تصرّفاً معقولاً يكون قد قطع ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾[1]، كما و جعل للطرفين حقوقاً مشتركة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[2]، و عدم مراعاة أيّ منها يؤدي إلى قطع ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ لأن أساس تشكيل العائلة و تحكيمها إنما هو بأمر من الله سبحانه.

و إنّ الصلة التي أمر الله سبحانه بها للبعض في نطاق العائلة و إن لم يكونوا من أهل الدين تمتدّ إلى حيث لا تضرّ بسائر الأحكام الدينية و أما إذا تزلزلت الأحكام الدينية الأخرى بسبب هذه الصلة مع غير المتدينين فهي لم تعد غير ضرورية فحسب بل تحرم أيضاً، كما إذا أراد الأبوان غير المسلمين أن يجرّوا ولدهم إلى الشرك: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾[3] فلا يبقى هنا مجال لصلة الرحم. و من كلام رسول الله ﷺ الذي يعدّ من جوامع الكلم و الأصول الحاكمة على جميع الأحكام الشرعية هي قوله: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[4]، أي لا يتأتى لأحد أن يعتبر نفسه معذوراً في طاعة مخلوق و إن كان أعلى منه مرتبة في إطار ما يخالف الشرع، و إن العبارة المعروفة «المأمور معذور» لابد و أن تكون محكومة لهذا الأصل الكلي و الجامع النبوي.

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٧.

٢. سورة البقرة، الآية ٢٢٨.

٣. سورة لقمان، الآية ١٥.

٤. نهج البلاغة، الحكمة ١٦٥.

٢- النهي عن قطيعة الإخوة في الدين

إن المؤمنين إخوة فيما بينهم؛ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[١] و من لم يراع حرمة أخيه المسلم فهو قاطع لـ ﴿مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾[٢].

و قد روي عن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال: «صحبة عشرين سنة قرابة»[٣] فتترتب آثار القرابة على مثل هذه الصحبة و لا يحقّ لأحد إيذاء صاحبه لعشرين سنة و القطيعة معه.

كما أن العلاقة بالجيران أيضاً إلى شعاع أربعين بيتاً توجب بروز حقّ الجوار[٤] و قد أمر الله سبحانه بمراعاة حقوق الجيرة و من لم يراع هذه الحقوق فيسكون بمقداره مشمولاً لـ ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾[٥]. علماً بأن شعاع أربعين بيتاً لا يختص بالجوار الأفقي و الحدود الأربعة المعهودة بل يشمل الجوار العمودي لسكّان العمارات، أي أنّ الاتجاه الأعلى و الأسفل أيضاً يُضاف إلى الاتجاهات الأربعة المعروفة.

٣- النهي عن قطيعة الأمة الإسلامية

إن من ينفصل عن صفّ المسلمين يكون مشمولاً لقطع ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن

---

١. سورة الحجرات، الآية ١٠.

٢. سورة البقرة، الآية ٢٧.

٣. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٥٧.

٤. الكافي، ج ٢، ص ٦٦٩ قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): «كلّ أربعين داراً جيران من بين يديه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله.

٥. سورة البقرة، الآية ٢٧.

يُوصَلَ﴾. إذ يقول الله سبحانه في مسألة الترابط بين الأمة الإسلامية: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾[1]. فمن تمسّك لوحده بحبل الله و انفصل عن الأمة الإسلامية و تفرّد بعمله و استبدّ برأيه يكون مشمولاً للقطع المذكور، لأن الله سبحانه دعا الأمة الإسلامية إلى توحيد الصفوف و أمرهم بالتمسك بحبل الله جميعاً. و لذا لا يحق لأحد الاستبداد بالرأي و الانفصال عن جماعة المسلمين لأن رسالة الآية المذكورة تكمن في أمرين؛ الأول الاعتصام و التمسّك بحبل الله المتين و الثاني «الاجتماع في الاعتصام» و «المعية في التمسّك»، كصلاة الجماعة حيث تضمّ في مكنونها بالإضافة إلى أصل الصلاة، الاجتماع و المعية في إقامة الصلاة.

فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «فإن الشاذّ من الناس للشيطان كما أن الشاذّ من الغنم للذئب»[2]، فكما أن الشاة المتخلفة عن قطيع الغنم تكون محرومة من صيانة الراعي و تقع طعمة بيد الذئب، كذلك الشخص المتخلّف عن الأمة الإسلامية المستبدّ برأيه المتفرّد بعمله يقع طعمة بيد الشيطان أيضاً. و لذا يقول الله سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾ و يذمّ الذين يبثّون التفرقة قائلاً: ﴿وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[3] و يعتبر الاختلاف الباطل علامة على

---

١. سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.

٣. سورة المؤمنون، الآية ٥٢-٥٣.

الجهل و يصف المختلفين و المخالفين بلا سبب بفقدان العقل: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[1].

٤- النهي عن قطيعة القائد الإسلامي

إنّ أهمّ مصداق لقطع ﴿مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾[2] هو قطع العلاقة و الارتباط مع إمام المسلمين حيث يقول القرآن الكريم في هذا الشأن: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3]، فالمؤمنون الصادقون علاوة على الاعتقاد بالله و النبي لم يتركوا القائد في المسائل الاجتماعية التي لابد من تواجد الجميع فيها كالحرب أيضاً. و أما الذين لم يحضروا من الأساس فهم محكومون منذ الخطوة الأولى و الذين حضروا بادئ الأمر ثم أرادوا ترك الساحة عليهم الاستئذان من وليّ المسلمين و لابد أن يكونوا معذورين حقيقة لأن من يترك الساحة من دون إذن يكون قد قطع ﴿مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾[4].

---

١. سورة الحشر، الآية ١٤.

٢. سورة البقرة، الآية ٢٧.

٣. سورة النور، الآية ٦٢.

٤. سورة البقرة، الآية ٢٧.

فقد أمر الله سبحانه رسوله في هذه الكريمة أن يجبر حرمان الشخص المأذون له بترك الساحة بالاستغفار لأنه قد حُرم من فيض الحضور بين يدي الإمام كما أنه لا يتحتّم على القائد الإذن بالرحيل لكلّ من يستأذنه بل إنّ زمام الأمور بيده و بإمكانه الإذن لمن شاء منهم بما يراه موافقاً للحكمة و الصلاح.

و يقول القرآن الكريم في الذين ينتظرون النبي ﷺ بتربّص و ارتياب حين يدعوهم للحضور في المواطن الاجتماعية المهمة كالحرب أن يدير بوجهه الشريف أو أن يدخل أو يخرج شخص فيختبئون خلفه للفرار من الساحة: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]، فلو لم يرتدع هؤلاء عن مخالفتهم سيصيبهم أحد الخطرين إما الفتنة أو العذاب الأليم. كما يقول الله سبحانه للذين كانوا مع النبي في جميع المراحل بأن لا يتركوا خطّ الدفاع فيصاب القائد بضرر: ﴿مَاكَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَسُولِ اللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَن نَفْسِهِ﴾[2]، و مضمون هذه الآية هو التحذير من «الاستيثار» و الترغيب بـ «إيثار» الرسول الأكرم ﷺ على النفس.

و الحاصل أن قطع العلاقة مع ما أمر الله بوصله يكون مشمولاً لآية ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾[3]. بيد أنّ بعض مصاديق القطع بارزة و

---

١. سورة النور، الآية ٦٣.

٢. سورة التوبة، الآية ١٢٠.

٣. سورة البقرة، الآية ٢٧.

محددة و قد مُنيت بمزيد من العناية و التوجه كترك صلة الرحم و عقوق الوالدين و بعض مصاديقها غير بارزة و لا تتبادر إلى الذهن بسرعة.

إمكانية التعايش السلمي مع أتباع سائر الأديان

ليس المراد بالتعايش السلمي بين الأقوام و الملل أن يعتبر كلّ منهم الطرف الآخر من أهل جهنّم و يطرد بعضهم بعضاً و لكنهم يعيشون جنباً إلى جنب من باب الاضطرار، إذ من الممكن أن يعتبر كل واحد منهم الطرف الآخر من أهل الباطل و لكنه معذور لا أنه من أهل النار، لأنه ليس كلّ باطل و مُبطل في النار بل قد يكون التبس عليهم الأمر في تشخيص الحق و من أخطأ في تشخيص الهدف بعد السعي الحثيث فهو و إن كان محروماً من الفوز بالفيض الإلهي و لكنه قد لا يدخل النار.

و بعبارة أخرى فإن التعايش السلمي لأرباب النحل المتعددة ليس من باب تحمّل الأذى و الصبر على المكروه و في الاصطلاح التظاهر بالسِلم، و بتعبير المساومة السياسية بل هو ضرب من المساومة الإنسانية إذ من الممكن أن يكون أحد على حق و الآخر على باطل بيد أنّ الذي على الباطل لم يكن مقصّراً في تشخيص الحقّ بل كان قاصراً، أي أنه جدّ و اجتهد للوصول إلى الحقّ و لكنه لم يصل إلى المقصد فإن مثل هذا المرء كلامه باطل و لكنه ليس من أهل النار بل هو معذور و ممن قال الله في حقهم: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾[1] فيعود أمره إلى الله إما العذاب ـ في حال اقتراف الذنوب ـ أو التوبة و اللطف.

---

١. سورة التوبة، الآية ١٠٦.

المعيار فـي التعايش السلمي

يظهر من الآيات القرآنية أن أصحاب الأديان المختلفة بإمكـانهم التعـايش السلمي فيما بينهم عبر قبول كل واحد منهم الخطـوط العامـة لـدين الآخـر. و بعبارة أخرى يكون الدين الحاكم هو دين واحد و أتباع سائر الأديـان ـ الـذين يسيرون فـي أحوالهم الشخصية وراء الدين الخاص بهم ـ يتبعون فـي مسائل البلد العامة الدين الحاكم.

و من هنا يقول النبـي ﷺ مخاطباً أهل الكتاب: **﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلَّا اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللّهِ﴾**[1]، و مفهوم هـذه الآيـة هـو أن نكـون موحّـدين و أن لا يفرض أي واحد منا نفسه على الآخر و أن نتقبّل الخطوط العامة للوحي، علماً بأنّ هذا لا يعنى التعدّدية الدينية بأن تكون جميع العقائد المتقابلة حقّاً، فإن الحـقّ ليس إلا المعارف المشتركة و المختصة بالدين الخاتم و الدين الوحيد الحـاكم هـو دين الإسلام و الآخرون يعيشون فـي ظلّ الإسلام، و أما أهل النجاة فـي المعاد فهم فرقة واحدة لأن النجاة و السعادة الأبدية فـي المعاد و القيامـة لهـا طريـق واحد ليس إلا.

و بيان ذلك يكمن فـي سؤالين لابد من الفرز بينهما:

١- هل يصحّ التعايش السلمي مع أتباع سائر الأديـان و المـذاهب؟ و هـل يتأتى لأصحاب الأديان و المذاهب المختلفة أن يعيشوا جنباً إلى جنب بعض من

---

١. سورة آل عمران، الآية ٦٤.

أجل الحفاظ على استقرار البلد و أمنه؟ لهذا السؤال جواب خاص يرد في محله.

٢- هل أنّ وسيلة التكامل الحقيقي للإنسان واحدة أم متعددة؟ و هل ينال الإنسان الكمال النهائي عبر الاعتقاد بحقيقة واحدة و السلوك العملي لطريق واحد؟ و هل أن وسيلة تكامل الإنسان حقائق متعددة أم حقيقة واحدة؟ و هل أن ظرف ظهور كمالات تلك الحقيقة الواحدة هو القيامة؟

الجواب: بالنسبة لكمال الإنسان الحقيقي و مسألة القيامة لا يوجد إلا طريق واحد لوصول الإنسان إلى الكمال النهائي، و أما لإدارة شؤون البلد و جمع الآراء المختلفة لأرباب الفكر و النظر فهناك طريقان: ١- أن يعتنق الكلّ دين واحد. ٢- أن يتعايش أتباع الأديان المختلفة فيما بينهم سلمياً بالحفاظ على معتقداتهم و العمل بالقوانين المنحدرة من دين واحد، إذ لا يتأتى لأي أحد في النظام الدنيوي أن يكون رباً لعقائد الآخرين و أفكارهم فيقول بأن قوة التفكير مختصة بي و كل ما يترشّح من فكري فهو حق و على الآخرين أن يُفكّروا كما أُفكّر و كلّ فكر ما خلا هذا فهو محكوم، بل إن طريق التفكير مفتوح بوجه الجميع و لذا قال القرآن: ﴿وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً﴾[1] و معنى ذلك أن يقول بأن أفكاري لابد و أن تكون هي الحاكمة، بل لابد من قبول الفكرة المتقنة العميقة أياً كان مُقدّمها.

---

١. سورة آل عمران، الآية ٦٤.

فإن التعايش السلمي مع أتباع سائر الأديان و حريتهم في التفكير و الإدلاء بآرائهم يغاير سعادتهم بأجمعهم في الآخرة لأن الهدف من الخلق كما ذكرنا و كذلك فطرة الناس و الطريق الذي يسلكوه واحد فعلى الإنسان أن يسير بفطرة واحدة و في طريق واحد و صوب هدف واحد للوصول إلى مقصد واحد.

فإن نظرنا إلى الآخرة في دراسة الآراء و العقائد لا يكون الحق إلا واحد و لا ينجو إلا من سلك طريقاً واحداً و لكن إن نظرنا في ذلك إلى الدنيا فبإمكان الناس بمختلف الأديان أن يعيشوا مع بعض أحراراً في التفكير و أن يسلكوا الطريق الصحيح و يصلوا إلى المقاصد الدنيوية من دون اجتياز حدود العقل و النقل، لأن الدين الحق الواحد قد بيّن كيفية التعايش السلمي فيما بين أتباع مختلف الأديان.

دعوة الإسلام إلى التعايش السلمي

إن الإسلام يوصي المسلمين أن يتعاملوا مع أتباع الأديان السماوية و المدارس البشرية الأخرى بعدالة و سِلم و هذا أمر قرآني و النظام الإسلامي أيضاً يسير على هذا المنحى. ففي القرآن الكريم:

المؤمنون و المسلمون لابد و أن يتعايشوا فيما بينهم بصورة سلمية أخوية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[1].

---

١. سورة الحجرات، الآية ١٠.

كما ينبغي عليهم التعايش السلمى مع الموحّدين الذين يعيشون في ظلّ النظام الإسلامي كاليهود و النصارى المعتقدين بالله و النبوة الإلهية و بعبارة أخرى و من خلال نظرة خاصة أهل التوحيد ـ سوى المعتقدون عمداً بـ «التثليث» أو «التشبيه» ـ

و يتحتم عليهم كذلك التعامل السلمي مع الكفار و الملحدين الذين لا يؤمنون بالتوحيد و لا يعتقدون بالمبدأ و المعاد لاتّباعهم المدارس الإلحادية و المادية و لكنهم لا يبغون الإطاحة بالنظام الإسلامي بل مستعدّون للتعايش السلمي مع المسلمين، لأنهم إن وقفوا بوجه النظام الإسلامي و بادروا إلى إسقاطه فإنّ الإسلام يأمر بالدفاع أمامهم و مجابهتهم. إذ يقول الله سبحانه في سورة «الممتحنة» في حقهم: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

إذن فيسوغ التعايش السلمي مع الذين كانوا قد تركوا النبي ﷺ و شأنه عندما كان مظلوماً في مكة و لم يتعرّضوا للإسلام و المسلمين بعد الهجرة من مكة إلى المدينة و تشكيل الحكومة الإسلامية أيضاً. كما و يمكن مع الكفّار المحايدين الذين لم يتحركوا و لم يُحركوا ضدّ الإسلام و بالتالي لم يعمدوا و لن يعمدوا إلى فعل يضرّ بالإسلام و المسلمين من الناحية المالية و الفكرية و

---

١. سورة الممتحنة، الآية ٨-٩.

العسكرية و السياسية أن يكون هناك تعايشاً سلمياً بأن تكون الحياة معهم إنسانية و معنى ذلك لا يقتصر على اجتناب الظلم فحسب بل لابد من التعامل معهم بكامل القسط و العدل و الإحسان إليهم لأن العدل و الإنصاف و الإحسان مطلوب و إن كان للكافر و الظلم و الجور أيضاً مرفوض و إن كان على الكافر.

و على هذا فإن التعايش السلمي مع أتباع الأديان و المدارس الأخرى أمر مقبول في الرؤية القرآنية و أما أنهم بأسرهم من أهل الجنة أم من أهل النار فهو بحث آخر، علماً بأن القاصر المعذور أمره موكول إلى الله.

الفرق بين التعايش السلمي و بين التسامح و التساهل

هناك فرق بين التعايش السلمي و بين التسامح و التساهل. فإن الإسلام قد دعا المسلمين أن يكون لهم مع الكافرين و المشركين تعايشاً سلمياً وفق شروط خاصة، و لكنه لم يدعهم بتاتاً إلى التسامح و التساهل و لم يقل لهم بأن يتعاملوا مع الكفار و المشركين من باب التسامح و التساهل بل قد ارتكز أساس القرآن على عدم مداهنة الباطل و أهل الباطل: ﴿فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[1] مداهنة مع انحراف عن الحق. و بعبارة أخرى فإنّ القرآن يُحذّر نبيّ الإسلام ألا يلين قيد أنملة أمام مقترحات المشركين المنحرفة و ألا يداهن أهل الباطل.

فإن لأهل الحق و السائرين نحو هدف محدّد، أهداف مقدسة لا يتاجرون بها بتاتاً و لا يداهنون و يتفاوضون فيها و لا يتنازلون للطرف المقابل أمام وعود

---

١. سورة القلم، الآية ٨-٩.

باطلة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «و لعمري ما عليّ من قتال من خالف الحقّ و خابط الغيّ من إدهان و لا إيهان»[١].

فإنّ الإنسان المتديّن لا يضعف و لا يهن و لا يلين أمام الأعداء و التيارات الباطلة لا في مقام العمل و لا في مقام العقيدة و لا يتنازل عن مواقفه الإيديولوجية و الاعتقادية في مقام العقيدة و عن مواقفه الأصولية في مقام العمل.

و قد وُصف دين الإسلام في أحاديث المعصومين عليهم السلام بالشريعة «السمحة السهلة» لا بالتساهل و التسامح، و معنى ذلك أن دين الإسلام ينسجم مع فطرة الإنسان و لذا فهو قابل للتحمّل و لا يضمّ في مكنونه أحكاماً عسيرة لا تنسجم مع طاقة الإنسان و المجتمع.

روى الكليني أنه جاءت امرأة «عثمان بن مظعون» إلى النبي صلى الله عليه و آله فقالت: يا رسول الله! إنّ عثمان يصوم النهار و يقوم الليل، فخرج رسول الله صلى الله عليه و آله مغضباً ... حتى جاء إلى عثمان فوجده يصلي، فانصرف عثمان حين رأى رسول الله صلى الله عليه و آله فقال له: «يا عثمان! لم يُرسلني الله تعالى بالرهبانية و لكن بعثني بالحنيفية السهلة السمحة أصوم و أصلي و ألمس أهلي فمن أحبّ فطرتي فليستنّ بسنّتي و من سنّتي النكاح»[٢]. فوصف النبي صلى الله عليه و آله دينه الحنيف بالسمحة السهلة.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٤.

٢. الكافي، ج ٥، ص ٤٩٤، ح ١.

و روي عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال: «إن الله تبارك و تعالى أعطى محمداً صلى الله عليه و آله شرائع نوح و إبراهيم و موسى و عيسى عليهم السلام: التوحيد و الإخلاص و خلع الأنداد و الفطرة الحنيفية السمحة و لا رهبانية و لا سياحة أحلّ فيها الطيّبات و حرّم فيها الخبائث و وضع عنهم إصرهم و الأغلال التي كانت عليهم»[1].

و يقول الله واصفاً القرآن: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ﴾[2].

فمعارف القرآن و أحكامه و تعاليمه يسيرة يتقبّلها الجميع كما وصف الله القرآن باليُسر و السهولة و قد وصفه بالثقل أيضاً و معنى ذلك أن القرآن يسير و لكنه ليس بواهن خفيف فارغ و إنما هو ثقيل. فالسهولة و اليُسر في قبال الصعوبة و العُسر و الدين و المسائل القرآنية سهلة يسيرة و العمل بها ليس بالصعب العسير و لكنه ثقيل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[3]. و «الثقيل» بمعنى راجح الوزن باهظ ذو محتوى غني عال و بما أنّ محتوى القرآن عميق غني فهو بعيد عن الوهن و الفراغ و الوهم و الظنّ. فإن القرآن يفوق مستوى عامة الناس و إن كان بالإمكان أن تتنزّل مباحثه و معارفه السامية إلى مستوى العرف لفهم العامة و إيقاف الآخرين على هذه المعارف من خلال البيان السليس البسيط.

إذن فالدين الإسلامي سهل يسير و لكن لا سبيل للتساهل و التسامح إليه لأن التساهل و التسامح من سمات الإنسان و من الصفات المذمومة التي عبّر

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٤١٧، ح ١.

٢. سورة القمر، الآية ١٧.

٣. سورة المزمل، الآية ٥.

عنها القرآن بـ «المداهنة» و أما السهولة و السماحة فهي من سمات الدين و من الصفات الممدوحة.

دور الإسلام في السِلم العالمي و سلامة البيئة

إنّ الإسلام دين شمولي خالد و لذا يعتبر نفسه المفتى الأعظم للسِلم العالمي و لذا لابد من تقديم شرح مختصر بشأن الإسلام و السِلم و الشمولية و سائر مبادئه التصوّرية و التصديقية.

يعتبر الإسلام أهمّ عامل يبعث على حياة المجتمعات البشرية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[1]. فإن حياة الإنسان التي تفوق الحياة الطبيعية لا تتحقق من دون سِلم عادل.

ثم إنّ الإسلام قادر على قيادة السِلم العالمي لما يحمل في جوهره من حياة و سلام. و من هنا فقد تمّ تعريف نبيّ الإسلام ﷺ بكونه رحمة عالمية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[2] و السِلم العالمي من المظاهر البارزة للرحمة الإلهية.

و إنّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي أنزله الله سبحانه على آدم و الخاتم و سائر الأنبياء عليهم السلام، و قد تجلى في قرآن النبي محمد ﷺ بصورة كاملة و شاملة كلّ ما ورد في صُحُف إبراهيم و زبور داوود و توراة موسى الكليم و

---

١. سورة الأنفال، الآية ٢٤.

٢. سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

إنجيل عيسى المسيح عليه السلام. و إنّ الاختلاف المحمود و التفاوت الممدوح بين الأديان الإلهية ليس إلا في المنهج و الشريعة فقد أشار القرآن الكريم إلى الوحدة في الدين: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾[١]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[٢] و بشّر كذلك بتعدّد المنهج و الشريعة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾[٣].

و إنّ السرّ في وحدة الدين هو ثبات فطرة الإنسان و اتّحادها الشامل: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾[٤] و السرّ في تعدد المنهاج و الشريعة هو تغيّر طبيعة البشر في طول التاريخ. فإنّ السِلم يقوم بتأمين الفطرة الإنسانية الثابتة فيما يخصّ أصول الإسلام الثابتة و بتزويد الطبيعة البشرية المتغيّرة فيما يتعلق بمناهجه و شرائعه المتنوعة و المختلفة.

التصالح بين الأديان و الأنبياء و الشعوب المتدينة

إنّ الإسلام عبر تبيانه التصالح بين الأديان و التصالح بين الأنبياء و أولياء الله و التصالح بين أمم الأنبياء الصادقة قد وضع صراط السِلم العالمي نُصب أعين سلّاك طريق التعايش السلمي لكي تعيش الحكومات مع بعض و الشعوب مع بعض و الحكومات مع شعوبها بسلام و تبقى حقوق الإنسان و

---

١. سورة آل عمران، الآية ١٩.

٢. سورة آل عمران، الآية ٨٥.

٣. سورة المائدة، الآية ٤٨.

٤. سورة الروم، الآية ٣٠.

لاسيما حقوق الأطفال و النساء و الشيوخ مصونة من تطاول المتغطرسين المكتنزين للأموال.

أما تصالح الأديان الإلهية فلكونها قد نزلت من عند الله الواحد العليم المحض و كلّ ما ينزل من جانب الله الحكيم فهو مصون من خطر التنازع و الاختلاف: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾[1]. و من هنا لم يقع أي دين في ورطة الاختلاف الداخلي و في هاوية الاختلاف الخارجي مع دين آخر لأنها بأجمعها نازلة من عند الله الواحد الحكيم.

و أما تصالح أنبياء الله فلعصمتهم من السهو و النسيان العلمي و صونهم من العصيان العملي. و من هنا فإنّ السنّة الدارجة للرسول السابق هي التبشير بقدوم الرسول اللاحق و السيرة الرائجة للرسول اللاحق هي التصديق بما جاء به الرسول السابق: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ...﴾[2]. فإن استقرار مثل هذا التصالح يحول دون بروز أيّ ظلم مارج.

و أما تصالح أمم الأنبياء الصادقة فلكون اتباع الأنبياء المنادين بالصلح و السلام يمنع الانحراف إلى حيث الجفاء و التخاصم. و من هنا فإن القرآن الكريم يعتبر جميع أمم الأنبياء بمثابة أمة واحدة: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ

---

١. سورة النساء، الآية ٨٢.

٢. سورة الصف، الآية ٦.

الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[1].

و الآن عبر إتقان هذه المباني يمكن الاستماع إلى نداء السِلم العالمي من حنجرة الوحي الإلهي و الإصغاء إليه بإنصات كامل: ﴿قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾[2]، إذ ليس المراد بـ «القول» هو الذي يُقابل الفعل و الكتابة و إنّما هو مرآة تعكس جميع الشؤون الاجتماعية كما أنّ المراد بـ «الناس» لا يخصّ صنفاً خاصاً منهم: ﴿فَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾[3]، فلا تختص الحرمة بالتطفيف و المسائل الاقتصادية بل تشمل كلّ بخس و تضييع و تلويث و غيرها في جميع المسائل الإنسانية مما يعود إلى العين و المنفعة و الانتفاع و غيرها و ما يرجع إلى التقنية و الإبداع و ما يتعلق باستخدام الطبيعة من أعماق البحار إلى سَمْك السماء و ذروتها.

نشر السِلم العالمي الثابت في ضوء نفي الظلم

من أجل التأكيد على هذا الأمر و الاهتمام بحقوق الناس، و بعد تحريم التطفيف بالنسبة لمصالح الآخرين الوطنية نهى عن أيّ ضرب من العثو و العيث و الظلم و الفساد: ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[4]. فلا يكفي

---

١. سورة المؤمنون، الآية ٥١-٥٢.

٢. سورة البقرة، الآية ٨٣.

٣. سورة الأعراف، الآية ٨٥.

٤. سورة الشعراء، الآية ١٨٣.

لإقرار سِلم عالمى ثابت الابتعاد عن الظلم و التباهى به بل لابد من الوقـوف أمام أيّ ضرب من التعدّي لأن الفساد أولاً يُهيّـئ الأرضـية لـضعف المراكـز العبادية و الثقافية و ثانياً يترك أثره السيء فـي الأرض و أهلها كذلك.

و إن هناك آيتان فـي القرآن الكريم تتحدثان عن التـأثير الـسيء لهـدم السِلم و تهديم بناء الصفاء و النظم الطبيعي:

١- ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

٢- ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَـةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[2].

فإنّ التناهي عن الظلم و نهي الظالم و إن كانـا أمـرين ضـروريين لنـشر السِلم العالمي الثابت بيد أنّ أثره البارز يظهر فـي الدفاع عـن المستـضعفين و النساء و الأطفال الذين لا ملجأ لهم: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِـي سَبِيلِ اللّـهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِـنْ

١. سورة الحج، الآية ٤٠.

٢. سورة البقرة، الآية ٢٥١.

هذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِن لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِن لَدُنكَ نَصِيرا﴾[١].

و يتّضح بتحرير المسائل المذكورة أن صراط السِلم العالمي و زاده و سلّاكه و قادته و بدايته و نهايته هي الإسلام المحمّدي الأصيل الذي تعرّض له الإمام الخميني (رحمه الله)، مفجرّ الثورة الإسلامية الإيرانية و القائد الديني الكبير للمسلمين في أفكاره العلمية و اهتم به في دوافعه العملية. و اليوم تمرّ الجمهورية الإسلامية بهذا النسيج في فترة انتعاشها و ازدهارها في الشؤون الداخلية و الخارجية.

تأثير الأصول السياسية للإسلام في السلام و أمن البيئة

واحدة من أهم فروع العلوم الإنسانية هي مسألة السياسة و قواعد إدارة البلاد. فإنّ الإسلام يعتبر الدين دستوراً للحياة الفردية و الاجتماعية في جميع الشؤون الثقافية و الاقتصادية و العسكرية و ... و ذلك من أجل أن يقوم الناس بالقسط و العدل الذي هو من الأركان الأصيلة للسِلم العالمي: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ﴾[٢]، و أنبياء الله في هذا الطريق الوعر لم يبخلوا عن الإيثار و بذل النفس و النفيس و استقبلوا الشهادة في سبيل الله من أجل ازدهار السِلم العالمي و توافر البيئة المناسبة لحياة الإنسان الإلهية: ﴿وَكَأَيِّنَ

---

١. سورة القلم، الآية ٨-٩.

٢. سورة الحديد، الآية ٢٥.

مِنْ نبــيّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّون كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فــي سَبِيلِ اللّــهِ وَمَـا ضَعُفُوا وَمَا استَكَانُوا وَاللّهُ يُحِـبُّ الـصَّابِرِينَ﴾[١]، ﴿وَيَقْتُلُـونَ النبـــيينَ بِغَيْـرِ الحَقِّ﴾[٢]، ﴿وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[٣].

بيد أنّ الطغاة المهاجمين للسلام العادل الذي هو عين المهادنة المحمودة فـي هذا الخضمّ لم يألوا جهداً فـي تبديله إلى سلام ظالم مفروض و الذي هو عين المهادنة المذمومة، فتارة يعدّون أساس الـدين خرافـات و ترّهـات و أخـرى يعتبرون تاريخ العمل به قد انقضى و باليأس من هذين الأمرين يلجؤون إلى حيلة حديثة و هي فصل الدين عن السياسة. و هدفهم المشؤوم من هذا الفرز اللامعقول هو خلع سلاح الدين من قدرة مجابهة القوى المهاجمة ليـشنّوا عليـه الهجمة بعد ضعفه و يأخذونه أسيراً مكبلاً بأيديهم فيُحرّفون متونه بما يـصبو إليه هواهم و يُسقطون أحكامه بما تميل إليه نفوسهم كما قال علي بـن أبــي طالب عليه السلام، هذا الإنسان العظيم من بين أئمـة أهـل البيـت عليهم السلام: «فـإنّ هـذا الدين قد كان أسيراً فـي أيـدي الأشـرار يُعمـل فيـه بـالهوى و يُطلـب بـه الدنيا»[٤]. فإنّ الطاغي المتلاعب بالسياسة لا يُنفّذ دسيسته السياسية بتاتاً مـن دون الاستمداد من الدين المظلوم العـالق علـى قلـوب النـاس، و إنّ وجـود

---

١. سورة آل عمران، الآية ١٤٦.

٢. سورة البقرة، الآية ٦١.

٣. سورة آل عمران، الآية ١١٢.

٤. نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

وُعّاظ السلاطين و مشايخ السوء و علماء البلاط و ... سند لتطاول السياسة الغاشمة على الدين بعد قطع يده عن السياسة.

اهتمام أنبياء الله بإقرار السِلم العالمي

إنّ ما هو مشهود في تاريخ الأنبياء الزاهي بوصفه «بيت الغزل» و «واسطة العقد» بعد التوحيد و عبادة الله الواحد هو مقارعة الظلم لإقرار السِلم العالمي العادل، و على سبيل المثال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ...﴾[1]. فإنّ خليل الرحمن عليه السلام رغم تحمّله عذاب ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾[2] المرير لم يترك مقارعة الطاغية نمرود، و موسى الكليم عليه السلام أيضاً وطأ ساحة السياسة الدينية بشعار مقارعة الظلم: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[3]، و إنّ المسلمين في جميع أرجاء العالم يطلبون من الله في صلواتهم الهداية لمثل هذا الطريق: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[4].

و هكذا أمر الله سبحانه موسى الكليم عليه السلام رسمياً بأن يتصدي للإطاحة بنظام السيطرة و نشر نظام العدل و السِلم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ

---

١. سورة الممتحنة، الآية ٤.

٢. سورة الأنبياء، الآية ٦٨.

٣. سورة القصص، الآية ١٧.

٤. سورة الحمد، الآية ٧.

أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[1].

فما زال الأمر بمقارعة الظلم: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[2] يُدوّي في مسامع التاريخ و الأمر بمجابهة الطغيان: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[3] يثور و يفور و ما زالت معجزة التدمير و خسف قارون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾[4] تهتزّ في قمة القوة الغيبية.

فعلى قادة الدين و القائمين على الشؤون الثقافية في العالم أن يخبروا الناس بأنّ اتّباع نبيّ الله يسبّب تيسير أخطر الطرق في ظلّ طاعة الله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى﴾[5]. و التمرّد عن هداية رسول الله يسبّب تحوّل أسهل الطرق إلى التيه و الحيرة: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[6].

و قد سُجّلت سيرة عيسى المسيح عليه السلام في مقارعة الظلم كسائر الأنبياء في الديوان الإلهي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى

---

١. سورة إبراهيم، الآية ٥.

٢. سورة طه، الآية ٢٤.

٣. سورة الشعراء، الآية ١٠.

٤. سورة القصص، الآية ٨١

٥. سورة طه، الآية ٧٧.

٦. سورة المائدة، الآية ٢٦.

ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[1].

إذن فلابدّ من الالتفات إلى هذه المسألة و هي أنّ أيّ تنمية عالمية سواء كانت في الشؤون التجارية أو السياسية أو غيرها لا تتبلور إلا في ضوء السِلم العالمي العادل و إلا فإن تنمية هذه الأمور لا تُنتج إلا تنمية الفساد و الاضطراب، و أنّ الاستقامة في سبيل الله تؤدي إلى نزول الملائكة لتأييد الذين استقاموا[2]، و أنّ التجربة العذبة لجمهورية إيران الإسلامية إنما هي من ثمار الصبر و الصمود لإقرار السِلم العالمي، «فانتظر حتى بزوغ فجر دولة المهدى (عج)».

---

١. سورة فصلت، الآية ٣٠.

٢. راجع: سورة الصف، الآية ١٤.

الفهارس

- فهرس الآيات
- فهرست الروايات
- فهرست الاعلام
- فهرست الكتب
- مصادر التحقيق

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

الحدیث | الصفحه

الحديث	الصفحه

فهرس الاعلام

فهرس الكتب

مصادر التحقيق

القرآن الكريم.

احياء العلوم: ابوحامدبن‌محمد غزالی، بیروت، دار الکتب العلمیه.

الالهیات من کتاب الشفاء: الشیخ الرئیس ابن سینا، م۴۲۸ هـ . ق، طبع مصر.

بحار الانوار الجامعة لدرر اَخبار الأئمّة الأطهار: محمدباقر مجلسی، دار احیاء التراث العربي، بیروت، (۱۴۰۳ هـ ق).

البرهان في تفسير القرآن: سید هاشم حسینی بحرانی (م ۱۱۷۰ ق)، قم، دار التفسیر، چاپ اول، ۱۴۱۷ ق.

تاریخ اندیشه و نظریه‌های انسان‌شناسی: ناصر فکوهی، تهران، نشر نی، الطبعة الاولی، ۱۳۸۱ ش.

التبیان في تفسير القرآن: ابوجعفر محمدبن‌حسن طوسی (۳۸۵ ـ ۴۶۰ ق) تحقیق: أحمد حبیب قصیر العاملی، بیروت، احیاء التراث العربی.

تحف العقول عن آل‌الرسول: الشیخ ابومحمدالحسین‌بن‌علی‌بن‌الحسین‌بن‌شعبة الحرّانی (قرن چهارم)، تصحیح و تعلیق: علی‌اکبر الغفاری، جامعه مدرسین، چاپ چهارم، ۱۴۱۶ق. قم.

تسنیم تفسیر قرآن کریم: عبدالله جوادی آملی، قم، دارالنشر للإسراء.

تفسير التحرير والتنوير: محمدطاهربن‌عاشور(م ۱۳۹۳ ق)، مؤسسه تاریخ العربی، بیروت، الطبعة الاولی، ۱۴۲۰ ق.

تفسیر موضوعی قرآن کریم جلد ۱۴ (صورت و سیرت انسان در قرآن): آیت‌الله جوادی آملی، قم، دارالنشر للإسراء، چاپ اسوه، ۱۳۷۹ هـ . ش.

التوحيد: محمدبن‌علی‌بن‌حسین‌بن‌بابویه قمی، م ٣٨١ ق، مقدمه علی‌اکبر غفاری، منشورات جامعه مدرسین، قم، ١٤١٦ هـ . ق.

ثواب الأعمال و عقاب الأعمال: محمدبن‌علی‌بن‌الحسین‌بن‌بابویه قمی، بیروت، موسسه الاعلمی للمطبوعات، ١٤٠٣ ق.

الجامع لاحکام القرآن: ابوعبدالله محمدبن احمد انصاری قرطبی، بیروت، دارالفکر، ١٤١٥ق.

حدیقة الحدیقة و شریعة الطریقة: أبوالمجد مجدودبن‌آدم سنایی غزنوی، به تصحیح و تحشیهٔ مدرس رضوی، دانشگاه تهران، تهران، ١٣٥٩ هـ . ق.

دیوان حافظ: خواجه شمس‌الدین محمد حافظ شیرازی (م ٧٢٩ هـ . ق)، به اهتمام دکتر خلیل خطیب رهبر، انتشارات صفی علی شاه، الطبعة الثالثة، ١٣٦٥.

دیوان فروغی بسطامی: انتشارات صفی علی شاه، تهران.

رحمة من الرحمن فـي تفسیر و اشارات القرآن: محیی‌الدین‌ابن‌العربی (م ٦٣٨ ق)، مطبعة نضر، دمشق، ١٤١٠ ق.

رساله‌ای در باب انسان: ارنست کاسیرر، ترجمه بزرگ نادرزاده، پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی.

روح المعانی فـي تفسیر القرآن العظیم و السبع المثانی: سید شهاب‌الدین محمد آلوسی بغدادی (م ١٢٧٠ ق)، تحقیق: محمدحسین عرب، بیروت، دار الفکر، الطبعة الاولی، ١٤١٤ ق.

شرح غرر الحکم و درر الکلم: عبد الواحد آمدی (م ٥١٠ هـ . ق) انتشارات دانشگاه تهران، ١٣٧٣ هـ . ش.

شور جاودانگی: دیوید چاید ستر، ترجمه، غلام حسین توکلی، مرکز مطالعات و تحقیقات ادیان و مذاهب، الطبعة الاولی، ١٣٨٠ ش.

صحیفه‌سجادیه: امام‌سجاد(علیه السلام)، ترجمه محیی‌الدین مهدی الهی‌قمشه‌ای، دار النشر الإسلامي، ١٣٨٧ هـ . ق.

علل الشرایع: ابوجعفر محمدبن‌علی‌بن‌حسین‌بن بابویه قمی (م ٣٨١ ق)، مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٤ ق.

عيون اخبار الرضا: ابوجعفرمحمدبن‌علی‌بن‌حسین ابن بابویه قمی (م ٣٨١ ق)، بیروت، مؤسسة الأعلمی، ١٤٠٤ ق.

کافی: اصول و فروع: محمدبن‌یعقوب کلینی رازی (م ٢٣٨ هـ . ق)، تصحیح علی اکبر غفاری، بیروت، ١٤٠١ هـ . ق.

کشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: الخواجه نصیرالدین طوسی والعلامة حلی، بیروت، ١٣٩٩ هـ . ق.

کلیات سعدی: مصلح بن عبدالله (م٦٩١ هـ .ق)، انتشارات میلاد، ١٣٨٠ هـ .ش، الطبعة الثانية.

کنز العمال في سنن و الأقوال: علاءالدین علی متقی (م ٩٧٥ هـ . ق)، موسسه رسالت، بیروت، ١٤٠٥ هـ . ق.

لسان العرب

مستدرك الوسائل و مستنبط المسائل: حاج میرزا حسین نوری طبرسی (م ١٣٢٠ هـ . ق)، تحقیق و نشر مؤسسه آل‌البیت للحیاة التراث، قم، طبع اول، ١٤٠٧ هـ .ق.

مجمع البيان في تفسير القرآن: امین الاسلام فضل‌بن‌حسن الطبرسی (م ٥٤٨ ق)، بیروت، دار المعرفة، ١٤٠٨ ق.

مفاتيح الجنان: حاج شیخ عباس قمی (١٢٩٤ ـ ١٣٥٩ هـ .ق).

مفردات الفاظ القرآن: راغب اصفهانی (م ٤٢٥ ق)، تحقیق صفوان عدنان داودی، دمشق، دارالقلم، بیروت، الدار الشامیه، الطبعة الاولی، ١٤١٦ ق.

مطارحات: مجموعه مصنفات شیخ اشراق، ج ١، یحیی سهروردی م ٥٨٧ ق. هانری کربن، پژوهشگاه علوم انسانی ـ تهران، ١٣٨٠ ش.

من لا يحضره الفقيه: شیخ صدوق، محمدبن‌علی‌بن‌حسین‌بن بابویه قمی (م ٣٨١ هـ .ق)، دار التعارف، بیروت.

الميزان في تفسير القرآن: سید محمدحسین الطباطبایی، (م ١٤٠٢ ق)، بیروت، مؤسسه اعلمی للمطبوعات.

نهج‌البلاغه: محمدبن‌حسين‌بن‌موسى، سيد رضى (م ٤٠٦ ق)، صبحى صالح، بيروت، دار الأسوة، ١٤١٥ ق.

نهج‌الفصاحة الحاوى لقصار كلمات الرسول الاكرم: تحقيق غلامحسين مجيدى، مؤسسه انصاريان، الطبعة الاولى، ١٣٧٩.

وسائل الشيعه الى تحصيل مسائل الشريعه: محمدبن‌حسن حر عاملى (م ١١٠٤ ق)، تحقيق مؤسسه آل‌البيت، بيروت، دار احياء التراث العربى، چاپ اول، ١٤١٤ ق.



By Ayatullah Javadi Amuli





ناشر برگزیده نهمین نمایشگاه بین المللی قرآن کریم

قم المقدسة، بلوار امین، زقاق رقم ۸، رقم المؤسسة ۱۳۷

الهاتف: ۶۶۴۱۶۲۱ - ۶۶۴۱۶۲۲ - ۲۹۳۱۱۷۸ الفاکس: ۲۹۳۱۱۶۹

البريد الالكتروني: Publish_center@esraco.net

موقعنا على شبكة الانترنت: www.esra.ir